سنن تغيير النفس والمجتمع

جودت سعيد

العمل قدرة وإرادة

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

سُنَن التَّغيير

العمل قدرة وإرادة

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ، وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ .

[الكهف ١٨/١١٠]

جودت سعيد

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م
ط ١ ١٤٠٠ = ١٩٨٠ م

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلاّ بإذن خطي من **دار الفكر المعاصر**

لبنان - **بيروت** - ساقية الجنزير، خلف الكارلتون، س. ت ٥١٤٩٧
ص. ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٣٩) تلكس: FIKR 44316 LE

الصف التصويري: دار الفكر بدمشق

كلمة الناشر

لقد بدأ المؤلّف يطرح أفكاره ضمن سلسلة اختار لها عنوان (سنن تغيير النفس والمجتمع) ، منذ حوالي ثلث قرن ، في محاولة منه للإسهام في معالجة مشكلة تخلف المسلمين ، وانعدام فعاليتهم ، وغيابهم عن التأثير في أحداث العالم ، وعجزهم عن مواجهة الغزو الاستعماري الذي نجح في استضعافهم واستذلالهم ، ونهب خيراتهم ، واستغلال مواردهم .

وعلى الرغم من البطء في انتشار هذه الأفكار ، ودخولها في وعي المثقفين ، بسبب الحجب الكثيفة المسدلة على العقول ، وسيطرة الفكر التقليدي على الأذهان ، والخوف من التغيير الذي جعله الله تعالى الطريق الوحيد للنهوض من العثار في قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ .

وعلى الرغم من سقوط العمل الإسلامي خلال هذه الحقبة في المحاذير التي نبَّه إليها المؤلف ، وغرق العديد من بلدان العالم الإسلامي في دوامة العنف التي حذر منها ، واعتبرها أم المشكلات ، ورأس الفتن والبلايا ..

وبعد ثلث قرن من التجارب والمعاناة لهموم المسلمين ، فإن المؤلف يبدو أكثر اقتناعاً بأفكاره التي سبق أن طرحها ، وأكثر إصراراً على نشرها وترسيخها في ذاكرة الأجيال ، عسى أن يخرج منهم شباب أكثر وعياً ، وأعمق فهماً ، وأرحب صدراً ، وأوسع انفتاحاً ، وأقدر على توجيه مجتمعاتهم المتخلفة نحو الرقي والحضور على مسرح الاحداث العالمية ، والإسهام الإيجابي في صنعها .

يبدو ذلك من مقدمته التي كتبها لهذه الطبعة الجديدة المنقحة من سلسلة (سنن تغيير النفس والمجتمع) ، والتي آثرنا أن نصدر بها كتابه الأول في هذه السلسلة : (مذهب ابن آدم الأول) ، وأن ننوّه عنها في بقية الكتب ، دون أن نكررها في كل واحد منها ..

آملين أن نكون بذلك قد أسهمنا في نشر هذه الأفكار والترويج لها ، كي تصل إلى مستوىً أوسع من القراء في العالم العربي والإسلامي ، تاركين للقراء أن يسهموا ، بوعيهم وشعورهم بالمسؤولية عن أداء الأمانة : في تحويل هذه الأفكار إلى نطاق الفعالية ، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر : ﴿ وَمَنْ أَحسَنُ قَولاً مِمَّن دَعَا إلى اللهِ ، وَعَمِلَ صَالِحاً ، وَقَالَ إنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصّلت ٤١/٣٣] ، ﴿ وَمَنْ أَظلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ ﴾ [البقرة ٢/١٤٠] .

المحتوى

الموضوع	الصفحة
كلمة الناشر	٥
المحتوى	٧
المقدمة	١١
الفصل الأول ـ مصطلحات البحث	١٧
الفصل الثاني ـ العمل	٦٥
١ ـ منطلقات العمل :	٦٥
أ ـ التسخير	٦٩
ب ـ انظروا كيف بدأ الخلق	٨٠
٢ ـ كيف يتولد العمل ؟	٨٣
أ ـ تعريف العمل	٨٣
ب ـ أركان العمل	٨٥
الفصل الثالث ـ الإرادة	٩٣
١ ـ تعريف الإرادة	٩٣
٢ ـ من أي شيء تتكون الإرادة ؟	١٠٠
٣ ـ بعض خصائص الإرادة	١٢٦
أ ـ الإرادة تنتقل بالوراثة الاجتماعية	١٢٦
ب ـ الإرادة لها مستويات	١٢٨

الموضوع	الصفحة
جـ ـ الإرادة يمكن أن تقوَّم وتقاس	١٣٣
د ـ الإرادة يلام فاقدها ، ويعذر بشروط	١٣٩
٤ ـ الإرادة روح الأمة	١٦٤
٥ ـ الإرادة كقيمة وكصناعة	١٦٩
الفصل الرابع ـ القدرة	١٧٧
١ ـ عمق المشكلة ومستويات القدرة	١٧٨
أ ـ القدرة المادية	١٨٠
ب ـ القدرة الفهمية	١٨١
٢ ـ كيف يحصّل الإنسان القدرات ؟	١٩١
ـ ملكة البحث لتحصيل القدرات	٢٠٤
٣ ـ الإرادة كانت قدرة	٢٠٦
٤ ـ القدرة الأخلاقية الكامنة	٢١٩
٥ ـ أسلوب آخر لتعريف الصواب	٢٢٨
الفصل الخامس ـ تطبيقات	٢٣٣
١ ـ هل عند العالم الإسلامي إرادة ؟	٢٣٣
٢ ـ عمى الألوان	٢٤٧
٣ ـ القدرة والإرادة كشريعة وحقيقة	٢٦٣
٤ ـ موقف أهل الدين والسياسة من نقص القدرة والإرادة	٢٦٦
دليل الأفكار	٢٧١
كتب للمؤلف	٣٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ
وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى

[النَّمل ٥٩/٢٧]

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

[البقرة ١٢٧/٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ترددت كثيراً في نشر هـذا الكتـاب ، وأخَّرْتُ طويـلاً إتمـام كتابتـه ، ولم يكن هـذا لشعوري بـأن الموضوع لا يستحق الاهتمام ، بل لشعوري بأن مـا كتبتـه لا يبرز المشكلـة بمـا تستحق من تقـدير ، إذ أن كثيراً من الموضوعـات التي تنـاولتهـا كنت أراهـا غير وافيـة ، ولكن كما قال أحدهم : « لوانتظرت حتى يتمّ الأمر لما ظهر الكتـاب » . ومقـابل هذا الشعور كنت أحِسُّ بارتياح في بعض الجوانب التي حالفها الوضوح إلى حدٍّ ما ، وهذا ما جعلني أتجاوز التردد إلى الإقدام على نشر الكتـاب وهكذا سُنَّة الله في خلقـه . والـذي آملـه من القـارئ أن يرى الجـانبين حتى لا يرى الكتاب من سقط المتاع ، ولا يرى أنه غاية مـا ينبغي أن يكتب في هذا الموضوع ، وذلـك لكي نخرج ممـا تعوَّدنـاه ، وهو أن نرى الأعمال : إما طاهرة مقدسة ، أو دنسـة حقيرة ..

وحيث إن من المعتـاد أن يفهم النـاس الأمور من خلال ذواتهم ، لا كما هي في الواقع ؛ يمكن أن يقـال : إن هـذا البحث يقـدّم الوسـائل

على الغايات ، وليس هناك شيء أبعد من هذا . فالأمر ليس موضوع تفاضل ، وإنما هو تكامل ، أي : وضع الأجزاء في مكانها الصحيح ليقوم الكلُّ بالوظيفة المحددة .

وإذا رأيت أخي القارئ ! أنني قد أطلت البحث فبعثت الملل في نفسك ، فرجائي أن تحاول بحث هذا الموضوع بتفاصيل أفكاره وتطبيقاته مع الناس ، فإذا وجدتَ حتى المستويات الفكرية الرفيعة - بالنسبة إلى واقعنا - لا تفهم الموضوع ، كما هو معروض في هذا الكتاب ، فستشعر حينذاك أنه بحاجة إلى بسط وتوضيحٍ وإلى تصريف القول فيه .

وإذا وجدتَ أن المشكلة جديرة بالبحث حقاً ، وأن جذورها عميقة في الأمة ، وأن ما جاء في هذا الكتاب غير كاف ، وأن ما سقتُهُ من الأدلة غير وافٍ ، فستجد في الكتاب زاداً لا بأس به يساعد على بحث المشكلة ، وذلك إذا بذلتَ الجهد في جمع شتات الأدلة من مواضعها المبعثرة في الكتاب .

ومع هذا كله ، فإنني أتوقع من الذين يريدون أن يفهموا الأمور على وجوهها ، أن يحملهم هذا الفهم على القيام بأحد عملين : إما عمل في العمق ، أو عمل في الاتساع ، أو القيام بهما معاً . فعمل العمق :

زيادة في الإدراك والتوضيح للمشكلة . وعمل الاتساع : بفتح أعين من تعنيهم المشكلة ليعوا القضية . وكلا العملين يساعد على توجيه طاقات الشباب كلها نحو سلوك طريق الفلاح .

وقد يرون أنني أخطأتُ ، أو قصَّرتُ في بعض التطبيقات على القواعد ، أو أن القواعد لم تستوفِ الشروط والاحترازات ... إن هذا أو ذاك يقوم بتصحيحه وتكميله الذين يهمهم هذا الأمر . فمَنْ درَّبَ نفسه على هذه الممارسة يتبين له : كيف يمكن أن يتم كل من التصحيح أو التكميل على يد أولئك ، وكيف يفوت المؤلف مثل هذه الأمور .

ولا بد لنا أن نتناول في هذه المقدمة الإشارة إلى أنه يقتضي التغيير في أساليب العمل الإسلامي ، كي يتوافق مع سنن التسخير ، أو يكون أقرب إلى هذه السُّنن بدل أن يتجنَّبها أو يعاكسها .

فمثلاً : إن إيجاد طريقة للعمل على أساس الواجبات ، غير العمل على أساس الحقوق .. والرسول ﷺ علمنا أن نعطي الذي علينا ، ونسأل الله الذي لنا ، وهذه هي الطريقة المضمونة . وقد روى مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة ، أن النَّبي ﷺ قال : « إنها ستكون بعدي أثَرَةٌ ، وأمور تنكرونها . قالوا : يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منّا ذلك ؟ قال : تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم » .

وإن النتائج تختلف رغم حتميتها ، تبعاً لما نمارسه من الأسباب من سير في طريق الواجبات ، أو من عكس للموضوع ، وتطلع إلى حقوقنا وإهمال لواجباتنا ، أو عدم النظر إلى النتائج دون الأسباب المحققة لها نظرةً دقيقة . والتطلُّع إلى إصلاح أهل السياسة دون إصلاح حال المجتمع ، عمل من أعمال المطالبة بالحقوق دون أداء الواجبات ؛ أو النظر إلى رؤية النتائج دون رؤية الأسباب ..

كما أن التطلع إلى الوصول إلى الحكم عن طريق العنف ، أنموذج آخر لعكس القوانين ، وإن المسلمين اليوم قد عكسوا كثيراً من القوانين ، وبأشكال مختلفة مع حسن النوايا ، وإن تغيير النظر إلى هذه الأمور يكون سبباً لتغيير المواقف وتغيير الأعمال ، فالأعمال التثقيفية التغيرية ، البسيطة العميقة ، والتي لا تقبل النكسات ، لا قدرة لنا على رؤيتها ..

فلا عجب إذن أن لا تُطرح البدائل ، وطرائق العمل الجديدة المختلفة ، إلا في القليل النادر جداً . بل إن البدائل وطرق العمل الجديدة لا تدخل في صورة عمق في الفهم ، وإنما في صورة ملجأ للعاجزين . وهناك شبه إجماع بين الفرقاء ـ اليمين واليسار وما بينهما ـ على طرق التغيير بإتيان البيوت من ظهورها ، لا من

أبوابها ، فجميعهم يسلكون سبيل المطالبة بالحقوق ، لا سبيل أداء الواجبات ، ويهتمون بتنظيم الدولة لا بإنشاء المجتمع ، ويعتمدون أسلوب العنف والإكراه لا أسلوب الإقناع العلمي والتفهيم .

فبدل الواجبات ، والمجتمع ، والعلم (القدرة) ، نجد البدائل المؤسفة : الحقوق ، والدولة ، والقوة (الإرادة) . ويكاد يكون الإجماع على أن هذه البدائل هي القانون الطبيعي ، بل القانون المقبول عندهم . وإن كان هناك من ينكر فبشيء من الحياء ؛ وأنا واحد منهم .. وليس هناك الكثير من هذا النمط .

وهذا الكتاب محاولة لإلقاء أضواء على الموضوع ، رجاء أن تجد القضية مزيداً من الأنصار ، إلا أن إبراز البدائل لطرائق العمل المعتادة يكون في بعض الأحيان محيّراً ؛ ولا يجد السند الكافي ، لأننا في حقيقة الأمر ، لم نقطع شوطاً بعيداً في دعم اتجاهنا ، من الناحية النظرية والناحية العملية .

وهذا يجعل من الضروري أن يتوفر لهذا الاتجاه من ذوي الكفاءات والنظرات النافذة العملية ، الذين لا تخدعهم الطرائق التي تبدو في بادئ الأمر أنها قريبة المنال .. وهذا ما يفسّر معنى الابتلاء الوارد في القرآن الكريم ، ابتلاء ذكاء الإنسان في رؤية الأسباب

الصحيحــة ، لأن النظرة العجلى تفسّر الأمــور تفسيراً سطحيــاً : كما فسَّروا قديماً حركة الشمس بـأنها هي التي تـدور حول الأرض . وربما كانت حركة الشمس آية للإنسان في قابلية وقوعه في التفسير الخاطئ لما يظنه واضحاً جداً ، ليراجع مفاهيمه وأعماله لا سيما حين تتـأخر العواقب عن أوقاتها التي قدَّر الله لها قدرها .. والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب ، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل .

٢٧ رمضان ١٣٩٩ هـ **جودت سعيد**

الفصل الأول

مُصطَلحات البَحث

لا يتحقق عمل ناجح بغير إخلاص وصواب ، فما لا نريده ولا نخلص له لا نعمله ، وما لا نعرف طريق تحقيقه لا نسعى إليه ، ولو سعينا إليه بغير طريقه فلا نصل إليه . ونذكر مثلاً يقرّب معنى الإخلاص والصواب (الإرادة والقدرة) حتى نعرف بعد ذلك المصطلحات التي تدل على المعنى نفسه أو ما هو قريب منه .

فموقف الأم من الابن المريض في حرصها على شفاء ولدها يمكن أن نسميه موقف إخلاص (إرادة) ، حيث أن موقفها نحو ابنها المريض لا يداخله غش أو خداع ، وإنما هو إخلاص كامل لإرادة الشفاء . فهنا هو الإخلاص كشيء واضح قريب المأخذ يمكن أن نقرّب به محتوى الإخلاص (الإرادة) بادئ ذي بدء . ولكن هذا الموقف الذي تحمله الأم نحو ابنها المريض يمكن أن نراه منفصلاً بدرجات متفاوتة عن المعرفة الدقيقة للعلاج الذي سيكون سبباً في شفاء هذا

الابن ، وإن المعرفة الاختصاصية الحاذقة لعلاج هذا الابن المريض يمكن أن نسميها : الصواب (القدرة) .

فإذا تبيّن لنا بهذا المثل الجانب الذي يطلق عليه الإخلاص (الإرادة) ، والجانب الذي يطلق عليه الصواب (القدرة) ، فسنجد هذا المثل منطلقاً لبحث هذين المعنيين : بعد أن استندنا إلى فهم أولي واضح لكل منهما ، وذلك أن :

١ ـ الإرادة (الإخلاص) : هي حبُّ تحصيل أمر ما وإرادته والإخلاص له .

٢ ـ القدرة (الصواب) : هي معرفة كيفية تحصيل هذا الأمر المراد .

هذا ، وقد قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك ٦٧/٢] ، قال : أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً لم يقبل ؛ حتى يكون خالصاً وصواباً . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السُّنَّة[1] .

---

(١) ابن تيمية ـ كتاب العبودية ـ ص ٣٢

وقد ذكر ابن تيمية قول الفضيل هذا في أكثر من عشرة مواطن في الفتاوى . وذكر مثل هذا في كتاب النبوات ص ٨٧ ـ طبع القاهرة ١٣٤٦ هـ .

وتوضيح معنى الإخلاص (الإرادة) والصواب (القدرة) ، هو موضوع هذا الكتاب ، وذلك لأهميته وتعلُّقه بمشكلة المجتمعات البشرية عامة ومشكلة المجتمع المسلم خاصة .

وسنذكر هنا جدولاً من المصطلحات ، التي يمكن أن تؤدي معنى الإرادة (الإخلاص) والقدرة (الصواب) ، مع تقديم المصطلح الذي يخصُّ الإرادة :

١ ـ الإخلاص والصواب .

٢ ـ إيَّاك نعبد وإياك نستعين .

٣ ـ لا إله إلا الله .

٤ ـ الغاية والوسيلة .

٥ ـ لماذا وكيف ؟

٦ ـ البواعث المعللة والطرق التنفيذية .

٧ ـ الموثوق والمضطلع .

٨ ـ العدل الضابط .

٩ ـ الأمانة والقوة .

١٠ ـ الحفيظ العليم .

١١ ـ القاعدة والقمة .

١٢ ـ اللاشعور والشعور .

١٣ ـ العاطفة والفكر .
١٤ ـ الأخلاق والعلم .
١٥ ـ القلب والعقل .

١ ـ الإخلاص (الإرادة) والصواب (القدرة) :

قال ابن تيمية في جواب سؤال عن الهمّ والعزم والإرادة : « ... والإرادة الجازمة هي التي يجب وقوع الفعل معها إذا كانت القدرة حاصلة ؛ فإنه متى وجدت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة ، وجب وجود الفعل لكمال وجود المقتضي السالم عن المُعارض المقاوم[١] . ومتى وجدت الإرادة والقدرة التامة ولم يقع الفعل ، لم تكن الإرادة جازمة . وهو إرادات الخلق لما يقدرون عليه من الأفعال ولم يفعلوه : وإن كانت هذه الإرادات متفاوتة في القوة والضعف تفاوتاً كثيراً ، لكن حيث لم يقع الفعل المراد مع وجود القدرة التامة فليست الإرادة جازمة جزماً تاماً . وهذه المسألة إنما كثر فيها النزاع ، لأنهم قدَّروا إرادة جازمة للفعل لا يقترن بها شيء من الفعل ، وهذا لا يكون .

وإنما يكون ذلك في العزم على أن يفعل ، فقد يعزم على الفعل من لا يفعل منه شيئاً في الحال . والعزم على أن يفعل في المستقبل لا يكفي في وجود الفعل ، بل لابد عند وجوده من حدوث تمام الإرادة المستلزمة للفعل ، وهذه هي الإرادة الجازمة . والإرادة الجازمة إذا فعل معها الإنسان ما يقدر عليه ، كان في الشرع بمنزلة الفاعل التام ، وله

(١) أي : استيفاء الشروط وانتفاء الموانع .

ثواب الفاعل التام وعقاب الفاعل التام »[1] .

وقال رحمه الله في مكان آخر : « ... ومما يوضح هذا أن الله سبحانه وتعالى ، في القرآن ، رتّب الثواب والعقاب على مجرد الإرادة : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ [الإسراء ١٧/١٧] . ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى ٤٢/٢٠] .

وحيث لم يوجد فعل أصلاً فهو همٌّ . وحديث النفس ليس إرادة جازمة . ولهذا لم يجئ في النصوص العفو عن مسمى الإرادة والحب والبغض والحسد والكبر والعجب وغير ذلك من أعمال القلوب »[2] .

ويقول أيضاً رحمه الله : « ... فإذا عُرف أن الإرادة الجازمة لا يتخلف عنها الفعل مع القدرة إلا لعجز ، يُجرى صاحبها مجرى الفاعل التام في الثواب والعقاب . أما إذا تخلف عنها ما يقدر عليها ، فذلك المتخلف لا يكون مراداً إرادة جازمة ، بل هو الهمُّ الذي وقع العفو عنه ، وبه تأتلف النصوص والأصول »[3] .

---

(١) ابن تيمية ، الفتاوى ، طبعة الرياض ، ١٣٨٢ هـ ، المجلد العاشر ، ص ٧٢٢

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٤٧

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٦٦

ملاحظة : كلما ورد ذكر فتاوى ابن تيمية ، فالمقصود به هذه الطبعة .

وعلى الرغم من أن شيخ الإسلام ابن تيمية يقرر في وقت مبكر هذا القانون الثابت في حصول العمل ، يشيع ، في العصر الحديث ، بين شباب المسلمين فكرة تقول : « إن التخطيط السليم لا يقتضي بالضرورة الوصول إلى الهدف » . كما نجد أيضاً من يقرر : « والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها ، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها . ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج ، وإنما هي الإرادة الطليقة التي تنتج الآثار والنتائج كما تنشئ الأسباب والمقدمات سواء » .

ويبحث ابن تيمية هذا الموضوع من حيث الثواب والعقاب الأخرويان ، ولا يبحث الموضوع من الناحية الدنيوية ، أي النتائج الاجتماعية في الحياة ، فهو يقرر أن الإرادة إذا كانت جازمة فلا يؤاخذ الإنسان بما عجز عنه كحال البكائين :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ . مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ : لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيهِ ، تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ [التوبة ٩/٩١، ٩٢] .

ولكن الجانب الذي نبحثه نحن هو النجاح الدنيوي ، فالذي يعمل ما يقدر عليه اليوم يتمكن غداً مما عجز عنه اليوم ، فإذا لم يفعل ما يقدر عليه اليوم ظلَّ عاجزاً .

ولكن المهم عند ابن تيمية ، رحمه الله ، أنه يقرر أن الإرادة الجازمة والقدرة التامة توجبان العمل ضرورة . فإذا تخلَّف العمل فينبغي أن يبحث عن السبب ، وهذه أرضية مهمة للانطلاق منها في البحث ، وهذا ماأردته .

ووجهة نظري أن الذي ينقص المسلمين ليس من جانب الإرادة ، وإنما من جانب القدرة . ولكن نظرهم في هذا له مداخلات بحيث يعطِّل قيمة الإرادات ؛ وهذا ماأردتُ شرحه في هذا الكتاب لعلي وفقت إلى إلقاء بعض الأضواء على هذا الموضوع ، ومهما يكن فإن تحديد الموضوع بهذا الشكل له قيمة ، ولهذا رأيت أن أجعل عنوان بحث الكتاب (القدرة والإرادة) ، وإن أول ماتبلور عندي كان تحت عنوان (الإخلاص والصواب) ، وكلا المصطلحين مما استخدمه المسلمون في بحوثهم وهما واردان في القرآن : ﴿ عَلَى الْمُوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ .. ﴾ [البقرة ٢٣٦/٢] ، ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ .. ﴾ [التوبة ٤٦/٩] ، ﴿ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِين .. ﴾ [الصافات ٤٠/٣٧] ، ﴿ إلاَّ

مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ [النبأ ٣٨/٧٨] ، ﴿ إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأمِينُ ﴾ [القصص ٢٦/٢٨] .

والأستاذ مالك بن نبي يستخدم هاتين الكلمتين كقانون رياضي ومعادلة لبحث قانون حركة المجتمع فيقول : « إن إرادة المجتمع وقدرته تضفيان على وظيفة الحضارة موضوعية وفعَّالية ، أي أن جملة العوامل المعنوية والمادية اللازمة لتحقيق تقدم الفرد تصبح موضوعية ؛ وذلك بأن تتحول إلى سياسة وتشريع ، فيمثلان عالم الأفكار في هذا المجتمع على الصعيد الاجتماعي والأخلاقي تمثيلاً مباشراً »[١] .

٢ ـ إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين[٢] :

ومن مصطلحات الإرادة (الإخلاص) والقدرة (الصواب) ، العبادة : وهي إخلاص العمل لله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ ﴾ [البيّنة ٥/٩٨] . والاستعانة : هي تسخير ما خلق الله عليه الكون من السُّنن والأسباب . فالدِّين الحق : أن لا نعبد إلا الله ، ولا نعبده إلا بما شرع الله ، والاستعانة المطلوبة : أن يعلم العبد سنن الله ويستعين بها على تنفيذ أمر الله .

---

(١) مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ص ١٥١

(٢) سورة الفاتحة : ٥/١

يقول ابن تيمية ، رحمه الله ،: « وكل عمل لا يعين الله العبد عليه فإنه لا يكون ولا ينفع ، فما لا يكون به لا يكون ، ومالا يكون له لا ينفع ولا يدوم . فذلك أمر الله العبد أن يقول : إيّاك نعبد وإيّاك نستعين »[1] .

ويقول ابن كثير ، رحمه الله ، في تفسير الآية : « وتقديم نعبد على نستعين لأن العبادة له هي المقصودة ، والاستعانة هي الوسيلة إليها »[2] .

والناس بالنسبة للعبادة والاستعانة أربعة أصناف :

١ - من يعبد ويستعين وهذا هو صاحب الصراط المستقيم .

٢ - من لا يعبد ولا يستعين فأولئك كالأنعام .

٣ - ومنهم من يعبد ولا يستعين مثل بعض الذين يتركون ممارسة الأسباب في الحياة مُدّعين التوكل على الله .

٤ - ومنهم من يستعين ولا يعبد .

وعموماً يمكن القول بأن المسلمين يغلب عليهم في الوقت الحاضر

---

(١) ابن تيمية ، الفتاوى : ٧٦/٨

(٢) تفسير ابن كثير لآية ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

أنهم يعبدون الله ولا يستعينون بسننه . كما يمكن أن يقال أيضاً بأن العالم الغربي في هذه الظروف يمثل الصّنف الذي يستعين بسنن الله والوسائل التي خلقها ، فهم يتمتعون بنعم الله ولكنهم لا يعبدونه ، و يأكلون من رزقه ولا يشكرونه . وقليل من الناس من يجمع العبادة والاستعانة ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ ١٣/٣٤] .

هذا في مستوى الفرد ، ولهذا قيل : من العجائب ، فقيه صوفي وعالم زاهد . أما في مستوى المجتمع فالموضوع فيه أعمق وأدق ، ولهذا وصف الله أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة ٥/١] ، بأنهم الأمة الوسط .

وجاء في صحيح مسلم ما يدل على أن ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ هو العهد الذي بين الله وبين العبد : عن رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل : إذا قال : الحمد لله ربّ العالمين ، قال الله : حَمَدني عبدي . وإذا قال : الرّحمن الرّحيم ، قال الله : أثنى عليّ عبدي . فإذا قال : مالك يوم الدّين ، قال الله : مَجَّدَني عبدي . وإذا قال إيّاك نعبد وإياك نستعين ، قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل . وإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الّذين

أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضَّالين . قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل »[1] .

وهذه مشكلة الأمم فمنها من تستعين بالأسباب والوسائل التي وضعها الله تعالى ولا تعبده ولا تتعرف على أمره في العبادة . ومنها من تعبد الله ولكنها تغفل عن أمره بالاستعانة والتعرف على سننه وأسبابه . وعلى الشباب المسلم العابد الخاشع أن يتعلم الاستعانة بسنن الله تعالى على إقامة أمره .

٣ ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله :

وجدنا أن الإخلاص ما كان لله وحده ، والصواب ما كان على السُّنة التي جاء بها رسول الله ﷺ وهما الغاية والوسيلة . والدِّين كله يدور حول الشهادتين ، فإحداهما تتضمن الإخلاص ـ ولهذا سميت السورة التي تتضمن التوحيد بسورة الإخلاص ـ والشهادة الأخرى تتضمن الصواب ، وهو ما جاء به رسول الله ﷺ :

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران ٣١/٣] .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة .

وهنا ينبغي أن نشير إلى جانب علينا أن لا نغفله ، وهو أن عبادة الله بما شرع الله هو أمر مسلَّم به ، وأما تسخير هذا الكون لهذا الشرع ففيه غموض . فالشريعة تأمرنا أن نفهم طرق هذا التسخير من الكون ذاته لا من الكتاب ، سواء في مستوى المادة أو في مستوى المجتمع :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصّلت ٤١/٥٣] .

فالله سبحانه وتعالى أمرنا أن نأكل من رزقه الذي أحلَّه لنا وكسبناه من طرقه ، فتحديد الحلال من الرزق وتحديد الحلال من طرق الكسب هو الذي يُرْجَعُ إلى الشرع في معرفته ، وهو موضوع (الحلال والحرام) ، وأما كيفية تحصيل هذا الرزق وتسخير الأرض والشجر والدواب على أساس السُّنن المودعة فيها ، فهو ما يأمرنا الله تعالى به أن نتعلمه من النظر والممارسة ، وهذا ما قال عنه رسول الله ﷺ : « أنتم أعلم بأمور دنياكم »[١] .

وإذا نظرنا إلى هذه القضية من جهة أن الله يأمرنا بها فهي داخلة وموجودة في شرع الله من هذا الجانب . وأما إن فُهِم أن الله

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل .

يوضح لنا هذا في الكتاب أيضاً ، فهو ليس كذلك . وكثيراً ما يخفى هذا التفصيل بين ما فصَّل الله لنا في الكتاب من الأمر الشرعي ، وبين ما أمرنا الله أن نتعلمه من تأمل الواقع الكوني ، وبالتالي يتبادر إلى أذهان كثير من أهل الإخلاص أن الاهتمام بتعلّم آيات الله في الآفاق والأنفس إعراض عن آيات الله في كتابه الكريم . ويقول ابن تيمية في هذا :

«... وإذا كان لا بد من بيان شهادته للعباد ليعلموا أنه قد شهد فهو قد بيَّنها بالطريقتين : بالسمع والبصر ، فالسميع يسمع آيات الله المتلوّة المنزلة ، والبصير يُعاين آياته المخلوقة المنظورة ، وذلك أن شهادته تتضمن بيانه ودلالته للعباد وتعريفهم ذلك ... وأما الطريق العياني فهي أن يُري العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يُبيِّن لهم أن الوحي الذي بلَّغته الرُّسل عن الله حق كما قال الله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصّلت ٥٣/٤١] »[1] .

وكذلك سنن تسخير المجتمع ، فهناك سنن كونية خلقية عامة تخضع لها المجتمعات في عملية التغيير ، ونتعلمها من النظر إلى سير الذين

---

(١) ابن تيمية ، الفتاوى : ١٨٧/١٤ ـ ١٨٩

خلوا من قبل . فمثلاً هناك سنن عامة كونية لبناء البيوت ؛ أما بناء البيت المسلم الشرعي فهو شيء آخر .

وضربنا المثل بزرع الأرض وبناء المجتمع ، وقد يعترض معترض بأن هذا مثل ذاك . والجواب : إن المثلية هنا هي خضوع كلٌ منهما للسُّنن لا أن السُّنن هي نفسها ؛ أي في الخضوع للسنن من حيث قواعدها الصارمة لا من حيث نوعها .

ولهذا ضرب رسول الله ﷺ مثل الهدى الذي بعثه الله به ، بالغيث الذي يكون سبباً لنبات الزرع . ثم نتصرف في هذا الزرع وفق أوامر الله الشرعية الخلقية ، ولكننا نستنبتها وفق أوامر الله الكونية الخلقية ﴿ ألاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ [الأعراف ٥٤/٧] ، أي له السُّنن الكونية الخَلقية والسُّنن الشرعية الخُلُقية ، أي : الربوبية والألوهية .

والرسول ﷺ شبَّه الهدى بالماء والمجتمعات بالأرض ، وبيَّن أن العلاقة بين الماء والأرض والهدى والمجتمع ، تخضع لسنَّة كونية طبيعية أو شرعية أخلاقية[1] .

(١) استنتاجاً من الحديث الذي يرويه البخاري عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ : « مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمَثَل غيثٍ أصاب أرضاً فكانت منها طائفة

والله سبحانه وتعالى يعلِّمنا السُّنن الشرعية في الكتاب المنزل ، ويعلمنا السُّنن الطبيعية الكونية في آياته في الآفاق والأنفس ، ويأمرنا في كتابه بأن نتعلمها من مكانها في الآفاق والأنفس . لهذا مع ما يأمرنا الله به من المنهاج الشرعي (الأمر والنهي) ، يأمرنا الله تعالى بالسير والنظر إلى سنن الذين خلوا من قبل ، وهو منهاجه الكوني : فكل منهما مأمور به . ولكن الذي ينبغي أن لا يفوت الذي يقوم بعملية التغيير ، هو تحديد الجانب الذي يلزم لحلّ المشكلة : هل هو الجهل الذي يحيط بمعرفة الحلال والحرام ، أم أن المشكلة في الذي يعرف الواجب والحرام ، ثم يعجز عن عمل الواجب وترك الحرام ؛ أم في الذي لم يعد يبالي بالواجب والحرام ولا بكيفية تحقيقهما ؟ والمهم أن لا نخلط في أن معالجة كل واحد من هؤلاء تختلف عن الآخر ، وأن بحث هذا الكتاب يتعلق بالقسم الثاني وعلاجه ، أي بالذين بيدهم الكتاب

= طيّبة قَبِلَت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادبُ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسَقَوا وزرعوا . وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان : لا تمسك ماء ولا تُنبت كلأ . فذلك مثلُ من فَقُهَ في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِمَ وعلَّمَ . ومثل من لم يرفع بذلك رأساً . ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به » .

رواه البخاري في كتاب العلم

ولا ينتفعون مما فيه بشيء ، لذهاب العلم الذي يبيّنه حديث ذهاب العلم .

ويقول في هذا ابن تيمية : « ... إن الله لم يقصّ علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعتبر بها ، لما في الاعتبار بها من حاجتنا إليه ومصلحتنا ، وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول وكانا مشتركين في المقتضي للحكم »[1] .

٤ ـ الغاية والوسيلة :

ومن مصطلحات الإخلاص (الإرادة) والصواب (القدرة) : الغاية والوسيلة ؛ إلا أن الإخلاص معناه : الحالة التي تحدث عند الإنسان المخلص ؛ ولكن الغاية : هي الأمر المراد والمخلَص له ، إذ يمكن أن تفهم الغاية على أنها المثل الأعلى الذي يتوجه الإخلاص إليه .

أما الوسيلة فهي الاستخدام الصحيح للإمكانات المتاحة ؛ وتشمل الأشياء والأفكار ، أو الآفاق والأنفس وسننها ، أو القدرات المادية والفهمية .

يقول ابن المقفع : « أما بعد : فإن لكل مخلوق حاجة ، ولكل

---

(١) ابن تيمية ، الفتاوى : ٣٢٢/١٤

حاجة غاية ، ولكل غاية سبيلاً ؛ فغاية الناس وحاجتهم : صلاح المعاش والمعاد ، والسبيل لدركها العقل الصحيح . وأمارة صحة العقل اختيار الأمور بالبصر ... فعلى العاقل أن يعلم أنَّ الناس مشتركون مستوون في الحبِّ لما يوافق ، والبغض لما يؤذي ، وأن هذه المنزلة اتَّفق عليها الحمقى والأكياس ، ثم اختلفوا بعدها في خصال : من ذلك أن العاقل ينظر في ما يؤذيه وفي ما يسره ، فيعلم أن أحق ذلك بالطلب إن كان مما يحب ، وأحقه بالاتقاء إن كان مما يكره : أطوله وأدومه وأبقاه »[1] .

وهنا يمكن تصحيح فكرة (الذرائعية) ، حيث يدينها بعضهم إدانة مطلقة دون تحفظ . وأكثر الخطأ ينتج عن الإدانات العامة من غير نظر إلى الحالات الخاصة ؛ بل الصواب أن يكون هنا صحة الفكرة الذرائعية وخطأ الحالة الخاصة ، ذلك أن النفع لا يمكن أن يدان إلا إذا كان نفعاً عاجلاً زائلاً وغير مستمر دائم ، فطلب الدائم المستمر من النفع هو الصواب على الإطلاق ، لهذا يدين الله الذين يحبون العاجلة ويذرون الآخرة : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴾ [القيامة ٧٥/٢٠-٢١] .

---

(١) ابن المقفع ، مقدمة الأدب الصغير .

وبعض الناس يرون النفعية في الأنانية الفردية ، بينما مصلحة الفرد الدائمة ليست في الأنانية الفردية ، بل لِمَا يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الفردية : فالمصلحة العامة هي الأدوم والأنفع على طول الزمن ، وحصر النفع في المصلحة الخاصة فهمٌ خاطئ لمعنى المنفعة .

٥ ـ لماذا وكيف ؟

هذان المصطلحان سؤالان عن الإرادة والقدرة : (لماذا أفعل ؟) سؤال عن الإرادة ، و (كيف أفعل ؟) سؤال عن القدرة .

ويقول الأستاذ مالك بن نبي في هذا : « والتاريخ في أي مستوى من الحضارة يتم إنجازه ، إنما يمثل النشاط المشترك للأشياء والأشخاص والأفكار المتاحة في ذلك الحين بالذات ، أي في الأوان نفسه الذي يواكب عملية إنجازه . وهذا الحكم المسبق يجب أن نجعله قابلاً للإدراك بتطبيق طريقة التقسيم والتحليل :

ومن هنا يتعين علينا أن نحلّل التاريخ إلى أجزائه الذرية . فالنشاط الفردي يمثل ضمن بعض الشروط المعينة ذرة من التاريخ ، ويمكننا أن نتمثله ضمن أكثر أشكاله بساطة في صورة نشاط الصانع اليدوي المنكب على عمله والمقص في يمناه ؛ أو في صورة نشاط الجندي المسلح ببندقيته في ميدان القتال . فهذان يصنعان التاريخ إذا تحقق

لها توفُّر الشروط العادية . ونحن نلاحظ في كلا الحالتين : أن نشاط العمل اليدوي أو الفلاحي أو الحربي إنما يتم إنجازه ابتداءً من حدَّين مشاهدين هما : الإنسان وأداته . وإن كان الواقع أن هذين الحدَّين المشاهدين يخفيان واقعاً أشد تعقيداً ، لأن النشاط لا يتم إنجازه فعلياً إلا ضمن شروط من شأنها أن تقدم بالضرورة جواباً عن سؤالين هما : كيف يكون ذلك ؟ ولماذا يكون ؟

فالإنسان لا يتصرف كيفما اتفق ولا دونما أسباب ، وإلا جازف بالاضطلاع بمهمة مستحيلة إن فقد الجواب عن (كيف ؟) أو لا معقولة إن فقد الجواب عن (لماذا ؟) .

والنشاط البشري لا يمكنه أن يُحدَّد بمعزل عن الطرائق التي تشرط إنجازه العملي ، ولا بمعزل عن بواعثه المعلّلة ... »[1] .

٦ ـ البواعث المعللة (الإرادة) والطرق التنفيذية (القدرة) :

يقول مالك بن نبي رحمه الله : « وفي النشاط المشترك للمجتمع

---

(١) مالك بن نبي : القضايا الكبرى ، دار الفكر دمشق ، ط ١ ، ١٩٩١ ، ص ٩٨ ـ ٩٩ ولمالك محاضرة كاملة في هذا الموضوع (لماذا وكيف ؟) في نادي الطلبة المغاربة بدمشق عام ١٩٧٢

يتداخل عالم الأشياء مع كل من عالم الأشخاص وعالم الأفكار . وغني عن البيان أن هيكل هذا النشاط ـ حتى ولو كان النشاط بدائياً ـ ينطوي بالضرورة على البواعث من ناحية ، ومن ناحية أخرى على الطرق التنفيذية : بواعث ذات صبغة معنوية ، وأفكار تقنية . ولكن هناك دائماً تفوُّق من جانب أحد هذه العوامل ، وبهذا التفوُّق ـ الذي يتضح في طريقة المجتمع في السلوك والتفكير ـ يتميز كل مجتمع عن غيره من المجتمعات »[1] .

ولا يتميز المجتمع النامي بقلة الوسائل المادية (الأشياء) فحسب ، وإنما يتميز بقصور في الأفكار ، ويتجلى هذا القصور بصفة خاصة في طريقة استخدامه ، بفاعلية أو بعدم فاعلية للوسائل المادية المتوفرة لديه مع عجزه عن إيجاد غيرها ، كما يتميز بصفة خاصة في طريقة طرحه لمشاكله أو عدم طرحها على الإطلاق عندما يتغاضى عن أية رغبة عابرة تدعوه إلى دراستها .

وعلى هذا الأساس ، فالأرض مثلاً هي الوسيلة المأمونة ـ كما يقول اليوم الاقتصاديون الذين يدرسون مشاكل العالم الثالث ـ لضمان

---

(١) يتحدث الأستاذ مالك فيما يلي عن جانب القدرة الفكرية والمادية ولا يتحدث هنا عن الإرادة (البواعث المعللة) . ـ المؤلف .

إقلاع مجتمع ما من مرحلة أولية إلى مرحلة ثانوية مثل الصين الشعبية منذ عام ١٩٥١

إلا أننا نلاحظ أن أكثر الأراضي خصوبة في العالم - وهي أراضي العراق وأندونيسيا - لم تمكّن هذين البلدين من الإقلاع لأن هناك قصوراً حقيقياً في الأفكار يظهر أثره في المجال السياسي والاقتصادي على شكل خمول معوّق يشبه - من وجهة نظر علم الاجتماع - الخصائص النفسية الاجتماعية التي يتميّز بها العالم الإسلامي في الوقت الحاضر، ويستطيع أن يتناول هذه الصورة بالشرح والتفسير كل من المؤرخين والاقتصاديين وعلماء الاجتماع؛ كل بطريقته الخاصة.

وسنحاول أن نقدّم هنا لهذه الصورة تفسيراً نفسياً اجتماعياً معتمدين على نظرية «الأعمار الثلاثة ...»[1].

٧ - الموثوق والمضطلع:

حينما نريد استخدام أي إنسان في عمل: نراعي فيه جانبين وهما:

---

(١) مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر دمشق، ط١، ١٩٨٨، ص ٣٦

١ ـ هل يخدمنا بصدق وأمانة ويخلص في العمل دون أن يسرق أو يخون ؟

٢ ـ هل يُحسن هذا العمل الذي سنكلِّفه به ؟

وقد تناول ابن خلدون هذا الموضوع بهذين المصطلحين ، وهو الذي وضعهما فقال : (فصل في أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي) :

« ... فالخديم ... لا يعدو أربع حالات : إما مضطلع بأمره وموثوق فيما حصل بيده ، وإما بالعكس فيهما وهو أن يكون غير مضطلع بأمره ولا موثوق فيما يحصل بيده ، وإما بالعكس في إحداهما فقط ..

فأما الأول : فلا يمكن أحداً استعماله بوجه ، إذ هو غني عن أهل الرتب باضطلاعه وثقته ، ومحتقر للأجر لقدرته على أكثر ، فلا يستعمله إلا الأمراء أهل الجاه العريض لعموم الحاجة إلى الجاه .

وأما الثاني : فلا ينبغي لعاقل استعماله لأنه يجحف بمخدومه في الأمرين معاً فيضيّع عليه لعدم الاضطلاع تارة ويذهب ماله بالخيانة أخرى . فهو على كل حال كَلٌّ على مولاه . فهذان الصنفان لا يطمع أحد في استعمالهما . ولم يبق إلا استعمال الصنفين الآخرين : موثوق غير

مضطلع ، ومضطلع غير موثوق . وللناس في الترجيح بينهما مذهبان ، ولكل من الترجيحين وجه ، إلا أن المضطلع ولو كان غير موثوق أرجح ، لأنه يؤمَن من تضييعه ، ويحاول على التحرز من خيانته جهد الاستطاعة . أما المضيّع ولو كان مأموناً فضرره بالتضييع أكثر من نفعه .

فاعلم ذلك واتخذه قانوناً في الاستكفاء بالخدمة ، والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء »[1] .

٨ ـ العدل الضابط :

في مصطلح الحديث يعرفون الحديث الصحيح : « بالحديث المسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه ، ولا يكون شاذاً ولا معللاً »[2] . فما يشترط في راوي الحديث أن يكون عدلاً ضابطاً . والعدل : هو الذي يتوفر فيه الإخلاص لله ، والضابط : هو الذي لا تشتبه عليه الأمور لوعيه وقوة ذاكرته ، وهو الذي يوصل إلى الصواب ويجنب الوقوع في الخطأ .

ورواية الحديث شهادة ، وشرطها العدالة والضبط . وهما

(١) مقدمة ابن خلدون ، كتاب التحرير ، ص ٣٣٠ ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

(٢) مختصر علم الحديث لابن كثير ، القاهرة ، ١٩٣٦ م .

الإخلاص في الشهادة والصواب فيما يشهد به ، ويقول الله تعالى في هذا : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ [الطلاق ٢/٦٥] ، هنا في جانب الإخلاص في الشهادة ، أما في تحقيق الكفاءة ففيه قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ﴾ [البقرة ٢٨٢/٢] ، وذلك ليتحقق الصواب أي الضبط .

والأمة المسلمة منوط بها أمر الشهادة :

﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة ١٤٣/٢] .

فعليهم أن يوفروا شرطي الشهادة ، أي عليهم أن يشهدوا للحق وبالحق ، لله وبالقسط .

والقيام بوظيفة الشهادة يقتضي الحضور والشهود لأكبر كَمٍّ ممكن من القضايا زماناً ومكاناً ، حتى لا تبقى قضايا لم يشهدوها ؛ وهذا يقتضي عملية مسح وتصنيف واختزال لأحداث البشر في الزمان والمكان ، ليكون أداء الشهادة على وجهها الصحيح ، وهذه ليست وظيفة فردية وإنما هي وظيفة جماعية .

والتكليف بهذه الشهادة يمثل هذه المهمة ، ففيها ابتلاء يحمل على الإشفاق ، وإثارة تحمل على الاستنفار التام لكامل الطاقة ، لأنها

وظيفة تثبت بها جدارة الإنسان لأن تسجد له الملائكة وينقض توقعاتها بإقامة العدل وحقن الدماء .

٩ ـ الأمانة والقوة :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص ٢٦/٢٨] ، ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل ٣٩/٢٧] .

والقوة والأمانة : تقابلان الصواب والإخلاص . والقوة تعني القوة المادية ، وقد تعني قوة الفهم ، وقد تعنيهما معاً . فالمتبادر من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص ٢٦/٢٨] ، القوة المادية ، وقد يكون نوع العمل يحتاج إلى هنا . كما أن المتبادر من قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل ٣٩/٢٧] ، قوة العمل بدليل ما جاء بعده : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ .. ﴾ [النمل ٤٠/٢٧] . وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال ٦٠/٨] ، فإنه يشمل المعنيين معاً : القوة المادية والقوة الفهمية .

والقدرة الجسدية مع أهميتها تتراجع لتأخذ المقام الثاني ، لأن القدرة العلمية الاختصاصية تتقدم على القوة الجسدية دون أن تلغيها . وفي هذا أيضاً يقول الله تعالى : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾

[البقرة ٢٤٧/٢] ، حيث جعل بسطة العلم مقابل بسطة الجسم ومقدماً عليه ، وتبرز أهمية العلم على مرّ الزمن ، والقوة المادية تعود تابعة لقوة العلم .

ومن هذا الباب أيضاً قوله تعالى : ﴿ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾ [ص ٤٥/٣٨] . فـ (الأيدي) تعني : القدرة المادية ، و (الأبصار) تعني : العلم والفهم .

ويمكن أن يُلاحظ أن القدرة والإرادة ـ مع أنهما تمشيان متوازيتين ـ يمكن رؤيتهما في مكان ما متقاطعتين ، لأن الإخلاص يتولد في جانب من الجوانب من القدرة الفهمية ؛ كما أن القدرة الفهمية يمكن أن ينظر إليها مرة كنتيجة ومرة أخرى كسبب ، فالإخلاص يساعد على تحصيل القدرات ، والقدرات تساعد على تحصيل الإخلاص ، ولا جدوى من بحث أيهما أولاً ، إذ هما كالزوجين لا بد منهما لتحصيل العمل الناجح في الدنيا والمتقبل في الآخرة .

١٠ ـ الحفيظ العليم :

قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف ٥٥/١٢] .

وبما أنه عرض نفسه للقيام بخدمة ، فقد قرن هذا العرض ـ وهو

أن يجعل على خزائن الأرض ـ بمؤهلات من يناط به أمر الخدمة ، وهما الحفظ والعلم . فالحفظ فيه جانب الأمانة والإخلاص ، والعلم فيه جانب الصواب والكفاءة والاقتدار ؛ وقد كان عليه السلام كذلك عند التطبيق العملي .

١١ ـ القاعدة والقمة :

يمكن أن نرى موضوع الإخلاص (الإرادة) والصواب (القدرة) بحسب الموضع أو المكان في (القاعدة والقمة) بالنسبة للمجتمعات ، فالقاعدة هي الجمهور وعامة الأمة والسواد الأعظم . والقمة هي النخبة والقيادة الفكرية في الأمة وصاحبة الوعي لتوقعات الأحداث وسير الأمم ، وقيادة القاعدة على جادة الصواب عند حلول الأزمات الاجتماعية وحدوث الفتن والظلمات .

فالقاعدة : هي موطن الإخلاص والطاقات المتفجرة التي تأتي بالأعمال المدهشة حين تستخدم الاستخدام الصحيح وتقاد القيادة السليمة .

وأما القمة : فهي موطن الفهم والكفاءة في استخدام الطاقات في أجدى الوجوه ، فهي بمنزلة القوة الفكرية في الجسد ، والقاعدة تمثل سائر القوى والجوارح . وهنا يحدث لَبْسٌ في العالم الإسلامي في فهم

معنى القمة[1] ، حين يفهمون القمة بمعنى القيادة السياسية ، ولا يخطر لهم أن القمة هي في القيادة الفكرية التي توجه الأمة وترشدها وتمدها بالبوصلة في متاهات الحياة ، وهؤلاء غالباً لا يكونون في موضع القيادة المتبادرة إلى الذهن في الظروف الراهنة .

ومن المشاكل هنا أن تطلعات الشباب لا تتوجه إلى أن يحققوا مثل هذه الوظيفة ، بل بنوع من الآلية التي لا يُشعر بها ينحرف سعيهم من الجانب الفكري إلى الجانب السياسي .

ومن طريف ما يذكر مالك بن نبي ـ رحمه الله ـ في هذا الموضوع ـ ويثير الغبطة من نفاذه الدقيق إلى مكامن المشكلة ـ بحث (الطفل والأفكار) حيث قال : « إن المجتمع الذي يدور فيه عالم الأفكار حول الأشياء ، تتخذ الميول الفردية الاتجاه نفسه . ولقد حدث أن سألت

---

(١) اللبس بين المكانة والكفاءة : فهذه غير تلك ، وبعبارة ثانية اللبس بين النتيجة والسبب ، فإذا نظرنا إلى النتيجة ولم نَرَ أسبابها الحقيقية وفرضنا لها أسباباً وهمية يصير بذلك بُعدنا عن النتيجة مزدوجاً . وفي صورة ثالثة : كالأمي الذي رأى قدرة القراءة في المنظار فسعى لشراء النظارة ليحصل قدرة القراءة . فهكذا يحدث الخلط بين تحصيل المنصب وتحصيل الجدارة ، فيتوجه الجهد إلى تحصيل المنصب دون السعي الدائب لتحصيل الجدارة ؛ ومما يُسهل الوقوع في هذه المزلقة رؤية الخلط بينهما كثيراً في الواقع ، فكأن الخطأ يبرز خطأ مثله ، أو يبرر سعياً لإزالة الخطأ بخطأ أكبر .

طفلاً في إحدى البلاد العربية عما يعطونه في المدرسة ـ ولم يكن استخدامي للفعل (يعطي) مقصوداً ـ إلا أن الإجابة التلقائية كانت : إنهم يعطوننا بسكويت ! ومن الواضح أن معنى الإعطاء في نظر هذا الطفل ، لا يتم إلا في عالم الأشياء حتى لو استعمل اللفظ في المجال المدرسي عند صياغة السؤال »[1] .

فهذا ما أردناه حين قلنا : إن الناشئ المسلم يحرّف القيادة الفكرية إلى القيادة السياسية . وهناك جانب آخر من فساد العلاقة بين الإخلاص والصواب بين القاعدة والقمة ، فحين تكف القمة عن التفكير السليم ، وتجعل الأفكار تدور حول الأشياء (البسكويت في مستوى والسياسة في مستوى آخر) بدل أن تخضع هذه الأمور للأفكار ، فإن القاعدة أيضاً تكف عن العمل السليم ، فلا تعود تقوم بواجبها في المستوى الشعبي ، سواء فيمن يتلقى التثقيف الإسلامي ، أو فيمن يُلقّن الثقافة الإسلامية في الوعي والضمير الشعبيين ؛ فمن ها هنا تحدث الخسائر التي لا يمكن أن تعوض والتي يتابع مالك بن نبي شرحه لها بقوله : « وهكذا يدفع الإنسان الجزية عن اندماجه الاجتماعي إلى

(١) مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ترجمة د . بسام بركة ، دار الفكر دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ص ٣٤

الطبيعة وإلى المجتمع في الوقت نفسه . وكلما كان المجتمع متخلفاً في نمائه ارتفعت قيمة الجزية »[1] .

١٢ ـ اللاشعور والشعور :

يمكن أن يقال بوجه من الوجوه إن الإخلاص والصواب يقابلان (اللاشعور والشعور) . فاللاشعور : هو الميل أو النفور الذي يجده الإنسان في نفسه دون معرفة سببه . والشعور : هو الوعي .

وفهم اللاشعور أصعب من فهم الشعور ، وخاصة بسبب ما يقوم به في النفس ، بما يتصل بالمسؤولية وعدمها ؛ فإثباته يجعل أمام الإنسان إشكالاً في هذا الجانب إلى ما يضاف إليه من غموض إدراكه . وقد وصف ابن تيمية اللاشعور وصفاً دقيقاً كظاهرة من الظواهر فقال : « ... إن الإنسان قد يقوم بنفسه من العلوم والإرادات وغيرها من الصفات مالا يعلم أنه قائم بنفسه ، فإن قيام الصفة بالنفس غير شعور صاحبها بأنها قامت به ، فوجود الشيء في الإنسان غير شعور الإنسان به »[2] .

---

(١) مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، دار الفكر دمشق ، ط١ ، ١٩٨٨ ، ص ٣٤

(٢) ابن تيمية ، الفتاوى : ٣٤٣/١٦

وهذا وصف دقيق لظاهرة اللاشعور . ويطيل البحث في إثبات الظاهرة ويقارن حاسة الشعور بحاسة البصر ، ولكنه ـ رحمه الله ـ لا يبحث الموضوع ـ فيما أعلم ـ من ناحية المسؤولية ، ولا كيف يتكون عند الإنسان ، كما لا يبحثه من الجانب الاجتماعي وإنما يتناوله كظاهرة تحدث للإنسان .

وينبغي أن نعلم أن اللاشعور هو في أصله شعور تحوّل إلى لاشعور ، إما بالنسيان أو بالإيحاء للفرد دون شعور منه ، وقد يكون في مرحلة الطفولة أكثر ما يكون ، كما يمكن أن يحدث بالتنويم المغناطيسي . وبهذا نعلم أنه لا يوجد لاشعور إلا وكان يوماً ما شعوراً ولو عند شخص آخر ، حيث أنه لا يشترط أن يكونا في رجل واحد .

ويمكن أن نلاحظ هذه الحالة من قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا : إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة ٢/١١-١٢] .

وإن وظيفة التغيير لما بالأنفس تشمل الشعور واللاشعور أيضاً ، فالفرد قد يتمكن وقد لا يتمكن من كشف لاشعوره كما لاحظ ذلك ابن تيمية ، وقد لا يتمكن من تغييره لأنه يحتاج إلى شروط اجتماعية .

ولكن المجتمع يمكن أن يقوم بمثل هذه الوظيفة إذا تعلَّم كيف يقوم بها ، وقد لا يتعلم ذلك فلا يتدخل ، فيحدث التغيير دون إشراف واعٍ ، إما إلى خير وإما إلى شر لأنه خرج من سلطان الوعي . وهذا ما يمكن أن يفسر به سبب انهيار الحضارات حيث يكف المجتمع عن السيطرة على تغيير ما بالأعماق . وقد لاحظ هذه النقطة ابن خلدون دون أن يدرك إمكانية التدخل من المجتمع للسيطرة عليه . ولا يشترط أن يكون عند كل فرد الوعي لهذا الموضوع ، ولكن لا بد من الكتلة الحرجة ـ الفرض الكفائي ـ من الأفراد للإشراف على سلامة المجتمع من هذا الجانب .

ويمكن أن يفهم مصطلحا الانفعال والفعل على ضوء اللاشعور والشعور ؛ لأن الانفعال نتيجة اللاشعور ، والفعل نتيجة الشعور . ولا يفهم مما تقدم أن الإخلاص يكون في اللاشعور فقط بل يمر في الشعور ، ولكن غالباً ما يكون في اللاشعور ، فإن معظم الأمة تخلص لمثلها الأعلى دون وعي دقيق ، وهذا ليس عيباً ـ على الإطلاق ـ والعيب ألا يوجد ما يسد في هذا الموضوع .

١٣ ـ العاطفة والفكر :

وكذلك يمكن أن نُدخل في مصطلح الإرادة (الإخلاص)

والقدرة (الصواب) ، مصطلح (العاطفة والفكر) . فما يقال عنه عاطفة إنما تكوّن من ميول كنتيجة لعوامل مختلفة ـ كما بحثنا في اللاشعور ـ أما الفكر فيقصد به الشعور والوعي عادة . وما يكون فكراً عند بعض الناس قد يكون عاطفة عند آخرين ، ـ وليس في هذا ما يعاب ـ ولكن العواطف قد تكون سلبية أو إيجابية ، وحتى الإيجابية منها بحاجة إلى وعي لقيادتها وتوجيهها ، حتى لا تتحول إلى نتائج سلبية أثناء الصراع الفكري .

والفكر مصدر الفعل ، والته العقل ، وموضوعه ما في الكون . والفكر : عملية نظر في الكون واستنباط السُّنن التي تسير الأمور عليها ، ويقول محمد إقبال ـ رحمه الله ـ في هذا :

« أول ما يستهدفه القرآن من هذه الملاحظة التأملية للطبيعة هو أنها تبعث في نفس الإنسان الشعور بمن تُعَدُّ هذه الطبيعة آية عليه »[1] .

أي مما يُعنى به القرآن أن يوجه الفكر إلى ما الكون دليل عليه ، فهذا الكون رمز وآية . وهكذا يعرض القرآن الموضوع ؛ والقرآن الكريم معجزة رسول الله ﷺ :

---

(١) محمد إقبال ، تجديد التفكير الديني ، القاهرة ، ١٩٥٥ م ، ص ٢١

« مـا من نبي إلا أعطي من الآيـات مـا مثلـه أومن أو آمن عليـه البشر ، وإنما الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أني أكثرهم تابعاً يوم القيامة »[١] .

كان الأنبيـاء يـأتون بمعجزات ، إلا أن هـذه المعجزات ذهبت ولم تبق ، ولكن معجزة محمد ﷺ قائمة تتجـدد يمكن أن يراهـا كل إنســان على مدى الدهر ؛ وكان المشركون يطالبون بآيـات كما أرسل الأولون ، فأتى الجواب من السماء أن آيات الكتاب تكفي :

﴿ وَقَالُوا : لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيهِ آيَـاتٌ مِنْ رَبِّـهِ ، قُلْ : إِنَّمَـا الآيَـاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَـذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّـا أَنْزَلْنَـا عَلَيـكَ الكِتَـابَ يُتْلَى عَلَيهِمْ ، إِنَّ فِي ذَلِـــكَ لَرَحْمَـــةً وَذِكْرَى لِقَـوْمٍ يُـؤْمِنُـونَ ﴾ [العنكبوت ٢٩/٥٠-٥١] .

بل نرى هذا الأسلوب متَّبعاً فيما يقصُّ الله علينـا من قصص عن الماضين وما يقابل ذلك في عهد محمد ﷺ :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَـا ، قَـالَ : أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَـامٍ ثُمَّ بَعَثَـهُ ، قَـالَ :

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام .

كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ : لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ : بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ ، فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ : أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة ٢/٢٥٩] .

هذه القصة حول تساؤلات الإنسان عن كيفية إحياء الله للأموات ، كان الجواب عليها أن الله أماته مئة عام ثم أحياه ، وجعل له آية ليعلم أنه قد مات ، وذلك من رؤية عظام حماره الذي نشرت عظامه أمامه ، فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير ، فأراه الله الآية في نفسه وفي دابته . ونجد بعد هذه القصة مباشرة قصة إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ؟ قَالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟! قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . قَالَ : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة ٢/٢٦٠] .

كان الجواب لتساؤل إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن أراه الآية في الطير ولم يُرِهِ إياها في نفسه . وحدث مثل هذا التساؤل في زمن

محمد ﷺ أيضاً ، ولكن الجواب لم يكن كالجواب للذي مرَّ على القرية ، ولا كما فُعل مع إبراهيم ـ عليه السلام ـ وإنما هو أنموذج آخر ، أُدخل إلى جانب الاعتبار بالأمثال . ولقد اكتفى إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يرى الطير ، ولم يحتج أن تقام عليه التجربة نفسها . ولكن الجواب الذي حدث في زمن محمد ﷺ الوارد في سورة (يس) :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ : مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس ٣٦/٧٧ـ٧٩] .

إن الرجل الذي جاء إلى محمد ﷺ وَفَتَّ العظم طالباً بيان كيف يحييها الله ، لم يواجهه الله بإفزاعه في أن يعيد ما بيده من العظام حية تسعى ، ولكن بكل إيجاز قال عنه : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ [يس ٣٦/٧٨] . فأعيد إلى التذكر ليرى بالفكر والتأمل ذلك في نفسه ، وفي نشأته الأولى ؛ وفي هذا المثال ما في القصص السابقة من البرهان ، ولكن بحاجة إلى فكر أدق ، وعليه أن يراه كل واحد ، وهذا يدل أيضاً على تطوير أساليب البرهان على مرّ الزمن وإن كان الموضوع واحداً .

وتنبَّه إلى هذا توماس كارليل فقال في حديثة عن محمد ﷺ في كتابه (الأبطال) : « إنه كان ﷺ يطلب القرشيون منه براهين وآيات على صدق ما جاء به ، فكان يقول لهم : ألستم أنتم معجزات وُجدتم ولم تكونوا .. » .

وفهم ابن عباس ، رضي الله عنه ، الموضوع على هذه الصورة فقال : « أتت قريش اليهود فقالوا : بمَ جاءكم موسى من الآيات ؟ قالوا : عصاه ويده بيضاء للناظرين ، وأتوا النصارى ، فقالوا : كيف كان عيسى ؟ قالوا : كان يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ، فأتوا النبي ﷺ ، فقالوا : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً ، فدعا ربه فنزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران ٣/١٩٠] ، فليتفكروا فيها »[1] .

ولا يقلل من قيمة الفكرة ، التي يتضمنها ما رواه ابن عباس ، أي إشكال يرد عليها ، لأن آية العنكبوت واضحة :

﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ . قُلْ : إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ

---

(١) ذكره السيوطي في أسباب النزول .

اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيهِمْ ﴾ [العنكبوت ٢٩/٥٠ـ٥١] .

١٤ ـ الأخلاق والعلم :

يستخدم مصطلح (الأخلاق والعلم) مقابل مصطلح الإخلاص (الإرادة) والصواب (القدرة) . وتفهم الأخلاق عادة كهبة إلهية لا دخل للوعي والجهد فيها ، بينما ينبغي أن تُفهم كقيمة خلقيـة ، وكجهد واع يقوم به الإنسان ليحقق الحياة الأخلاقية ، وقد شرحنا هذا الموضوع في بحث الإرادة كقيمة وكصناعة .

ونرى الحاجة كبيرة إلى فهم الأخلاق كمواد أولية ، وكعملية تركيب وفق السُّنن حتى يخرج مفهوم الأخلاق من الغموض الذي يحيط به .

واستعمال الأخلاق مقابلاً للعلم ليس دقيقاً وإن كان شائعاً ، بل الأخلاق تخضع للعلم وسلطانه كالإرادة .

وأخطر من ذلك كله فهم الناس للعلم بأنه لا دخل له في الأخلاق ، بينما يخضع تكوين الأخلاق في الحقيقة للعلم ، بل هو الذي يبرز القيم الأخلاقية ويقيم عليها أدلته الآفاقية والنفسية ، وفي هذا

المعنى قال الأستاذ مالك رحمه الله ، في كتابه (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي) :

« والعلم بحرصه على الحقيقة يصبح أخلاقاً لا يطيق الصبر على الخطأ حتى يجري التصحيح المطلوب عليه » .

والعلم في المصطلح الغربي الآن وعند الذين يستخدمون مصطلحاته يجعلونه حيادياً أو يسمونه ـ كما يقول توينبي ـ: محايداً أخلاقياً ، وهذا غير سليم ، بل العلم هو الذي سيشهد على ضرورة الأخلاق ، ويقيم الدليل على ذلك . ولا يمكن أن نعلم ضرورة الأخلاق إلا إذا صارت علماً ، وكيف يمكن أن تكون ضرورية وهي ليست بعلم ؟! ولكن مأتى الخطأ أن نظن العلم القليل علماً كاملاً ، أو نظن ما جهلناه أو جهله الآخرون علماً ؛ فلا يجوز إدانة العلم بهذه الصورة التي يعرض بها .

ولقد فاتحت الأستاذ مالكاً ـ رحمه الله أثناء زيارته الأخيرة لدمشق ـ بهذا الموضوع وذكرت له العبارة السابقة الذكر من كتابه ، وأنه لم يلتزم هذا الأسلوب في كتاباته ، بل كثيراً ما يعتبر العلم جزءاً رابعاً من الثقافة ، كما ذكرت المقام الذي يضع القرآن فيه العلم ... فأقرّ بذلك وأن القرآن يضع العلم في مقام كريم .

والعلم هو الميزان الذي يُعرف به الحق والباطل ، والعلم شهادة العواقب التي بها نعرف الخطأ من الصواب ، وإدانة العلم ليست هي طريق الخروج من المشاكل ، وإنما أن نعرف أن العلم الذي يعالج المشكلات غير كاف ، وأنه أقرب أن يسمى علماً بجانب وجهلاً بجانب آخر ، أو علماً ناقصاً أو قليلاً كما وصفه القرآن : ﴿ وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء ٨٥/١٧] ، أو كما قيل :

يا أيُّها المدَّعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

والْحَكَمُ عند النزاع هو العلم وليس غيره : ﴿ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ [الأنعام ١٤٨/٦] .

١٥ ـ القلب والعقل :

ومن مصطلحات الإخلاص (الإرادة) والصواب (القدرة) : (القلب والعقل) . وغالباً ما يستعمل القلب ـ في الكتابات الحديثة ـ على أنه محل العواطف والإخلاص والحماس ، كما يستعمل العقل للوعي والفهم ، وهذا الاستعمال أكثر ما يستخدمه محمد إقبال .

أما القرآن فيستخدم القلب على أنه الشيء الذي يقوم بوظيفة الفقه والعقل والاطمئنان في الإنسان ، وفيه قوله تعالى :

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف ١٧٩/٧] ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج ٤٦/٢٢] ، ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ ﴾ [الرعد ٢٨/١٣] . ولم يَرد العقل في القرآن اسماً ولا مصدراً وإنما ورد فعلاً أي وظيفة وعملاً يقوم به الإنسان أو لا يقوم ، اختص الله به الإنسان .

إذن فالعقل يطلق على الآلة ، والعقل يطلق على الوظيفة ، وقال ابن تيمية في هذا : « فالفكر للقلب ، كالإصغاء للأذن »[١] .

وسئل أيضاً عن مسكن العقل فقال في جوابه : « فالعقل قائم بنفس الإنسان التي تعقل ، وأما من البدن فهو متعلق بقلبه كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج ٤٦/٢٢] . لكن لفظ القلب قد يراد به المضغة الصنوبرية ، وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقاً ، فإن قلب الشيء باطنه كقلب الحنطة ... ومنه سُمِّيَ القليب قليباً لأنه أخرج قلبه وهو باطنه ، وعلى هذا فإذا أريد بالقلب هذا فالعقل متعلق بدماغه أيضاً ، لهذا قيل : إن العقل في الدماغ كما يقول كثير من الأطباء . ونقل ذلك عن الإمام أحمد ... »[٢] .

---

(١) ابن تيمية ، الفتاوى : ٣٠٨/٩

(٢) ابن تيمية ، الفتاوى : ٣٠٤/٩

مصطلحات أخرى :

ويمكن أن يفهم معنى الإخلاص (الإرادة) والصواب (القدرة) من كلمات أخرى مثل كلمتي (نفس وزمن) ، ويستخدم هذا المصطلح كثيراً مالك بن نبي في كتبه فيستخدم كلمة نفس للجانب الأخلاقي اللاشعوري الانفعالي ، بينما يستخدم كلمة زمن وزمنية للجانب العلمي السُّنني والوعي .

كما يستخدم أحياناً مكانَ زمنيٌّ ، كلمة (اجتماعي) ، فكلمة الزمن والمجتمع يستخدمها مالك بمعنى الصواب والفهم للقوانين والسُّنن ونتائج الأعمال . ويستخدم كلمة (الضمير) مكان النفس مقابلاً للعلم ، فحين يقول مالك : « إن الضمير متخلف عن العلم » ، فهو يقصد به أن الإخلاص ـ الأخلاق ـ متخلف عن العلم كما هو الحال في العالم الغربي . ومثلها قوله : « إن القرآن كان علماً فوق الضمير الجاهلي » .

وكذلك كلمتا (همَّام وحارث) اللتان وردتا في الحديث الصحيح : « أصدق الأسماء حارث وهمام » ، وكذلك قوله ﷺ :

« تَسَمُّوا بأسماء الأنبياء . أحب الأسماء إلى الله : عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها حارث وهمَّام ، وأقبحها حرب وَمُرَّة »[1] .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٤٥/٤

فكل إنسان فعَّال (حارث) ومريد (همَّام) .

وبعد فهذه المصطلحات تساعد على جمع معنى الإخلاص (الإرادة) والصواب (القدرة) ، لأن نجاح العمل الإنساني مرتبط بهما . وليس المهم الإكثار من المصطلحات ، وإنما المهم المحتوى أولاً ، ثم فهم المراد من المصطلحات حين تستخدم ، وأن لا نظن حين نرى حشداً من المصطلحات أنه يقابلها حشد من الحقائق المختلفة ، فهذا يشتت الجهد ، بينما تحديد الفهم لقانون حركة الإنسان يقلص كثيراً ما ينشأ من تشعب المصطلحات . وجمع المصطلحات يسهل فهم ما يقصده الكتاب ، وتحديد ما يقصده الباحثون .

ومن مصطلحات الإخلاص بوجه من الوجوه :

١ ـ الهدف :

باعتباره الغاية أو المثل الأعلى الذي يبعث الإرادة .

٢ ـ النيّة :

وترتبط بالمقصد والمراد .

٣ ـ الذوق :

الذوق : هذه الكلمة دلالتها على الإخلاص أخفى ، فالإخلاص يمكن أن يكون في اللاشعور . والذوق شيء يحس به الإنسان

ولا يعرف مصدره ، وكما يقولون : الذوق شيء ليس في الكتب ، فمن هذا الجانب دلَّ الذوق على معنى الإرادة .

٤ ـ التقوى :

يمكن القول بدلالتها على جانب الإرادة لأن التقوى التزام الأمر والنهي ، ودلالتها على ابتغاء وجه الله أكثر من دلالتها على معرفة الأحكام الشرعية في مفهوم الناس .

٥ ـ الثقافة :

إن الاستخدام الشائع لهذه الكلمة يدل على جانب الصواب لأنهم يطلقونها على الفهم والدراسة والاطّلاع ، إلا أن هذا الفهم الشائع هو الفهم السطحي . فالثقافة كلمة مستحدثة ودلالتها في المفهوم الغربي ـ على تطورها خلال العصور ـ تدل على مبعث سلوك الإنسان ودوافع مواقفه ، أكثر من أن تدل على فهمه لهذه الدوافع .

٦ ـ الوجدان :

كلمة شبيهة بالأخلاق والضمير ، فمن هذا الجانب صارت دلالته على الإخلاص أقرب .

٧ ـ الروح :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، وَمَا أُوتِيتُمْ

مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء ١٧/٨٥] . كان السؤال على ما يظهر عن حقيقة الروح التي يكون بها الإنسان حيّاً ، وكون القرآن لم يوضّح هذه الحقيقة ليس معناه أنه قابل لبذل جهد في فهم أكثر لها وخاصة حين علّق الأمر على قلّة العلم ، والعلم قابل للزيادة .

وتأتي الروح بمعنى القرآن ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوْحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى ٤٢/٥٢] . كما تطلق على جبريل - عليه السلام - ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ [الشعراء ٢٦/١٩٣] .

وأما الاستخدام المتعارف عليه اليوم من قولهم الجانب الروحي : وهو الخشوع والزهد والإخبات ، فلم يستخدمه السلف ، بهذا المعنى ، وإنما هو استخدام غربي انتشر بين المسلمين .

واستخدام مالك بن نبي للروح كحالة نفسية مقابل العقل والغريزة ، اتّبع فيه المصطلح الغربي .

٨ - الفن :

كلمة لها استخدامان حديثان : الأول يستخدم للجوانب الأدبية وأساليبها كفن الشعر والمقالة أو الأداء الرمزي في استخدام الصورة المرئية . أو ما يؤديه صوت الآلة والإنسان أو الحركة .. وهذا ما يسميه المحدثون بالفن . وهذا الجانب متصل بالذوق والإرادة أكثر . وأما

الاستخدام الثاني : بمعنى الصواب ، فهذا ما يُفهم من قولهم : بأن البلاد النامية بحاجة إلى كفاءات فنية أو بحاجة إلى فنيين للتصنيع ، فهذا الاستخدام يدل على الصواب أي على وجود الخبراء في الزراعة والصناعة والتربية ..

الفصل الثاني

العمل

١ ـ منطلقات العمل :

يبصر الإنسان بخلفيته الثقافية ، وبمواريثه الاجتماعية ، ولئن كان للإنسان عينان يبصر بها ، فإن له بصيرة يفسر بها ما تبصره عيناه ، وهذه البصيرة يصنعها المجتمع ، ويأخذها الإنسان منه .

يروى أن صوفياً خرج إلى الصحراء متعبداً ، فرأى في طريقه طائراً أعمى كسير الجناح ، فوقف يتأمل الطائر ، ويفكر كيف يجد رزقه في هذا المكان المنقطع ، فلم يمض وقت طويل حتى جاء طائر آخر ، فأطعم الطائر كسير الجناح ، كما يطعم الحمام فراخه ، فعجب الصوفي وقال في نفسه : فيمَ أسعى وأتعب ؟ ثم أوى الرجل إلى غار .. وسمع به أحد المتعبدين ، فذهب إليه وقال له : ما حملك على القعود في هذا الغار ؟ فقصَّ عليه قصته ... فقال له : ويلك !! لِمَ أحبَبْتَ أن تشبه الطائر الأعمى ؟! هلاّ فعلت ما فعل الطائر السليم الذي أتى

بـالطعـام ، فتسعى لكسب الرزق لنفســك ولغيرك ؟.. فرأى الصوفي صدق هذه النصيحـة ، وترك غـاره ، وغـدا يسعى كما تسعى الطير التي تغدو خماصاً وتعود بطاناً .

إن المسلم التقليدي لا يرى في مثل هذا المشهد إلا الطائر الأعمى ، ويغيب عنـه الجـانب الآخر . ومـع أن الصـوفي في المثـال السـابـق كان شاهد عيان للحادثـة ، وكان الثـاني سـامعـاً ، فقـد كان اعتبـار الأخير بالحادثة إيجابياً : إذ رأى وجه العبرة الصحيح . وهذه الرؤيـة هي التي يلح القرآن عليها حين يأمرنا بالاعتبـار بـأحوال من خلوا من قبل ... ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة ٢/٢٤٥ـ٢٤٨] . وقـد فسَّر اللغويون الرؤيـة بمعنى العلم ، لأن السـامع مثل المعـاين في الرؤيـة والاعتبـار . والشاهد في هذه الحادثـة أن المسلم الـذي يسمع القصـة قبل أن يصل إلى نصيحة الرجل الثـاني ، نصـادف في نفســه إعجـابـاً بـالعبرة التي فهمهـا الصوفي الذي قعد في الغار .

وقد يدخل شخصـان منزلاً ، فيرى كل منهما جـانبـاً لا يشـاهـده الآخر ، فقد يتأمل أحـدهـا الـدهـان المزين للجدران ، بينـا يتـأمل الآخر وسيلة التدفئة ..

وإذا دخل أشخـاص مكتبـة ، فكل منهم يلتفت إلى الكتب التي تبحث في أمور تشغل باله ، فيرى أحدهم ما لا يراه الآخر .

كذلك الناس الذين يمشون في الشوارع يلاحظ أحدهم المساجد ، وآخر الملاهي ، وثـالث الأمـاكن التي تبـاع فيهـا التحف القـديمـة ... وهكذا كلٌّ يلاحظ بحسب اهتمامـه ويرى مـا لا يراه الآخر .. إن عيونهم التي في وجوههم تلتقط مثل آلات التصوير كل المشاهـد ، ولكن الـذي يحضر الأفلام في الداخل ينتقي مشـاهـد معينـة فقـط ، وهـذا يعني أن وراء عيوننا عيونـاً أخرى تقوم بعمليـة انتقـاء . وهـذه العيون الخلفيـة هي التي يتحدث عنها الله تعالى حين يقول :

﴿ .. فَإِنَّهَـا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ .. ﴾ [الحج ٢٢/٤٦] .

﴿ وَكَـأَيِّنِ مِنْ آيَـةٍ فِي السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيهَـا ، وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف ١٢/١٠٥] .

إن التربية هي التي تصنع هذه العيون الخلفية .

وإن القرآن حين يتحـدث عن العيـون التي لا تبصر من مشـاهـد الحيـاة إلا بعض جوانبهـا ، وتعمى عن الجوانب الأخرى ، فلا ترى إلاَّ

ماتريد أن ترى ، أو لاترى إلا ماأراد لها اختصاصها أن تراه ، فإنه يعظنا وينبهنا ألا نقع بهذا الخطأ الكبير .

فالخلفية الثقافية هي التي جعلت أحد الرجلين لا يرى من المشهد إلا الجانب الأعمى السلبي ، وجعلت الآخر يرى الجانب المبصر الإيجابي . إن مثل هذا التفاوت في الاعتبار يحدث كثيراً في الأفراد ، ويحدث في الأمم ؛ إلا أن مايحدث في الأمم أهم وأعم . وكما أن الأفراد لا يلاحظون من المشاهد إلا بعض جوانب اختصاصاتهم واهتماماتهم ، كذلك الأمم تختص ببعض الجوانب . والذي يعطي المجتمع اتجاهه ليس وجود أفراد قلائل يفهمون الموضوع ، وإنما توفر نسبة مناسبة تعطي مستوى معيناً للاتجاه .

وهذا يفسّر لنا استغراب الصحابة الذي ورد في الحديث الشريف : « أنهلك وفينا الصالحون ؟! قال : نعم ، إذا كثر الخبث »[1] .

وقبل الشروع بتعريف العمل وبيان كيفية حدوثه ، لا بد من شرح بعض المفاهيم الأساسية :

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن .

أ ـ التسخير :

من المقرر في كتاب الله ، والمشاهد في الواقع أن الكون مسخر للإنسان ، وأن هذا التمكن من التسخير يزداد بازدياد العلم :

﴿ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرْضَ ، وَأنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنْهَارَ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ ، وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ماسَألْتُمُوهُ ، وَإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إنَّ الإنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .. ﴾ [إبراهيم ١٤/٣٢-٣٤] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ، إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية ٤٥/١٣] .

والتسخير يعني : الخدمة مجاناً[١] ، ولكن هل يخدم الكون الإنسان ـ في الواقع ـ مجاناً أم لا ؟

إن الكون يخدم الإنسان مجاناً إذا فهم الإنسان كيف يوجّه الأوامر إلى الكون ، وتزداد قدرة الإنسان على التسخير كلما زاد فهم الإنسان لكيفية توجيه الأوامر إلى الكون ، وتوجيه الأوامر هو معرفة

---

(١) جاء في مختار الصحاح ، سخّره تسخيراً : كلّفه عملاً بلا أجرة .

السُّنن ، ودليل هذا أن إنتاج الأرض والحيوان والنبات والحديد .. كل هذا يزداد إذا فهم الإنسان سننه . أي تزداد طاعة الكون له ، وكأن هذا الكون خلقه الله خادماً مطيعاً للإنسان ، ولكن شرط الله على الكون ألا يطيع الإنسان إلا إذا دعاه عن طريق معين ، فإذا دعاه من غير هذه الطريق فلا يستجيب الكون ويظل مُعْرِضاً صامتاً أمام الإنسان . إن الذي لا يعرف كيف يحرك الكون هو إنسان جاهل للنداء الذي يستجيب الكون على نغمته .. وهذا النداء هو كشف السُّنن واستخدامها .. وكما يستعصي القفل أن يفتح بغير مفتاحه ، كذلك الكون لا يستجيب إلا بعد سماعه كلمة السر .

إن السيارة مهما كانت مستعدة للحركة ، فإنها لا تتحرك مع من لا يعرف فن قيادتها .. بل كل الآلات لا تتحرك للإنسان الذي يجهل كيف يحركها .. وهذا الكون لا يتسخر للإنسان إلا إذا عرف كيف يسخره ، فالشجر مثلاً كان ولم يزل مسخراً له ، ولكن في أول الأمر كان الإنسان يسخره بتناول ثمره دون زرعه ، وبعد أن تعلم الإنسان زرع الشجر ، زادت الأشجار وسائر النباتات من طاعتها للإنسان . وكذلك الحيوانات بعد أن كانت ثروة للصيادين ، عرف الإنسان طريقاً آخر يسخر به الحيوان ويجعله أليفاً ذا فوائد أكبر وأكثر .

فالتسخير يزداد بازدياد العلم . ولقد رأيناه ـ بوضوح ـ فيما سبق في آيات الآفاق التي تسمى (التكنولوجيا) ، وأما التسخير في آيات الأنفس فهو أقل وضوحاً ، ومن تأمل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد ١٣/١١] .

يدرك التسخير بالوضوح نفسه أيضاً .

إن اكتشاف التسخير في آيات الأنفس ، يهدي إلى إمكان تسخير سنن الأنفس ، حتى يصل الإنسان حين يذكر أخاه بسوء إلى مرحلة النفور التي يشعر بها من يأكل لحم أخيه ميتاً :

﴿ وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات ٤٩/١٢] .

إن الهدف الذي يضعه الله للإنسان في هذا التشبيه مدعم بواقع التاريخ ، فالإنسان قد بلغ درجة النفور من أكل لحم الإنسان الميت ، ولكن هذا العالم المتمدن ـ نسبياً ـ لا يزال يجد من التلذُّذ والتَّلمظ في الغيبة ـ أي في ذكر الآخرين بسوء ـ ما يجده الإنسان في أكل لحم الضأن الغض ، بل مثل ما كان يجده الإنسان البدائي في أكل لحم أخيه الإنسان أيضاً ، كما هو مسجل في التاريخ ، وإلى عهد ليس ببعيد في

بعض المناطق من العالم ... فإذا كنت اليوم تجد نفوراً من أكل لحم الإنسان ، فلا يرجع ذلك إلى ذكائك ومزاياك الخلقية ، وإنما يرجع إلى التربية ، وما عانته الإنسانية في الوصول إلى هذه المرحلة .

والآن ينبغي أن نتصور كيف تكون النقلة حتى يصير الناس يرون ذكر مساوئ الناس واغتيابهم شيئاً سيئاً ومنفّراً ، مثل ما يُرى أكل لحم الإنسان . ونفور الإنسان من أكل لحم الإنسان يظل كما هو منفّراً ومقزّزاً ، بحيث لا يقلّل سوء الإنسان وفساده من هذا النفور شيئاً ، وكذلك ينبغي أن لا يكون سوء الناس وفسادهم مسوّغاً لما يجده الناس من الارتياح في اغتياب بعضهم بعضاً . ليس قصدنا هنا أن نعطي الآخرين موعظة في الأخلاق ، وإنما الإشارة إلى قانون إمكانية رفع مستوى الإنسان ، والانتقال به من شيء سبق أن تجاوزه كثير من الناس ، إلى مجال آخر لا يكاد يستطيع أن يتجاوزه قليل من الناس ، وأن في الإمكان أن يصير هذا مثل ذاك .. كما يمكن تصور خَلْق آخر وراء ذلك .. كما قال تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل ١٦/٨] .

وهكذا يمكننا أن نقول :

إن التسخير يأتي نتيجة العلم بسنن الله في خلقه ، فالعلم والتسخير

والسنة (القانون) ، أمور مرتبطة بعضها ببعض . فالسُّنة قانون الله ، والعلم هو معرفة هذه السُّنن ، والتسخير نتيجة هذه المعرفة .

ومن هنا نعرف أهمية العلم ، فإذا فهم المسلم معناه جيداً ، فسيشهد هذا العلم بصدق الإيمان بالله واليوم الآخر وضرورتها ، كما شهد العلم بصدق قوانين الجاذبية ، حيث تمكّن الإنسان من التعامل معها ورؤية عاقبة هذا التعامل ، وكيف أن من يخرج على قوانين الجاذبية ويحاول أن يقفز من السطح أو الطائرة دون أن يراعي قوانين الجاذبية فإنه يتحطم ..

إن العلم اليوم يشهد بالقوة نفسها لعقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر ، كما يشهد التاريخ أن الذين لا يراعون قواعد الإيمان بالله واليوم الآخر يتكسرون و يتحطمون ، كما يتكسر الذين يقفزون من الطائرات ومن الأسطح ، دون مراعاة قوانين الجاذبية . كذلك المجتمع الذي لا يأمن الإنسان فيه بوائق جاره ، أو يعقّ الأبناء فيه والديهم ، أو لا يراعي الناس فيه الحقوق والواجبات التي أمر الله بها في علاقات الناس بعضهم ببعض ، فإن هذا المجتمع يتكسر بسبب خروجه على قوانين الأخلاق أو قوانين الله في البشر ، كما يتكسر الذي يخرج على قانون الطبيعة في الجاذبية والاحتراق .. وصدق الله إذ يقول :

﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ ، وَالْمَلائِكَةُ وأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ ﴾ [آل عمران ١٨/٣] . فإذا كان للجاذبية قانونها ، فإن للأخلاق قوانينها ، وللإيمان قوانينه أيضاً . وكما يعاقبُ الذين يخالفون قوانين الجاذبية ، كذلك وبالصرامة نفسها يعاقب الذين يخالفون قوانين الأخلاق والإيمان . وإذا اعترى أحداً نوع من الشك ، فالسير في الأرض والنظر إلى العواقب يزيل هذا الشك ، وإذا لم نكن ممن يسير في الأرض فلنقرأ ما وصل إليه الذين ساروا ورأوا ..

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [النمل ٦٩/٢٧] .

وكلمة السّر التي تجعل الكون مستنفراً لخدمتنا ، يبدأ الحصول عليها باستخدام السمع والبصر والفؤاد ، وإن الذين لا يستخدمون أجهزة الوعي التي منحها الله لهم ، لا يسخر لهم الكون ، بل ينظر إليهم بسخرية لاذعة ، ولو قُدّر له أن يتكلم لقال لهم : كيف أتسخر لكم وأنتم لا تزالون مثلي ؟ ولم تستخدموا مزاياكم (السمع والبصر والعقل) التي ميَّزكم الله بها عن سائر المخلوقات .

إن استخدام هذا الجهاز الثلاثي هو الذي جعل الإنسان خلقاً آخر غير بقية المخلوقات :

﴿ ثُمَّ أنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون ٢٣/١٤] .

هذه هي الأمانة التي عرضها الله ﴿ عَلَى السَّموَاتِ وَالأرْضِ وَالْجِبَالِ ، فَأبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهَا ، وَأشْفَقْنَ مِنْهَا ، وَحَمَلَهَا الإنْسَانُ ، إنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب ٣٣/٧٢] : ظلوماً إن لم يستخدمها ، وجهولاً إن لم يعرف قيمتها العجيبة . لهذا يحثُّ القرآن كثيراً على استخدام السمع والبصر والفؤاد ، وحسبك قوله تعالى :

﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالفُؤادَ ، كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤولاً ﴾ [الإسراء ١٧/٣٦] .

وكما يجب على كل فرد أن يستخدم في هذه اللحظة هذا الجهاز لنجاته في الآخرة ، فإنه يجب على البشرية وعلى الدوام أن تستنفر هذا الجهاز لنجاحها في الحياة الدنيا . وميزة هذا الجهاز أنه يكشف سنن الكون فيتسخر للإنسان . والأهم من ذلك أن يكشف سنن النفس الإنسانية ؛ ولهذا كان حديث القرآن عن سنن الكون مجملاً ، بينما حديثه عن سنن الإنسان ونفسه مفصلاً . وإن التاريخ الحقيقي لا يبدأ من تسخير الكون الخارجي ، بل من تسخير الكون الداخلي حين يرجع الإنسان إلى نفسه .

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ... أَفَلا تُبْصِرُونَ ؟!! ﴾ [الـذاريـات ٥١/٢١] ، ﴿ قُـلْ هُـوَ مِنْ عِنْــدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران ٣/١٦٥] ، ﴿ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرّعد ١٣/١١] .

ونريـد أن نحـدق في المشكلـة أكثر ، لنضع المـوضـوع تحت المجهر ونكشف سننه ، لعلنا نزيد علمنا بالمشكلة ، فإن زيادة العلم زيـادة في القدرة والإرادة .

إن هذه الكلمات التي قدمتها ، كالنبتة نحيفة لينـة ، إلا أن فيهـا شوق الحياة والسعي لإثبات الذات ، وأرجو أن تصير معالم هذه القـارة المجهولة معلومـة ، وإنني حين أسميهـا القـارة أحـطُّ من قـدرهـا كثيراً ، فهي ليست قارة بل هي أم القارات ، وليست من قارات الأرض وإنما رأس الحربـة في هـذا الكون الـذي خلقـه الله ، وهي موضع سره تعـالى الذي جعله قبلة ملائكته ، حين أمرهم بالسجود لهذا الإنسـان في ذلـك اليوم المشهود حيث قال :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴾ [البقرة ٢/٣٠] .

إلا أن الملائكة تنبأت لهذا الخليفـة بـالإفسـاد في الأرض وسفـك الدماء :

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة ٢/٣٠] .

واحتارت الجن في أمره : ﴿ وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ [الجن ٧٢/١٠] .

واستهان إبليس به ، وازدرى أمره لما رآه مخلوقاً من طين ، فامتنع عن السجود له : ﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ [الإسراء ١٧/٦١] ، ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء ١٧/٦٢] .

ولكن الله سبحانه وتعالى حكيم فبيّن الأمر بقوله : ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ ﴾ [الحجر ١٥/٤١-٤٢] .

ولكن الله جعل هذا الإنسان آية عظمته ودليل قدرته حين علَّمه ما علَّمه : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا : سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة ٢/٣١-٣٢] .

ولكن الإنسان ما يزال حتى اليوم يحقر نفسه مع ما وضعه الله فيه من القدرات ، وما يزال عند الذي توقعته الملائكة من إفساده في

الأرض وسفكه الدماء مع ما زوده الله به بما يؤهله لأداء الأمانة والقيام بأمر الخلافة ، وبلوغ الكمال الذي أراده الله له .

وإن الإنسان اليوم ما يزال يعيش أزمة الثقة بالإنسان وأزمة تحقير الإنسان مع ما أراده الله له من تثبيت الثقة بقدرته ، وذلك بما وضعه فيه وهيأه له ، وهذا النظر الذي يعرض به القرآن وضع الإنسان يوحي بالثقة بمستقبل الإنسان ، وأنه سيحقق ما عَلِمَه الله وجَهِلَته الملائكة .

ولكن البشر إلى الآن لا يثقون بالإنسان ، ولا يرون فيه إلا ما رأته الملائكة والجن ، ولن يتمكنوا من إدراك إمكانية تحقيق علم الله بالإنسان إلا بمعرفة التاريخ ورؤية أمثلة لخروج الإنسان من حالات شاذة إلى الحالة السوية ، من مثل انتقال الإنسان من أكل لحم أخيه ميتاً إلى التقزز من هذا الأمر . فمن خلال معرفة آيات الله في الآفاق والأنفس ، والتبصر في التاريخ ، وكيف بدأ خلق الإنسان والمراحل التي قطعها عبر التاريخ .. إن من يبصر هذا كله يمكن له أن يرى من خلال الغلالة الكثيفة من عثرات الإنسان ، وإحرازه بعض النجاح في اجتياز العقبات ؛ يمكن أن يستشف من المستقبل ما يجعله يتأمل قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ٢/٣٠] ، بأن الإنسان سيتغلب على توقعات الفشل ويحقق ما علمه الله فيه .

وكان محمد إقبال يعيش هذه المعاني ، فيقول ـ في قصيدته شكوى وجواب شكوى ـ داعياً ربَّه للمسلمين :

أفهمهم يـــــا ربُّ مـــــا ألهمتني   وأعـد إليهم يقظـة الإيمـان[1]

ويرفع شكواه المحزنة عن واقع المسلمين إلى ربّ العالمين ، فتصور جواب الله تعالى له :

« يا هذا إن قصتك لشجية محزنة ، فقد أُبلغت شكواك ، فـأثبت قدرة الله فيك »[2] .

كان إقبال بهذه الأمثلة يريد أن ينبه المسلم إلى القـدرات المودعـة في هذا الإنسان ـ والتي ينبغي أن يثيرها ويستخدمها ـ ففيـه قـدرات واحتمالات عجيبة ؛ إنه يخرج من بطن أمه ضعيفاً عـاجزاً ولكنـه يحمل في صبغيات جسمه ما أودعه الله فيه من إمكانات وقدرات .

إن في أعماق الإنسان هندسة مـا علمـه الله فيـه وجهلتـه الملائكـة ﴿ إنِّي أعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ٢/٣٠] .

---

(١) شكوى وجواب شكوى . فلسفة إقبال ، تأليف الأعظمي والصاوي ، طبع القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ٩٢

(٢) المرجع نفسه ، ص ٩٤

ألم تكن القراءة والكتابة قدرة كامنة في بنيان الإنسان ؟ فحين استخرجها عن طريق السمع والبصر والفؤاد ، وأصبح قارئاً وكاتباً بالفعل ، خرج إلى عهد جديد في الحياة .

أوَليست في هذا الإنسان قدرات أخرى كامنة لا تقل عن القراءة والكتابة ، إذا استخرجها صعد في مدارج الكمال ، وأثبت قدرة الخالق فيه ؟ وهذا لا يتم إلا بحسن استخدام السمع والبصر والفؤاد التي إنْ عطلها الإنسان ارتد إلى أسفل سافلين بعد أن خلقه الله في أحسن تقويم ، حين أودع فيه ماأودع من الإمكانات والمواهب .

ب ـ انظروا كيف بدأ الخلق ؟

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ، فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ؟ ﴾ [العنكبوت ٢٠/٢٩] .

لِمَ يأمرنا الله أن ننظر كيف بدأ الخلق ؟ كيف نصبت الجبال وتكونت على ظهر الأرض كالأوتاد مغروسة في باطنها شامخة على ظهرها ؟

هل يمكن أن ننظر كيف بدأ نصب الجبال ؟

وكيف خلقت الإبل برؤوسها الصغيرة ورقابها الطويلة وجهازها الهضمي وأخفافها ؟

وكيف بدأ الله خلق هذه الأجهزة، وكيف وصلت إلى ما وصلت إليه ؟

وكيف بدأت اللغات والمجتمعات ؟ وكيف بدأ تكوُّن القوانين والنُّظم والثقافات ؟

وكيف بدأت الحياة الأخلاقية عند الإنسان ؟

وكيف ... وكيف ... ؟

لِمَ يأمرنا الله بالنظر إلى كيف بدأ الخلق، من الذرة إلى المجرة ؟ ومن الإبرة إلى الصاروخ ؟ ومن عطف الأم إلى المودة بين الزوجين ؟ إلى بقية الأشياء في مستوى المجتمعات ؟

يأمرنا بذلك كله حتى نعرف كيف نسخِّر الكون، وكيف نشكر ...

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة ٩/٣٢] .

ويبيِّن الله لنا الزوجية في خلق الإنسان وفي كل المخلوقات المادية والمعنوية فيقول :

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات ٤٩/٥١] .

الخلق كله في نموه وتغييره من الأزواج ، والخالق هو الله الفرد الصمد ، لم يكن له كفواً أحد . فكل مخلوق من زوجين : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ ، وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يس ٣٦/٣٦] . فالمادة ، والنبات والحياة ، وأمور لا نعلمها ، كلها من الأزواج . ففي مستوى المادة : تتألف الذرة من السالب والموجب ، والنبات من كل زوج بهيج ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ [طه ٥٣/٢٠] .

فمن الأزواج يكون الميلاد ، والمواليد لها آباء وأمهات ، وكذلك فإن خصوبة الحياة الفكرية تنتج من المقارنة بين فكرتين حيث تتولد فكرة جديدة .. وكذلك الحياة العملية تتولد من القدرة والإرادة .

قال ابن تيمية : « قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات ٤٩/٥١] ، والزوج يراد به النظير المماثل ، والضد المخالف ، وهو الندّ ، فما من مخلوق إلا وله شريك وندّ ، والرَّبُّ سبحانه وحده هو الذي لا شريك له ، بل لا يصدر من المخلوق شيء إلا عن اثنين فصاعداً ، وأما الواحد الذي يفعل وحده فليس إلا الله ، فكما أن الوحدانية واجبة له لازمة له ، فالمشاركة واجبة للمخلوق ولازمة له »[1] .

(١) ابن تيمية ، الفتاوى : ٣٦/٢

٢ ـ كيف يتولد العمل ؟

وهنا علينا أن ننظر كيف بدأ خلق العمل ؟ ومن أي شيء يتولد ؟ وما أصله ؟ ومن أبواه ؟ وما تعريفه ؟

أ ـ تعريف العمل :

العمل : حركة بقصد ، ولا نسمي الحركة بغير قصد عملاً ، فحركة الشمس والرياح ليست عملاً ، وإنما جريان مثل جريان النهر : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾ [يس ٣٦/٣٨] . ولكن العمل القاصد وعمل المريد وعمل الإنسان ، هو الذي يسمى عملاً :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل ١٦/٩٧] ، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالقِسْطِ ﴾ [يونس ١٠/٤] .

فإذا كان تعريف العمل : حركة بقصد ، فإننا نستطيع القول :

إن العمل حركة وقصد ؛ وبتعبير آخر نقول : هو قدرة وإرادة .

إن الحركة وحدها بدون قصد تكون كحركة الجمادات ، التي هي

حركـة قـدرة ولكن لاإرادة فيهـا ، ولا يمكن تصور الإرادة الـواضحة إلا في مستوى الإنسان ، فإذا نظرنا إلى أعماله الجليلـة منهـا والصغيرة نراهـا مكونـة من القـدرة والإرادة ، ولا يتولـد العمل إلا إذا وجدتا معـاً . فـالجمـادات تتحرك بغير إرادة ، ولكن الإنسـان لا يتحرك إلا بإرادة ، ولا نتصـور منـه أن يتحرك بغير إرادة إلا إذا كان نـائمـاً يمشي .

ونحن لانستطيع أن نتصـور حركـة بغير قـدرة ، فحركـة الغصن قـدرة لأن القـدرة طـاقـة ، فحركـة الغصن من الهواء ، وحركـة الهواء طاقة ، وسقوط الورقة من الشجرة قدرة ، لأن السقوط لا يتم إلا بفعل الجاذبية ، فالجـاذبيـة طـاقـة ، ولكن لا نتصور في حركـة الغصن أو في سقـوط الـورقـة إرادة ، لأن الغصن لم يرد الحركـة ، والـورقـة لم ترد السقوط . ولكن إذا رأينا إنساناً يمشي ، فإننا نعرف أنه يستخدم طاقة في مشيه ، إلا أننـا لانستطيع أن نتصوره يمشي من غير قصـد ومن غير إرادة ، فهـو يمشي إلى شيء يريـد أن يصـل إليـه ، ولـو من أجـل أن يسري عن نفسـه ويقطع الملل ، أو يحرك أعضـاءه ، فـإن لـه في المشي قصداً . ولكن لا يمكن أن نتصور المشي بالقصد وحـده ، فـإنـه مهما كان يريـد المشي ، لا يمكن أن يحـدث إن لم يكن قـادراً عليـه ، لأن الطفل الصغير لا يستطيع أن يمشي مهما أحبَّ المشي ، وكذلك المريض العـاجز

لا يقدر مهما اشتاقت نفسه إلى السير في الأرض ، فلا بد لحركة العاقل من أن تتوافر فيها القدرة والإرادة معاً .

ب ـ أركان العمل :

نظرنا إلى الموضوع من ناحية البدء ، وهو أن العمل يتولد من القدرة والإرادة ، ولكن هل يوجد العمل ضرورة إذا وجدت القدرة والإرادة ؟

إن البحث في هذا الموضوع يوصل إلى أن العمل لابد أن يوجد ضرورة إن وجدت القدرة والإرادة[1] ، ويكون على تناسب يوافق نسبتهما ارتفاعاً وانخفاضاً وانعداماً ، فإن ارتفعت القدرة والإرادة إلى درجة الكمال ، كان العمل في درجة الكمال ؛ وإذا انخفضتا انخفض العمل ؛ وإذا انخفض أحدهما أو انعدم ، انخفض العمل بدوره أو انعدم . وهنا أشعر بضرورة التأكيد على فهم هذا الموضوع ، وأن لانمر فيه بتسليم غير مبالين ؛ كأن هذا تطويلٌ لالزوم له ، أو فلسفة لاداعي لها ، فلهذا قد يقول القارئ لِمَ الإلحاح في هذا الموضوع ؟

أجل .. إني ألحُّ على كل نقطة في هذا الموضوع ، لأنني أريد أن

---

(١) راجع كلام ابن تيمية في صفحة ٢١

أبني عليها أشياء هامة ، وكيف لا يكون هاماً وأنا أريد أن أبحث من خلاله مشكلة العالم الإسلامي ، بل ومشكلة العالم أجمع ؟

الأمر جديٌّ ، وأجدُ ما فيه أننا ينبغي أن نعلم كيف تبدأ الأمور ؟ وكيف تسير ؟ بل علينا أن نعلم كيف بدأ الخلق ؟ وكيف بدأ خلق الإنسان العجيب المكرم صاحب الشأن ، من سلالة من ماء مهين ؟ إنما بدؤه من ماء مهين ، ولكن مصيره إما إلى أحسن تقويم ، وإما إلى أسفل سافلين .

إن مشكلة العالم الإسلامي ، تبدأ بكل تواضع من قدرة وإرادة . وكما يبدأ الجنين من تلاقح الحوين والبُيَيْضة ، كذلك العمل يتولد من تلاقح القدرة والإرادة ، فلولاهما لما وجد الإنسان ، ولولاهما لما وجد العمل الصالح ، وقد خلق الإنسان ليعمل صالحاً ، فما أحرانا أن نتعلم أركان العمل الصالح . فإن كان علينا أن ننظر من أي شيء خلقنا ؟ ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟ ﴾ [الطارق ٨٦/٥] ، فإن علينا أن ننظر إلى هذا الذي يقرر مصيرنا ـ العمل الحسن ـ وينقذنا من الهلاك إلى النجاة :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ؟ ﴾ [الملك ٦٧/١ـ٢] .

علينا أن نتفهم جيداً أركان العمل الصالح وإجادته ، وأنه لا بد لنا أن نعرف أولاً وقبل كل شيء أن العمل يتولد من القدرة والإرادة سواء أكان سيئاً أم حسناً ، لأن الإرادة هي التي توجه العمل ، وليست القدرة ، وإن كانت الإرادة تستعين بالقدرة في تنفيذ قصدها ، فكذلك تستعين الإرادة بالقدرة في توجيه العمل إلى الأحسن . ولا بد لنا أن نحدق في هذه العملية .

هل يوجد العمل كلما وجدت القدرة والإرادة ؟ نعم .. إذ لا يمكن تصور عمل من غير قدرة وإرادة ، فلا عمل بدونهما ، وبوجودهما لا يمكن أن يفقد العمل[1] .

وقبل أن نسأل ما القدرة ؟ وما الإرادة ؟ علينا أن نتصور جيداً أنه بغيرهما لا يمكن أن يتم أقل عمل ، ولا يمكن أن نتصور سعي الإنسان بغير هدف ، كذلك لا يمكن أن نتصور سعياً بغير قدرة .

قيامك لإطفاء المصباح يتكوّن من قدرة وإرادة .. القدرة على أن تقوم وتمد يدك لتضغط على المفتاح ، وإرادتك لإطفاء النور سواء كان ذلك لطلوع النهار أم لإرادتك النوم ، أو التجربة أو اللعب . إذا

---

(١) وفي هذا يقول ابن تيمية : « الحب التام مع القدرة يستلزم حركة البدن بالقول الظاهر والعمل الظاهر ، ضرورة » . الفتاوى : ٥٤١/٧

تصورنا العمل في مستوى إطفاء المصباح ، فإنه يحتاج إلى إرادة وقدرة . فكيف نتصور العمل الذي نريد أن ننشئ به مجتمعاً على هدف معين بدونها ؟!

إن طبيعة العملين واحدة ، وإن تفاوتا في الحجم ، فكل واحد منهما يتكوّن من القدرة والإرادة . هنا هدف وهناك هدف : إطفاء المصباح أو إيقاده ، إنشاء مجتمع أو هدمه ، واليد تمتد حسب أمر العقل لإطفاء المصباح أو إيقاده ، وتمتد حسب أمر العقل لبناء المجتمع أو هدمه .

وهنا أريد أن ألفت النظر إلى جانب في هذا المثل : إن الذي يمد يده ليطفئ المصباح أو يضيئه ، قد لا يعرف أو لا يتذكر كيف وصل الإنسان إلى أن جعل المصباح بهذا المستوى ، وقد لا يعرف كيف اكتشفت الكهرباء ، وكيف يسعى أهل العقل إلى تحسين نوع المصابيح والمفاتيح ؟ وقد لا يعرف ولا يخطر في باله كيف عاش الإنسان في كهفه قبل أن يعرف النار ؟ وقد لا يعرف أنه يوجد الآن من البشر من لم يروا نور الكهرباء ولا مصباحه ؟ كما لا يعرف الفرق بين الإنسانين : الذي لا يزال في الكهف والذي يعيش الآن مع الكهرباء . نعم كان إنسان الكهف يمكن أن يتمتع بضوء المصباح ، ولكن لم يكن يقدر أن يصنعه ، وهنا هو الفرق بين المنتج والمستهلك .

كذلك قد لا نعرف الفرق بين المجتمع الذي يمنح الضمانات للأفراد الذين يعيشون فيه ، وبين المجتمع الذي يترك أفراده لجهدهم الخاص ، أو لا نعرف الفرق بين المجتمع الذي يكرم فيه المحسن ، ويعاقب المسيء ، والمجتمع الذي يَذِلُّ الناس فيه للمسيء ويعاقب المحسن .

وكما نحب أن يكون المصباح المضيء في منازلنا ، نحب المجتمع الذي يرتفع فيه قدر الإنسان ، ويتعلم فيه أداء واجباته . وكما أنه لا يمكن أن نتمتع بخدمات الكهرباء إلا إذا توفر المهندسون المختصون ، كذلك لا يمكن أن نتمتع بحماية المجتمع الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، إلا إذا توفر خبراء ومهندسون ، يعرفون كيف ينشأ المجتمع ويؤدي وظيفته ويحافظ على بقائه ونموه .

وأريد هنا أن أبيّن مستويين من العمل يتولد كلاهما عن القدرة والإرادة . عمل في مستوى إطفاء مصباح ، وعمل في مستوى إنشاء مجتمع ، أو بتعبير آخر : عمل يتعلق بمستوى المادة (الآفاق) ، وعمل يتعلق بالبشر (الأنفس) . وللعمل في مستوى الأنفس مستويات أيضاً : عمل في مستوى الفرد كزيارة جار لجاره ، وعمل في مستوى المجتمع كالتقاء مجتمع بمجتمع آخر .

ويمكن أن نلاحظ العمل المتصل بالأنفس من جانب آخر كأن

نرى العلاقة بين الأفراد أرفع أخلاقياً من العلاقة بين الدول ، فالعلاقة بين الأفراد لا تخضع لقوة العضلات أو المركز الاقتصادي ، بينما علاقات الدول لا تزال أسيرة لهذه الاعتبارات ، بحيث يصعب أن نرى من يشذ عن هذه القاعدة . هذه أعمال في مستويات مختلفة ، ولكن وراء كل منها قدرة وإرادة تتناسبان مع الحجم والنوع ، فإذا أردنا أن نؤثر في هذه الأعمال ونوجهها إلى الأحسن ، فلا بد لنا أن نزيد معرفتنا في القدرة والإرادة ؛ وبناء على هذا يمكن أن نتابع القول : هل كلما وجدت القدرة والإرادة يوجد العمل ؟ وهل لنا قدرة على صنع الإرادة والقدرة أم لا ؟

يمكن القول : كلما وجدت القدرة والإرادة وجد العمل ، ولا يمكن أن يظل الإنسان قاعداً ما دام قد وجدت عنده الإرادة والقدرة ، فهو لا يستقر مادام العقل يرى هدفه ووسيلته . إن الأسلوب العلمي التجريبي يثبت هذه القاعدة ، وقد لا أنجح كثيراً في هذه الأمثلة التي أعرضها ، بل يمكن للقارئ أن يجد أمثلة أوضح ، لأن كل أعمالنا خاضعة لها ، حيث يتفاوت الناس في قدرتهم على اختيار المثل الأقرب والأوضح .

وسنرى أركان العمل من خلال عمل معين وهو أداء فريضة الحج :

إن الإنسان ـ بالنسبة لهذا العمل ـ لا يخرج عن أربعة أحوال :

١ ـ إنسان لديه القدرة ـ وسائل السفر من الزاد والراحلة ـ ولكن لا إرادة عنده للذهاب إلى الحج ، فهو لا يمكن أن يستخدم وسائله وقدراته لهذا العمل .

٢ ـ وآخر عنده الشوق والتحرُّق والإرادة للذهاب ، ولكن لا يملك ما يسافر به . وهذا أيضاً لا يتمكن من القيام بهذا العمل لأنه يفقد الوسائل .

٣ ـ وإنسان ثالث ، ليست عنده القدرة وليست عنده إرادة الحج ، بل لا يخطر في باله أن يذهب إلى الحج ، وهذا من باب أولى أنه لا يؤدي هذه الفريضة .

٤ ـ والرابع متشوّق للذهاب إلى الحج (توفرت الإرادة لديه) ويملك الزاد والوسيلة (عنده القدرة) ، فهذا لا يمكن منعه من الحج إلا إذا سلب منه أحدهما أو كلاهما . وكذلك الأول والثاني والثالث لا يمكن أن نجعلهم يحجون إلا إذا أوجدنا عند الأول إرادة ، وعند الثاني قدرة ، وعند الثالث إرادة وقدرة . وقد يتفاوت الناس ـ تفاوتاً لا يمكن أن يدخل تحت الحصر والانضباط ـ في درجة ما عندهم من القدرات والإرادات وما ينقصهم منها ، ومع أنه لا يمكن ضبط التفاوت

فإننا نستطيع القول : إذا وجدت القدرة والإرادة وجد العمل بحسبها ، وإلا لما احتاج الثلاثة الذين خُلِّفوا أن يتوب الله عليهم فقد جاءهم النقص من الإرادة ، إذ لا يؤاخذ المؤمن على العجز الحقيقي عن القدرة إذا وجدت الإرادة ـ وهذا بحث آخر ـ وقول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران ٣/٩٧] . يعني أن الإنسان مادام مؤمناً فينبغي أن تكون له الإرادة ، فإذا فَقَدَ الإرادة أصلاً فقد كفر ، ومن فَقَدَ السُّبل فَقَدَ أحد ركنَيْ العمل ، وعمل هذا الإنسان لا يتحقق ، ولكن يعذر وهذا أمر آخر أيضاً .

من المثال الذي سقناه آنفاً ، علمنا أن العمل يوجد إذا وجدت الإرادة والقدرة ، ويفقد العمل إذا فقدتا أو فقدت إحداهما . والمسألة رباعية ، واحدة إيجابية وثلاثة سلبية ، فعندما يوجد عمل يعني أنه وجدت قدرة وإرادة ، وإن فقد العمل فإحداهما أو كلتاهما مفقودة ، وعند هذه النقطة يجب أن نبحث عن الشيء المفقود لنوجد العمل الحسن .

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث

الإرادة

بعد أن تكوَّن لدينا فهم أولي أن العمل لا يوجد إلا بوجود القدرة والإرادة معاً ، علينا أن نقف عند كلٍّ منهما لنعرفهما أقرب ما يكون من الواقع والصواب .

١ ـ مفهوم الإرادة :

الإرادة : أن تريد الشيء وترغب فيه .

والسؤال هنا : كيف نستطيع تصور الإرادة عند الإنسان ؟ هل هي عضو في الإنسان ؟ أم وظيفة ؟ وكيف يمكن تصوُّر فقدها ؟ الإرادة وظيفة مثل الرؤية والشم والإحساس بالصوت ... وإذا كان عضو وظيفة الشم الأنف ، وعضو الرؤية العين ، وعضو السمع الأذن ... فما عضو الإرادة عند الإنسان ؟ لكي نفهم هذا علينا أن نفهم المثل الذي نقيس عليه ، وهو الشم . يشم الإنسان الرائحة إذا وصلت جزيئاتها إلى أنفه ، فيقبل الزكية منها وينفر من الكريهة بالفطرة ؛

مـا لم تكن حـاسـة الشم قـد فسـدت لـديـه لمرض أو غيره . ومثل الشم التـذوق والسمع والبصر ، وإن كان الأمر في السمـع والبصر أرق وأدق . وكذلك الأمر بـالنسبـة إلى الإرادة : إذ يعرض الشيء الحسن أو القبيح على العقـل فيقبلـه أو يرفضـه . إن الإرادة وظيفـة العقـل الـذي يميز الإنسـان عن سـائر الحيوانـات فكـما تقبل حـاسـة الشم الروائح الطيبـة وتر يـدهـا ، كـذلـك يتقبل العقل الأفكار الطيبـة والأعـمـال الصـالحـة ويريدها ، وكما يقبل تلـك بـالفطرة يقبل هـذه بـالفطرة أيضـاً . وكما يمكن أن تفسـد تلك فيصير الإنسـان يتلذذ برائحـة الفسيخ[1] ، يمكن أن تفسد إرادته فيلتذ بالأفكار الضـالـة والأعـمـال الفـاسـدة . إلا أن الـذي يكون على الفطرة ، إذا عرض الصواب عليـه ـ دون أن يفسـد ذوقـه ـ فإنه يميل إلى الصواب : كما يميل الحـديـد إلى المغنـاطيس دون أن يحول بينهما مانع ، وقد يكون التشبيه غير موفق إلا أنه مقرب إلى حدٍّ ما .

وإفساد الإرادة ممكن ، لهذا يقول الرسول ﷺ :

« ما من مولود إلا ويولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ويمجسـانـه وينصرانه .. »[2] .

---

(١) سمك متعفن يأكله بعض المصريين في عيد يسمى شم النسيم .

(٢) أخرجه الإمام مسلم في كتاب القدر .

فالوليد يولد على الفطرة في سمعه وبصره وشمه وذوقه وإرادته للخير ، ولكن يمكن أن يلقَّن بعض الأمور الفاسدة حتى يراها حسنة :

﴿ أفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ، فَإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ ، إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر ٣٥/٨] .

إنه لأمر مهم أن يفهم الإنسان جيداً مسألة الفطرة ، وكيف يمكن إفسادها أو المحافظة عليها ، لأن هذا مرتبط بقابلية الإنسان لأن يكون في أحسن تقويم ، أو أن يرتد إلى أسفل سافلين .

الموضوع مهم ، والجهاز دقيق ، والأمانة ثقيلة ينبغي الاستنفار للمحافظة على سلامتها ، وإن وراء حواس الإنسان الجهاز الأعجب : إنه العقل أو الخلق الآخر الذي قال الله عنه :

﴿ ثُمَّ أنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ﴾ [المؤمنون ٢٣/١٤] .

وهو غير المخلوقات المعهودة ، فليس له مثيل في الوجود . هذا العقل الذي يفسر الحواس ، ويميز الأسود من الأبيض ، ويرى الحلال بيّناً ، والحرام بيّناً ، ويميز القبيح من الحسن ؛ وكما أنه لا تستوي الظلمات والنور ، ولا الظل والحرور ... كذلك لا تستوي الحسنة والسيئة .

الإرادة باعث باطني عند الإنسان يتولد من رؤيـة الشيء الحسن كما يتولد الميل إلى الرائحة الزكية ، والنفور من النتن : لهـذا إذا عرضت الأفكار والأعمـال على الإنسـان الفطري ـ خـالي الـذهن من التجـارب السابقة ـ فإنه له القدرة على أن يختار أفضلها .

وهذا هو الرصيد الأساسي عند الإنسـان ، حتى إذا فسـدت فِطَرُ الناس وتنـازعوا في فهم الصواب ، يبقى لـدى الأجيـال النـاشئـة هـذا الرصيــد ، ويجعــل من الممكن أن يخرج من بينهم من يختــار أفضــل الأفكار التي يسمعها ، وهذه القدرة دائمة تتجدد مع كل مولود ، ولذلـك فإن على أهل الحق أن يستفيدوا من هذا الأمر ويسبقوا أهل الباطل في عرض أفكارهم وآرائهم ، حتى لا تفسُد فِطَرُ النـاشئــة . وعلى فرض أن الباطل قد سبقهم ، فهذا السبق ليس نهائيـاً ، حيث إن إمكانيـة العودة وإظهار الحق لا تزال بـاقيـة ؛ وإلا لمـا أمكن نشر الأديـان والآراء التي كان يعارضها أهل زمـانهـا كلهم ، وإن التـاريخ والفطرة مع أهل الحق حين يعرف أهل الحق حقهم ، وحين يعرفون مزاياه .

وأثنـاء كتـابــة هــذا المـوضـوع كانت تثـور في ذهني أمـور شتى وشبهـات ، إلا أنني أيضـاً أعتمـد على ذكاء القـارئ وقـدرتـه على إدراك الموضوعات رجاء أن يكملها ، أو يعرف أمثلتها الكثيرة جـداً ... وهـذا يجعلني أكتفي بالإشارات التي ربما تقتضي الوقفات ...

إذن : الإرادة هي اختيـار العقـل ، وحين أقـول العقـل : أعني جهاز التميز عند الإنسـان (السمع والبصر والفؤاد) . وقـد يتـدخل في سلامـة الإرادة الشعور واللاشعور ، ومؤثرات الطفولـة والبيئـة ؛ ومـع ذلك فإن العقل قادر ـ حين يستخدم استخدامـاً سليمـاً ـ أن يميز الخطـأ من الصـواب و يعرف أدلـة الخطـأ والصـواب ؛ و بـذلـك تستمر سـلامـة الإرادة في المحافظة على سلامة جهاز المعرفة في الإنسان .

كثيراً ما نستعمل كلمة الإرادة ونصفها بالحديديـة تـارة والصلبـة تارة أخرى ، إلى آخر هـذه الأوصـاف ؛ إلا أن هـذه الأوصـاف لم تعـد تشبـع رغبتي في الفهم . فـأنـا أريـد أن أعرف كيف تُصنـع الإرادة الحـديـديـة أو الصلبـة من الألف إلى اليـاء ؟ وكيف يفقـد الإنسـان الإرادة ؟ وكيف تضعف الإرادة ، وتموت ؟ فـإذا عُرِف منشـأ الإرادة وكيف تضعف ؟ وكيف تقوى ؟ عندها تُخلق عندنـا إرادة للمحـافظـة على الإرادة بأسلوب علمي عملي ، لا بـأسلوب الأمـاني والأحلام والقعود والانتظار رجاء حدوثها بنفسهـا . وكل شيء لا نعرف كيفيـة حـدوثـه ونرده إلى الله دون أن يكون لنـا دخـل في حـدوثـه أو تغييره ـ بمعنى لم يعطنا الله سلطان تسخيره ـ فإنني أعاف البحث فيـه . أمـا إذا أدركت المكان الذي يكون فيه جهدي مؤثراً ، فعنـدهـا أكون قـد حصلت على ما يخلب لبي و يثير اهتمامي . لهذا إذا أردت أن تثير إرادة إنسان فعليك

أن تريه الجانب الذي يستطيع أن يؤثر فيه ويكون له دخل في حدوثه ، أما الجانب الذي لا دخل له فيه ، ولا يمكن أن يكون جهده مؤثراً فيه ، فإنه لا يستطيع أن ينشط إليه ، ولا أن يوجه إرادته نحوه .

وهنا لابد من ملحوظة .. وهي أن هناك أموراً لانعرف كيفية حدوثها ، ولكن لا تؤثر في إرادة الإنسان . قد لا أعرف سر علاقة الأسباب بالنتائج ، أعني علاقة : لِمَ يحدث هذا من هذا ؟ إذ الأمر يرجع إلى الله تعالى[1] .

ولكن الذي يهمني هو : هل أستطيع أن أؤثر في هذا ، حتى أصنع هذا من هذا ؟ فالأمر المفيد هو أن يتدخل جهدي في إحداث التركيب المطلوب والمماثل له . فليس المهم مثلاً أن أعرف لِمَ ينتج الماء من اتحاد الأوكسجين والهيدروجين ولا ينتج من غيرهما ؟ ولكن المهم أن أستطيع إجراء ذلك الاتحاد لينتج الماء ، فقدرتي تنحصر في كشف القانون وتطبيقه ؛ أما النتيجة فمخلوقة وترجع إلى الله تعالى وحده لا شريك له ، وأما غيري فقد ينسبها إلى الطبيعة أو ...

خلق الله السُّنن التي لا تتغير ولا تتبدل ، ويجب توضيح هذه

---

(١) راجع كتابنا (حتى يغيروا مابأنفسهم) .

النقطة جيداً ، حتى يزول الالتباس ولا يختلط علينا الأمر ، ونعرف أين مكان قدراتنا ، وأين مكان خلق الله تعالى وقدرته ؟ وقد شرحت هذا الأمر بتفصيل أكثر في كتاب (حتى يغيروا ما بأنفسهم) . والمقصود هنا ، أن نعرف الأسباب التي تؤثر في نشأة الإرادة ، وليس المقصود أن نبحث لِمَ أوجد الله الإرادة من هذه الأسباب ؟ فهذا يرجع إليه وحده ، وعدم بحثه لا يؤثر في بحث مشكلتنا الآن .

تخلق الإرادة عند الإنسان عندما يعرض عليه المثل الأعلى الذي قامت الأدلة التاريخية على صدقه ، وتقبله الفطرة السليمة كما يقبل الإنسان شمَّ الروائح الزكية .

قال ابن تيمية في الفتاوى عند شرح قوله تعالى :

﴿ وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴾ [الأنبياء ٤٥/٢١] : « ذلك لأن سمع الحق يوجِبُ قبولَه إيجابَ الإحساس بالحركة ، وإيجاب علم القلب حركةَ القلب ، فإن الشعور بالملائم يوجب الحركة إليه ، والشعور بالمنافر يوجب النفرة عنه ، فحيث انتفى موجب ذلك دلَّ على انتفاء مبدئه »[1] .

فالناس يميلون بفطرتهم إلى الحق ويحبونه ، مثل ميلهم إلى

---

(١) ابن تيمية ، الفتاوى ، ج٢٨ ، ص١٩٥ ، طبعة الرياض ، ١٣٨٢ هـ .

العـدل والصـدق والعلم والكرم إلى آخر مـا يسميـه الله معروفـاً . كما ينفرون من الباطل ويكرهونه مثل نفورهم من الظلم والكذب والجهل والبخـل إلى آخر مـا يسميـه الله منكراً ، وإن حبَّ المعروف وتعظيمه ، وحبَّ أهلـه مطبـوع في فطر النـاس ، وقـد يعجـز الإنسـان عن فعل المعروف أو لا يستطيعه ، إلا أنـه يقرّ بفضل من يفعلـه . وقـد تعرض للناس أهواء تجعلهم يميلون عن هذا ، ومع ذلك يبقى الاعتراف به عند الناس أو على الأقل عند أكثرهم . وهنا علينا أن نستعمل عقولنا لنمكّن الناس من تنفيذ ما عرفوا حقيقته وفضلـه ... وينبغي أولاً أن نسهم في إبراز العدل والصدق كمثل أعلى عند الإنسان ، وينبغي ثـانيـاً أن نسهم في إبراز كيف يمكن إقامة العدل والصدق والعلم في حياة الناس .

٢ ـ من أي شيء تتكون الإرادة ؟

ممَّ تتكون الإرادة ؟ وممَّ تنشـأ ؟ وبتعبير آخر : إذا كان العمـل يتولد من زوجين همـا الإرادة والقـدرة ، فمن أي زوجين تتولـد الإرادة يا ترى ؟

إذا كان الله قـد خلـق من كل شيء زوجين ، فـإننـا نستطيـع القول : إن الإرادة تتولد من زوجين أيضاً ، وهمـا : المثل الأعلى وعقل الإنسـان أو جهـاز تمييزه . فـإذا التقى المثـل الأعلى بجهـاز التمييز مع

استيفاء شروطه وانتفاء موانعه[1] ، تولدت الإرادة بإذن الله تعالى ، كما يتولد من كل زوجين ـ عند توفر الشروط وانتفاء الموانع ـ مولود جديد : وبهذا وحده أمكن استمرار الحياة ، فهذا الاستعداد لإنجاب مولود جديد عند وجود الزوجين الوالدين ، هو الذي يجعل الحياة مستمرة : وكذلك الاستعداد الموجود في فطرة الإنسان للتلاقح مع المثل الأعلى ، ينجب الإرادة عند الإنسان .

وبهذا نكون قد عرضنا الإرادة : تعريفها ، كيف تتولد ؟ ومن أي شيء تتولد ؟

ومن الملاحظ أن الإنسان إذا خفيت عليه الأمور ، فقد يختار مثلاً أعلى سيئاً لجهله أو لاتباعه هواه ؛ وعلينا أن نزيل جهله بالعلم ،

---

(١) من شروط المثل الأعلى : وضوحه وإبرازه بجلاء لا خفاء فيه ؛ إذ ليس كل من عرض المثل الأعلى ، استطاع أن يوضحه .
وموانعه : كل ما يقف أمام العقل من الموانع التي تخرجه عن الفطرة أو تحول بينه وبين التفكير .
ويمكن أن تتفرع الشروط والموانع إلى فروع كثيرة ، وهي التي تمنع من حصول المولود ـ بالرغم من وجود الزوجين ـ بسبب من موانع ترجع لأحد الزوجين أو كليهما ، وعلينا أن نتذكر أن هذه الموانع قابلة للمعالجة والشفاء من حيث الأصل لقوله ﷺ : « ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاءً » . رواه البخاري في كتاب الطب .

وهو بإبراز الرشد : وهذا واجب الأنبياء والمصلحين والآمرين بالقسط من النـاس . وإن الـذين يتبعـون أهـواءهم ، هم الـذين يعـارضـون المصلحين ، ولذلك فإن السعي لإزالة الجهل هو معركـة الحيـاة وموطن ابتلاء الإنسان .

فـإذا حصل البلاغ المبين بعـدم كتمان العلم ، زال الجهل وحينئذ سيشـع الحـق ﴿ بَـلْ أَكْثَرهُم لاَ يَعْلَمُـونَ الْحَـقَّ فَهُمْ مُعْرِضُـونَ ﴾ [الأنبياء ٢١/٢٤] .

وهنـاك أمر آخر .. هو أنـه كلمـا زاد وضوح المثل الأعلى قويت الإرادة ، وكلما عرف الإنسان كيفية تحقيقه في حياة النـاس زاد إيمـانه وتعلقـه بـه ، وكلمـا علم أركان المثل الأعلى الحق أبصر جزئيـاتـه أكثر ؛ وكلما توضحت الأركان المحكمة من المثل الأعلى للحق ، توضحت الأمور المشتبهة ؛ كما هو الأمر بالنسبة للآيات المحكمات والآيات المتشـابهات ؛ وكما هو الأمر بالنسبة للأمور الدقيقـة من العلم ، فكلمـا عرف الإنسـان القواعد الأساسية زادت قدرته على تطبيقاته الجزئية .

عرفنا كيف تنشأ الإرادة ، وعرفنا أبويها ، وعرفنا أنهـا بـدورهـا تشكل زوجاً يسهم في مولود جديد ألا وهو العمل الصـالح . ومع هـذا علينا أن نلقي أضواء أكثر على مشكلة الإرادة لأننـا نريـد إيجـاد العمل

الإسلامي الصالح ، وهو لا يتولد إلا من الإرادة الصالحة : التي لا تتولد إلا إذا برز المثل الأعلى الحق بوضوح وجلاء أمام العقل الإنساني . وكلما كان العقل على الفطرة - أي قبل أن تطرأ عوامل الإفساد - كان النجاح أمثل وأكبر . ومهما أفسدت الفطر ، تبقى إمكانية الإصلاح موجودة : وربما يعرض لكثير من الناس اليأس حين يرون في ظروف معينة إعراض الناس عن الحق ، وانتقال هذا الإعراض إلى صغارهم كما قال نوح عليه السلام : ﴿ وَلاَ يَلِدُوا إلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح ٧١/٢٧] ؛ وسأعود إن شاء الله لبحث هذه النقطة في بحث القدرة . إلا أنه لا بد من توضيح الشبهة في دعوة نوح عليه السلام .

إن نوحاً عليه السلام لما قال : ﴿ وَلاَ يَلِدُوا إلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح ٧١/٢٧] : لم يقصد أن الأطفال يولدون فجرة كفرة ؛ لأن هذا مخالف لسنة الله الواردة في الحديث الصحيح : « ما من مولود إلا ويولد على الفطرة »[1] ؛ وإنما كان قصده أن عوامل التربية المحيطة بهؤلاء الأطفال ستشوه فطرهم وتبعدهم عن اتباع الحق .

وبما أن قصة نوح عليه السلام تذكر دائماً لتبرير عدم نجاح

---

(١) صحيح مسلم - باب القدر .

الدعوة التي استوفت الشروط ، علينا أن نذكر أن الشروط التي ترجع إلى الفرد غير الشروط التي ترجع إلى المجتمع ، وقد شرحت هذه الفكرة في كتاب (حتى يغيروا ما بأنفسهم) عندما بينتُ أن الآية تدل على المسؤولية الدنيوية لا على المسؤولية الأخروية ، وعندما بينت أن الآية أيضاً تدل على التغيير الاجتماعي لا على التغيير الفردي .. لهذا فإن عدم نجاح نوح عليه السلام ، لا ينبغي أن يطرح حجة لعدم نجاح الأعمال الإسلامية التي توفرت لها القدرة والإرادة ؛ أي لا يجوز استخدام القصة مبرراً لفشلنا . ونقول :

١ - إن نوحاً عليه السلام نجح على سنن قدرات عصور الأنبياء السابقين ، فقد أغرق الله بالطوفان كل الكافرين وأنجى المؤمنين في الفلك المشحون ، وهذا هو النجاح المبين ، وقد جعله الله آية للعالمين .

٢ - إن القدرات تتفاوت حسب العصور والأزمان ..

٣ - إن استعراض قصص الأنبياء ، يدل على ظاهرة واضحة هي : أن الله تعالى قبل بعثة محمد ﷺ كان يهلك أعداءه بالآفات .

﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيهِ حَاصِباً ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ... وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت ٢٩/٤٠] .

إلا أن أسلوب انتصار محمد ﷺ على قومه لم يكن مثل هذه الأساليب ، وإنما كان قضاءً من رسول الله ﷺ على أعدائه بسنن طبيعية بأيدي المؤمنين :

﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ [محمد ٤/٤٧] .

وهذا حدث جديد ودليل آخر على تطور مسألة النبوة إلى مستوى آخر . فالنبي محمد ﷺ والذين اتبعوه أقاموا المجتمع الجديد بالجهود العادية للبشر العاديين ، وهذه ملحوظة هامة يزيل استحضارها كثيراً من العقبات . وإنه ﷺ من أجل هذا صار رسولاً إلى الناس كافة ، وكان خاتم النبيين حتى لا يكون للناس على الله حجة بعده ، وحتى لا يقول قائل : كيف ننتصر على خصومنا ولم يعطنا الله ما أعطى الأنبياء السابقين من التأييد بالمعجزات ؟!!

ونحن مطالبون باتباع منهج رسولنا عليه الصلاة والسلام ، وهو خاص به لأنه من خصوصيات ختم النبوة التي تميز بها وحده .

ويظهر هذا الأمر ـ وهو النصرة ـ في مستوى الجماعة أكثر مما يظهر في مستوى الفرد ، لهذا كان القرآن يخاطب رسول الله ﷺ فيقول :

﴿ فَـإِمَّـا نُرِيَنَّـكَ بَعْضَ الَّـذِي نَعِـدُهُمْ ، أَوْ نَتَـوَفَّيَنَّـكَ ﴾ [غافر ٤٠/٧٧] .

فكان من الاحتمال أن يرى الرسول نهاية أعدائه أو لا يرى ؛ ولكن : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾ [النور ٢٤/٥٥] . وهذا الوعد للمجتمع وليس للفرد .

وإن الذين يبررون نتيجة أعمالهم الفاشلة بالاستشهاد بقصة نوح عليه السلام مع قومه ، يريدون أن يثبتوا بذلك الخطأ الشائع الذي يقول : (عليَّ أن أسعى ، وليس عليَّ أن أدرك النجاح) . فمهما اختلفت الحجج والعبارات ، فالمشكلة تكمن في الدفاع عن الذات ، والإعراض عن بحث أسباب إزمان المشاكل . ليس المهم أن نحل عند مسلم اليوم شبهاته في دعوة نوح ، ولكن المهم أن يحدث للمسلم نظر سليم للمشكلات ، وهذا لبُّ الموضوع . والاستشهاد بقصة نوح عليه السلام لا يثبت الدعوى التي نريد نقضها : علينا أن نسعى وليس علينا إدراك النجاح .

إن هدفي ليس حل الإشكالات في بعض الأمثلة والشبهات ، وإنما تغيير نظر المسلم إلى الأمور ، وسأحاول إزالة عقبة من العقبات التي تجعل المسلم مرتاح الضمير حين يرى إخفاق الحركات الإسلامية . إن مسلم اليوم لا يبذل جهداً ليرى جانب الخطأ الذي وقع فيه مفكرو المسلمين ، بل ـ مع الأسف ـ يعتقد أن هؤلاء المفكرين والعاملين قد توضحت لهم كل شروط النجاح ومارسوها ، إلا أنهم لم ينجحوا ، ولا ضير إذ : (علينا أن نسعى وليس علينا إدراك النجاح) ، وإن الأمر ليس بيدهم وإنما هو بيد القدر الأعلى !!

هل عرفت أيها القارئ الكريم ، لماذا أطيل البحث وأطارد المشكلات في جحورها ؟ كل ذلك ، لنخرج العوامل المعطلة للحركة الإسلامية .. وإن مثل هذه المسلّمات تسد آفاق المسلم ، بل هي آصار وأغلال عليه ، وتحول بينه وبين مراجعة النفس[1] .

وإن اعتقاد المسلمين بأن النجاح ليس نتيجة حتمية للسعي الصالح ، هو من أشد المعوّقات التي تمنع المسلمين من مراجعة أعمالهم ونقدها ، لأنهم لا يفرضون فيها الخطأ ، بل يفرضون أنها كانت صائبة ، ولكن لم تأت النتيجة المطلوبة لأمر أراده الله . إن مواجهة

---

(١) مراجع النفس : هي التوبة بالمعنى الشرعي .

هــذه النقطــة أمر جــوهري لتحــو يــل نظر المسلم في رؤيــة سبب الإخفاق[1] .

ومهما شرحت المـوضـوع أو طـاردتـه ، فـإنني لا أشعر أن عنـدي الإحـاطـة الكاملـة لإبراز المشكلـة بما ينبغي أن يكون عليـه البحث ؛ ولكن إلقـاء بعض الأضواء يعين على إدخـال الشـك في نفس القـارئ ، وإخراجه من برد اليقين إلى قلق الشك ، لأنه يشعر وهو في برد اليقين أنه لم يقصر ، بل سنن الله قد أخلفت الوعد . وأريد أن أشكك في هذه المسلَّمة حتى يتحول الشـك إلى يقين ، بـأن سبب تخلف المسلمين يرجع إلى سعي خـاطئ أو نـاقص على الأقـل ، أدى إلى تخلف النتـائـج ؛ ولا يرجع إلى سعي صحيح تخلفت عنه النتائج .

لهذا على الإنسان أن يرجع إلى نفسه ليصحّح عملـه ، لاأن يقعد ويقـول : عملي صـالـح ، ولا يشترط أن ينتـج من العمـل الصـالـح النجاح .

إن هـذا الكـلام يمكن أن يكـون صـادقـاً في مستـوى الفرد ، إذ لا يشترط لكل فرد أن يصل إلى نتـائـج النجـاح في الـدنيـا ؛ وهـو غير

(١) كما أن هذا النظر الخاطئ يمنع الشباب من السعي لتحويل أشخاصهم إلى الكفاءات التي يحتاج إليها المسلمون والمجتمع الإنساني : وكلما تأخر إدراكهم لذلك ، تـأخر توفُّر الكفاءات اللازمة لتحقيق التغيير .

صحيح قطعاً على مستوى المجتمع ، بل إن منشأ الخطأ والضلال أن نطبق هذه الفكرة على المجتمع ، إذ إن نجاح الفرد في الدنيا مرتبط بسعيه و بمقدار ما يقدمه مجتمعه إليه من عون وضمانات . و يمكن أن نرى هذا في مستوى الرسول ﷺ كفرد حيث يقول الله له :

﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ... ﴾

[غافر ٤٠/٧٧] .

فلا يشترط أن يرى الرسول ﷺ النتائج كفرد ، ذلك أن نجاح الفكرة إنما يتم على مستوى المجتمع ، وهذا واضح في قوله ﷺ لعدي بن حاتم :

« ... فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله ... ولئن طالت بك حياة لتُفتحنَّ كنوز كسرى ... ولئن طالت بك حياة لترينَّ الرجل يُخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه ... قال عدي : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ يُخرجُ ملء كفه .. »[1]

(١) صحيح البخاري ، الجزء الخامس ، كتاب المناقب ، رقم ١٠٠ ، الطبعة المنيرية .

ينبغي أن نطمئن كل الاطمئنـان وبـالوضوح الكامل إلى ضرورة إزالـة اللبس والغموض الـذي يحيـط بفكرة ﴿ هُوَ مِنْ عِنْـدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران ١٦٥/٣] . وعلينـا أن نحـدد مكان النقص عنـد المسلمين . وأن تكون عنـدنـا مقـاييس دقيقـة حتى نبيِّن مـوطن النقص الـذي يرجع إلينا ، ونحدده بدقة تحديد المجهر للجراثيم التي تختبئ في أعماقنا .

وما يزعجنا حقاً أن المسلم مقتنع بأنه لا تقصير سواء لدى للمسلمين أو الحركات الإسلامية ، وأن ما يلحق المسلمين من الفشل يرجع إلى أمر خارجي : إنه من قدر الله ، أو من الاستعمار أو من أذنابه ...

وهـو لا يرضى مطلقـاً أن يعتبر التقصير راجعـاً إلى نظر المسلمين القاصر إلى المشكلة .

إن نظر المسلمين الخـاطئ قـد اكتسب قـداسـة تتحـدى القرآن ، والسُّنن ، بل تتحدى الله حين تفرض أننا لسنا مقصرين ، بل يمكن أن يخلف الله وعده فلا يعطينا النجاح . ومن المخزي أننـا يمكن أن نفرض كل شيء للدفـاع عن أخطـائنـا ونبحث عن كبش الفـداء في كل مكان دون أن ينبض فينا عرق ، أو تختلـج فينـا عضلـة ، ولكن إذا حـاول أحد أن يقول :

« إن فشلنا هو من جلهنا بمعرفـة الطريق ، وهو من تنكّب أهل

الحـل والعقـد للصراط المستقيم ، أو ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران ٣/١٦٥] .

هنا فقط تنتفخ أوداجنا ، وتتوتر عضلاتنا ، ويا غارة الله ... لمن ؟ لهذا المخرّب الذي يشير بأصابع الاتهام حين يفرض عدم الفهم ، وحين يفرض الخطأ في الحركات الإسلامية نفسها .

إن هذا الصمت المطبق الذي يخنق الأنفاس ، في عدم مراجعة المسلمين لذاتهم هو نتيجة لهذه الفرضيات الطفولية .

إن مثل هذه المواقف التي يقفها المسلم في الدفاع عن ذاته كأي طفل لم يبلغ الرشد ، حين يصف أخطاءه بأنها حدثت بنفسها ، ولا دخل له فيها ... إن هذه المواقف المظلمة التي يتستر بها المسلم ينبغي أن نسلط عليها بعض الأضواء ليتمكن من أن يبصر نفسه وما حوله ، فيخجل من التفسيرات العنكبوتية التي يحمي بها نفسه ، لأن أحداً لم يستخدم أداة فيها قوة تهدم هذا البيت الواهن الذي يحتمي به مسلم اليوم وهو غارق في أحلامه . فمن هنا نعلم : مدى وهن الوسائل التي يريد المسلمون أن يصلحوا بها أنفسهم .

هناك أمثلة واضحة فاضحة للموضوع الذي يحيط به غموض مطبق . وإن الحذق كل الحذق أن نعرف كيف نقرب الغامض ؟ وكيف نضيء الأسباب المظلمة بأضواء المعرفة ؟

فإننا مثلاً نضحك من النعامة حين تدفن رأسها وتقع في الفخ من جراء تصرفها الغبي ؟ ولكن هل لدينا القدرة أن نرى النماذج الرفيعة من رجال العالم الإسلامي يقعون في مثل هذا الخطأ حين يدفنون عقولهم ، ويبرزون عواطفهم . كما يمكن أن نرى هذا في مَثَلِ المؤذن الذي تأخر في إقامة صلاة الفجر حتى كادت الشمس تشرق ، قال له بعضهم : إن ساعتك متأخرة ، ولقد أخرتنا ؟!! فأجاب بكل بساطة : إن ساعتي صحيحة ، ولكن الشمس أسرعت في الشروق !

ومثل هذا الخطأ قد يقع في مستوى حركة الحضارة ، ففي عهد الإصلاح في الغرب لما نشر فيساليوس (١٥٤١ م) طبعة جديدة من النص اليوناني لجالينوس ، أدهشته أخطاء بدرت عن جالينوس « وكانت خليقة بأن يدحضها أبسط تشريح لجسم الإنسان ... » .

قال دويوا : « إن جالينوس لم يخطئ ، ولكن جسم الإنسان عراه تغير منذ عهد جالينوس .. » .

إن مثلاً كهذا يدل على بساطة هذا الرجل الطيب ، ومحاولته للدفاع عن ذاته وما يتصل بها من ساعته . إن تغيير نظام الكون وارد وحدوث المعجزات التاريخية ممكن .. لكن هناك شيئاً آخر غير ممكن ألا وهو أن تكون ساعتنا متأخرة !! أو أن يكون جالينوس قد أخطأ .

إلا أن إمكانية رؤية تبريرات المسلمين لمواقفهم إزاء المشكلات ليست في مثل هذا الوضوح . وقد تكون بعض المواقف بالوضوح نفسه ، ولكن المشكلة ليس في أن تكون واضحة ، بل أن تكون واضحة لنا ؛ فكم من خطأ نقع فيه من غير أن نشعر ، فيحول بيننا وبين اهتدائنا إلى الحق في حلّ مشكلاتنا .

وكما نكشف بعض الأخطاء ، أو الغموض في بعض مواقف من سبقونا ، فلا يضيرنا أن يكشف من يأتي بعدنا جوانب القصور في فهمنا للأمور ، بل إن هذا الكشف من اللاحق يشرّف السابق أيضاً ، لأن السابق كان سبباً في دلالة اللاحق على الاهتداء إلى الصواب بوجه من الوجوه إن لم يكن بكل الوجوه ، بل يكون من سعادتنا أن يتوضح النقص والغموض عندنا ، فيتلافاه من يأتي بعدنا ، ولا يتناوله للتشفي منا ، وإنما لمساعدة من بعدنا وبعده ، وليخفف عنه بعض الأثقال التي نحملها ، أو ليزيل بعض الغموض الذي يجعل سعينا ناقصاً ، وهذا هو معنى الدعاء المأثور :

« اللهم اغفر لي ما أخطأت وما تعمّدت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما جهلت وما تعمّدت »[1] .

---

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ، ج ٤ ، ص ٤٣٧

ولا ننزه أنفسنا عن الوقوع في عدم رؤيـة الحق خطـأ أو عمـداً ، ولكن نرجو أن يكون هذا الفهم سبباً في تقليل الحواجز التي تحول دون مراجعتنا لعواقب أعمالنا ، وفي تنكُّبنا عن الحق خطأ أو عمداً .

وانطلاقاً من هذا المفهوم أرجو أن أوفق إلى إضافـة بعض الوضوح أو التقـدم خطوة أخرى في الخطوات التي خطـاهـا إلى الأفق الـوضـاح الذي تقدم إليه الدكتور يوسف القرضاوي في كتـابـه الـذي يحلل فيـه نكبـة حزيران : (درس النكبـة الثـانيـة ... لمـاذا انهزمنـا ... وكيف ننتصر ؟) .

ففي تحليله للنكبة يصل إلى نقطة متحارجة حين يتساءل : هل السبب في القـادة أم في الشعب ؟ وذلـك بعـد أن تحـدث عن المنــاخ السيــاسي ، وعن صلاح الــدين المرتقب .. ثم وضـع المـؤلف العنـوان الآتي : (مسؤوليـة الفكر) . وفي الـواقـع إنني طربت لهـذا العنـوان كما يطرب أي إنسـان يعثر على بحث في المـوضـوع الـذي يهمـه ، فكان مما قـال : « طريق الخـلاص الجهـاد ، والجهـاد يقتضي التغيير والتعبئـة ، وهمـا يحتـاجـان إلى القيـادة المـؤمنــة ، والقيــادة لا تظهر إلا في أمــة تستحقها ، فكيف التخلص من هذا الدور ؟ الأمـة تحتـاج إلى قيـادة ، والقيادة إلى أمة »[1] . ويتابع الموضوع بعقله الأصولي فيقول : « والحق

(١) يوسف القرضاوي ، درس النكبة الثانية .

أنه لادور ، ولا تناقض . فظهور القائد المنشود والحاكم المرتقب يحتاج إلى أرض حرة يرتكز عليها ، وإلى كتلة قوية تشد أزره ، وإلى تيار فكري ينادي به ويشعر الأمة بضرورة وجوده »[١] .

« وهنا تبرز مسؤولية الفكر ورجال الفكر ، ودورهم في إعداد الأمة وتعبئتها وتهيئتها للمرحلة الحاسمة »[٢] .

الحق أنني شعرت هنا بنشوة الظفر ، والخروج من الدور والتسلسل ، وأنه قادنا إلى المخرج من التيه ، وما وصل إليه أعتبره إضافة جديدة إلى الفكر الإسلامي المعاصر ، لا نجده بمثل هذا الوضوح عند مؤلف آخر ، هذه الإضافة لها أهميتها البالغة ، وذلك أننا تجاوزنا في سعينا إلى تحليل المشكلات ، من إلقاء اللوم على القادة وعلى الشعب ، إلى إلقاء اللوم على الفكر ورجال الفكر .

أجل إنه تقدمٌ عن الأسلوب المتعارف عليه في تحليل القضية ، له قيمته ، ولا يقدّره من لم يعانِ التقدم وصعوبته ، وأهمية الإضافة الجديدة مهما كانت ضئيلة ، وأرى هنا أن هذه الإضافة ليست ضئيلة ، بل هي مرصد جديد لكشف آفاق جديدة ، ومجال جديد لتحرك أهل الحركة ...

(١ - ٢) يوسف القرضاوي ، درس النكبة الثانية .

ثم بدأ في شرح الفكر الذي ننشده بأنه : (الفكر الحر الأصيل الشجاع الواقعي) ، ثم اختصر الأوصاف بأنه (الفكر الحق) واهتم أكثر بصفة (الحر) ، واعتبر آية الفكر الحر الأصالة . والأصالة : أن تنبع من أمتنا ، كما لم ينسَ أن يحترز مما يمكن أن يفهم من الأصالة ، فبيَّن أن هذا ليس دعوة « إلى إغلاق النوافذ الفكرية بيننا وبين العالم من حولنا ، ودون أن نفقد أصالتنا ، وأن لا يهولنا ضخامة الأصنام وهالات التقديس والسدنة » .

إن هذا الكلام جيد ، ولكن سأتقدم به خطوة أخرى إلى الأمام - في أرض بكر على الأقل بالنسبة لجونا الخاص - ومع اعترافي بفضل خطوته السابقة التي ساعدتني على الخطوة التالية ، فلا أريد أن أحمله تبعة هذه الخطوة ، لأنه يمكن أن يقال بكل وضوح : إن هذا المعنى الجديد ليس في كلامه الصريح ؛ وأنا كذلك لا أقول : إن هذه الخطوة ليست في ذهن المؤلف الحصيف ، وإن كنت لا أعلم بالدقة ، العوامل التي جعلته لا يتابع الخطوات ، وأترك بيان ذلك للذين سيخطون الخطوات التي تلي خطوات وقفنا عندها .. والخطوة التي أريد إضافتها هي أن نتساءل :

إذا كانت المسؤولية هنا مسؤولية الفكر ورجال الفكر ، فكيف يكون حل المشكلة ؟

جواب هذا السؤال هو ما يقع على عاتق رجال الفكر ، إن كان عندنا رجال فكر ، وعلى عاتق من يهيئون أنفسهم ليكونوا رجال فكر إن كان هناك من يتطلّع إلى ذلك .

في الواقع ، إننا نفتقد رجال الفكر ، والمتطلعين إلى أن يكونوا رجال فكر ، أو إنهم من الضآلة بحيث لا يشكلون تياراً فكرياً يتأثر به قطاع عريض من الناس ؛ بل إننا نفقد الذين يعلمون كيف يصبح الرجل رجل فكر ؟

وهذا الاعتراف هو المرحلة الثانية إذا اعتبرنا الاهتداء إلى تحميل المسؤولية لرجال الفكر مرحلة أولى .

ولكن بعد أن وقف القارئ عند الكلمات الطيبة التي تقلناها ، يمكن أن يحمل مسؤولية رجال الفكر أقواماً مجهولين ، أو خصوماً تابعين للفكر غير الأصيل ، وقد لا يفهم أن حديثه عن مشكلة المسلم والمفكر المسلم ومسؤوليته !! وكأن المفكر المسلم قد أدى دوره ، وكأن هناك آخرين غيره لا يؤدون دورهم .. إن المشكلة ليست في المفكر غير المسلم ، بل في المفكر المسلم بالذات ، وهذا التعيين والتوضيح هو الخطوة الأخرى التي أتحمل تبعتها وحدي ، وإنا أضيف هذا المفهوم إلى المعنى السابق الذي تقلناه فلا يتيسر للقارئ أن يمر دون أن يحس بأزمة وبخطورة ، ودون أن يشعر بأن الأرض بدأت تهتز من تحته وتتزلزل .

إنني لست هاوياً أن أصدم ثقة الشباب المسلم في الفكر الإسلامي المعاصر ، ولكن لا أرضى أيضاً أن نصنع لهذا الفكر سدنة نحيطهم بهالة القداسة .

ومع ما لهذا الفكر من فضل فيما بثّه من انتعاش في أبناء الجيل ، فإنه لم يخرجهم من التيه الذي يضيعون فيه ، ولهذا لا أريد أن يعطى هذا الفكر من التقدير أكثر مما يستحق ، حتى لا يكون ذلك سبباً للعطالة وإيقاف التقدم .

وإن رجال الفكر أو الذين يتبوؤون هذه المكانة ، لا يوحون إلى قرائهم بأن ما حصلوه ليس كل شيء ، وإن على الأجيال التي تقرأ لهم أن يكملوا كشف الطريق وتوضيحها .

كان علماء السلف يقولون : « لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري ، وخذ من حيث أخذوا »[1] . ومع ذلك فقد ذهبت هذه الوصايا أدراج الرياح ، لأن التيار المضاد كان أقوى . ولهذا ترك العالم الإسلامي اتباع مثل هذه الوصية ، وقلّدوا مالكاً بل من هم دون مالك .

---

(١) رواه الفلاني في (الإيقاظ) ، ص ١١٣ ، وابن القيم في أعلام الموقعين : ٣٠٢/٢ ، عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه .

ولكن من المؤسف أن الـذين يشغلـون مكان رجـال الفكر والعلم في هـذا العصر ، لم يقـدروا أن يتفوَّهوا بهـذه النصيحـة التقليـديـة التي أطلقهـا السلف ، فكيف يكون حـالنـا في مثـل هـذا الجـو العقيم ، غير القحط العام ؟!

إننا لا نعرف حتى الآن معنىً لآيات الآفاق والأنفس ، ولا نعرف أنها هي التي ستدل على صحـة آيـات الكتـاب ، ولا أنهـا مصـدر من مصادر المعرفـة الحقـة ، فهل قـادة الفكر في العـالم الإسلامي يعتمـدون آيات الآفاق والأنفس في بيان صدق آيات الكتاب ؟

أليس كل قـادة الفكر في آيـات الآفـاق والأنفس من غير العـالم الإسلامي في العصر الحـاضر ؟ ومبلغ علم مَن يُعتبر من رجـال الفكر في العالم الإسلامي أن يستشهد بأقوالهم .

ولهـذا يجب أن نعرف مبلـغ جهلنـا ، وألا نخفي هـذا عن الجيـل الذي يأتي بعدنا ، ليعلم أن واقعنـا نتيجـة لعلمنـا ؛ فـإن كان لا يرضيـه هذا الواقع فلينظر إلى علم أحسن ، فـإن مـا عنـدنـا من علم لم يعطَ إلا ما رأى .

إن بروز مسؤولية قـادة الفكر ، كعنوان في بحث لتحليل عوامل حدث تاريخي كبير ، إنما هو إنعاش للبذرة الأصيلة التي احتوت عليها

الثقافة الإسلامية وهي : إن صلاح الأمة في طائفتين من الناس : العلماء والأمراء ، أي في قادة الفكر ، وقادة السياسة .

إن وضع عنوان (مسؤولية قادة الفكر) ، إنما هو بمثابة إعادة الحياة لمسؤولية العلماء ومكانتهم بين الشعب وقادته . وهذه الوظيفة التي أصابتها ظواهر الإهمال ، والتي كفَّ المسلمون عن التنافس في تأهيل أنفسهم لأدائها ، قد جعلتنا نرى القذى في أعين الناس ، ونعجز عن رؤية الجذع في عيوننا ، إنه أوان ذهاب العلم الذي ينتج عنه توزيع اللوم مجاناً على كل أحد ، خلافاً لأمر رسولنا ﷺ عن ربّه :

« ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه »[1] .

ونحن عندنا استعداد أن نبحث عمن نلومه ، ولو بادّعاء أن الشمس غيَّرت مجراها حتى لا يتوجه اللوم إلى شيء يتصل بنا ، فضلاً عن أن نتمكن من لوم أنفسنا .

إن لوم النفس هو التوبة ـ وهو النقد الذاتي في المصطلح الحديث ـ ومن لا يقدر على لوم نفسه ، لا يقدر أن يتوب . ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(١) صحيح مسلم ، كتاب البر .

إننا نَبصر أخطاء غيرنا ، ونزحلق أبصارنا عن خطئنا ... كأن قادة الفكر من المسلمين قاموا بما عليهم من فهم وتفهيم ، ولكن الأمور لم تستقم مع ذلك !!

إن واجب الفهم والتفهيم والتحليل والتوضيح لجذور المشكلات ، إنما يقع على قادة الفكر ، فهم الذين عليهم أن يعرفوا علاج الشعب وقادته .

ولكن ساعتنا صحيحة ، وإنما الذي تخلف الجهد السياسي ، والمسؤولون عنه غيرنا ، وبذلك صرنا في أمان وبراءة وشعور بعدم المسؤولية ، فهذا الذي يجعلنا نوزع اللوم !!

إننا في العالم الإسلامي لم ندخل بعد عالم الأفكار ولا نزال نعيش في عالم الأشياء والأشخاص . إن قيمة الفكر وقادة الفكر ، لا تزال في المكان الذي كان أبو تمام وضعهم فيه منذ زمان طويل حين قال : السيف أصدق أنباء من الكتب[1] .. إن فكرنا ما زال يسيطر عليه ما توحي به كلمة (عنترة) حين تذكر في الأدب الشعبي .

ولا يسعني هنا إلا أن أقتطف بكثير من الاغتباط فقرة من مقال

---

(١) وحين قاله أبو تمام ، كان يقصد بالكتب أقوال المنجمين ، أما الذين يستشهدون به فيقصدون تفضيل القوة على الفكر والعلم .

مطوّل للأستاذ الدكتور محمد الطالبي بعنوان : (التاريخ ومشكلات اليوم والغد) . « ولعل فشل سياستنا اليوم ، وسلبيتها في كثير من الأحيان ، يُعزيان إلى انعدام المختصين في صفوفنا في شؤون الأمم التي نتعايش معها أو نتصادم . لقد سبق أن قلنا : إن التاريخ بقي أيضاً بالنسبة إلينا - لكن بمفهوم جديد - مدرسة لتخريج الإطارات السياسية ، وليس معنى ذلك أن رجل السياسة ينبغي أن يكون مؤرخاً . إن التاريخ اختصاص يفني - كغيره من العلوم - الأعمار ، ولا يترك المجال للاشتغال بما سواه ، لكن يجب أن يجد القائد السياسي من بني جلده وحوله ، من المؤرخين الأكفياء ، ومن الدراسات التاريخية المتينة ، ما ينير له السُّبل ، ويمكّنه من إدراك الوضع بوضوح حتى يحسن الخطاب والتصرف ويحقّق النجاح ، لا لأنه كما توهم القدماء يستطيع أن يغترف حلولاً جاهزة من الماضي يطبقها على الحاضر - مما قد يؤدي إلى الكوارث الجسام - بل لأن الحكم على الشيء كما قال المنطقيون فرع عن تصوره . وفي التاريخ عون عظيم على التصور الصحيح ؛ وإذا صحَّ ما قدمناه من مقدمات ، فإنه يصحُّ أيضاً أن نقول : إن إخفاق السياسة في معالجة شؤون اليوم ؛ إنما هو إلى حدّ بعيد إخفاق الجامعة قبل كل شيء ... »[1] .

(١) مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الأول ، عام ١٩٧٤ م ، مقالة للأستاذ الدكتور محمد الطالبي بعنوان التاريخ ومشاكل اليوم ، ص ٢٤

وفي معرض أهمية الدراسة التاريخية في حلّ المشكلات ، ضرب مثل مشكلة الوحدة العربية الإسلامية وقال فيها :

« إننا أخفقنا إلى اليوم في حلّ أهمّ قضية من قضايا عصرنا ، لأننا لم نحسن تصور كامل أبعادها ، ولم نحسن ذلك التصوُّر لأننا لم نحسن التحليل التاريخي ، ولم نمدّ رجال السياسة منا بما يضمن لمساعيهم التوفيق .. »[1] .

إن هذا التصور للمشكلات ، وهذا الحكم إزاءها يخالف الأسلوب الذي تعودنا عليه . إن حديثنا ينطلق ـ عادة ـ من أننا نعرف كل شيء ، ولكن الخبثاء لا يطيعوننا .. أما أن نقول : إن هؤلاء تنقصهم معرفة الطريق إلى حلّ المشكلة ، ونحن لم نقدم لهم كيفية الحل ، فهذا لا يخطر في بالنا .

وكذلك الأمر حين يقول : « إن إخفاق السياسة في معالجة شؤون اليوم ، هو إخفاق الجامعة قبل كل شيء »[2] . أي : هو إخفاق الرجال المسؤولين عن الفكر ، وهذا الإخفاق ناشئ من تزحلق في الرؤية ؛ أقصد عدم رؤية أثر الفكر ، أي عدم كشف آيات الآفاق والأنفس التي تدل على الحق بوضوح .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٨

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤

ومما يوضح الحوار الذي يدور داخل النفس المسلمة حين يقف المفكر إزاء هذه المشكلات ، ذلك المقال الذي كتبه سيد قطب رحمه الله بعنوان : (قوة الكلمة) أي : قوة الفكر . وقال فيه : « في بعض اللحظات ، لحظات الكفاح المرير الذي كانت الأمة تزاوله في العهد الذي فات ... كانت تراودني فكرة يائسة ، وتلحُّ عليَّ إلحاحاً عنيفاً أسأل نفسي في هذه اللحظات : ما جدوى أن تكتب ؟ ما قيمة هذه المقالات التي تزحم بها الصحف ؟ أليس خيراً من هذا كله أن تحصل لك على مسدس وبضع طلقات ، ثم تنطلق لتسوّي بهذه الطلقات حسابك مع الرؤوس الباغية الطاغية ؟ ما جدوى أن تجلس إلى مكتب فتفرغ حنقك كله في كلمات وتصرف طاقتك كلها في شيء لا يبلغ إلى تلك الرؤوس التي يجب أن تطاح ؟! ولا أنكر أن هذه اللحظات كانت تعذبني ، وكانت تملأ نفسي ظلاماً ويأساً ، كانت تشعرني بالخجل أمام نفسي ؛ خجل العجز عن عمل شيء ذي قيمة ، ولكن هذه اللحظات ولحسن الحظ لم تكن تطول ، كان يعاودني الأمل في قوة الكلمة ، كنت ألقى بعض من قرؤوا لي مقالاً ، أو أتلقى رسائل من بعضهم فأسترد ثقتي في جدوى هذه الأداة ، كنت أحس أنهم يتواعدون معي على شيء ما ؛ شيء غامض في نفوسهم ، ولكنهم ينتظرونه ويستعدون له ويثقون به !

كنت أحسُّ أن كتابات المكافحين الأحرار ، لاتذهب كلها سدى ، لأنها توقظ النائمين ، وتثير الهامدين ، وتؤلف تياراً شعبياً يتجه إلى وجهة معينة ، وإن لم تكن بعد متبلورة ولا واضحة ، ولكن شيئاً ما كان يتم تحت تأثير هذه الأقلام . ولكنني مع هذا كنت أعود - في لحظات اليأس والظلام - أتهم نفسي ، كنت أقول : أليس هذا الإيمان بقوة الكلمة تعلّة العجز عن عمل شيء آخر ؟ ألا يكون هذا ضحكاً من الإنسان على نفسه ليطمئن إلى أنه يعمل شيئاً ، وليهرب من تبعة التقصير والجبن ؟ وهكذا كنت أعيش طوال فترة الكفاح الماضية حتى شاء الله أن يطلع الفجر الجديد ، وأن تنكشف الغمة المعتمة ، وأن يتنفس الناس الهواء النظيف الذي حملته الثورة ، وأن يصبح هذا الصراع ذكرى يضمها التاريخ في ثناياه .. »[1] .

هذه الكلمات الصادرة من الأعماق وثيقة هامة لتصوير حال المفكر المسلم في تلك المرحلة ، وكيف أن عدم رؤية أهمية الفكرة وفعاليتها يؤدي إلى العذاب و يملأ النفس ظلاماً و يأساً ، بل يشعر الإنسان بالخجل أمام نفسه لأنه لا يقوم بعمل شيء ذي قيمة .

كما يمكن أن يفسر الإيمان بقوة الكلمة - قوة الفكر - تعلّة

---

(١) سيد قطب ، دراسات إسلامية ، الطبعة الثالثة ، ص ١٢٤

العاجزين عن عمل شيء آخر ، وهروباً من تبعة التقصير والجبن : فهذا تصوير دقيق للواقع ـ المؤلم ـ ينبض بالحياة . إلا أن ماعتبره فجراً جديداً لم يكن نتيجة لقوة الكلمة بمقدار ماكان نتيجة لقوة المسدس .. ولهذا لانزال نحمل قابلية الانخداع بالفجر الكاذب ، والمساهمة في صنعه بالمسدس ، ونحن نظن أننا نصنع فجراً صادقاً .

والذي جعلنا نكتب هذا الاستطراد الطويل ، ظن كثير من الناس أنه يمكن أن تتوفر الإرادة الجازمة والقدرة التامة ، ثم لا يحدث العمل الناجح ضرورة .

٣ ـ بعض خصائص الإرادة :

أ ـ الإرادة تنتقل بالوراثة الاجتماعية :

بحثت في موضوع العمل الصالح أو الناجح ، وبيَّنت أنه يتولد من زوجي القدرة والإرادة ، وعرفتُ الإرادة ، وكيف تتولد ، ومن أبواها أيضاً .

وهنا نريد أن نعرض لخاصة من خصائص الإرادة ، وهي أنها يمكن أن تورّث ، ولا أقصد الوراثة العضوية ، وإنما الوراثة الاجتماعية ، فالفرد يمكن أن يرث المثل الأعلى من مجتمعه ، كما يمكن للمجتمع أن يغرسه في الأطفال الذين ينشؤون فيه .

إن الْمُثُل العليا التي يعتنقها المجتمع ، ينقلها بوسائله المباشرة وغير المباشرة ، وبطرق الوعي واللاوعي ، إلى الأطفال الذين ينشؤون فيه ، ولا يمكن لمجتمع أن يصير مجتمعاً إلا بإرادة ، ولا إرادة إلا بمثل أعلى كائناً ما كان هذا المثل الأعلى ، فهو نجم القطب الذي تتوجه إليه الإرادة . والأطفال ينشؤون وهم يقدسون هذه المثل العليا قبل أن يعرفوا قيمتها وصحتها ، وإنما تتعلق إرادتهم بها عن طريق الوراثة الاجتماعية . وكل المجتمعات تلقّن أفرادها مثلها العليا ، وإلا لَمَا أمكن أن يعيش الأفراد في هذه المجتمعات ، ولما شعروا بالغربة حين يبتعدون عنها .

ومع أن الإرادة تنتقل بالوراثة ، فإنها قابلة للتغيير ، إذ يمكن للمجتمعات والأفراد أن تغير إرادتها ، وإن كان هذا التغيير صعباً ، ولكن ليس هناك صعب مطلق ، وإنما هناك سنن إن سُلكت أنتجت ، وهذه السنن هي التي تغير الأفراد كما يشهد بذلك تاريخ البشرية . وعلى البشر أن يعرفوا سنن التغيير ، وأن يعرفوا الحق من الباطل فيغيروا وضعهم إلى الحق ، أي أن في إمكان البشر أن يجعلوا الإرادة الحقة ميراثاً ، وهذا الذي قصدناه من أن الإرادة تنتقل بالوراثة الاجتماعية ، أي تصير في مرحلة ما تنتقل عند معظم الناس بالوراثة الاجتماعية ، إلا أن الذي يجعل هذه الوراثة إيجابية وليست سلبية

وجود العدد الكافي في المجتمع من الذين يعون هذه القضية وعياً دقيقاً بحيث يشرفون على إجراء عمليات التصحيح والمراقبة الدقيقة .

وربما يرجع تخلف المسلمين إلى فقدهم أداء هذه الوظيفة ، لأن ما ينتقل بالوراثة الاجتماعية دون وعي ومراقبة ، قابل لأن يفسد ويضيع بدون وعي أيضاً ، كما حدث في العالم الإسلامي .

والوراثة الاجتماعية أوضح في الإرادات منها في القدرات ، لأن الفرد يرث من المجتمع مقدساته وإرادته ، ولا يرث قدرات المجتمع ، فإن المهندس لا يصير مهندساً ، وابن الطبيب لا يصير طبيباً إلا بالدراسة .

أقول هذا لأنه الأغلب ، وإن كانت كل من القدرات والإرادات تتدخل فيها عوامل الوراثة الاجتماعية والجهود الواعية الشخصية ، إلا أن الوراثة في المثل الأعلى أكثر ، والجهد الواعي في القدرات أظهر .

ب ـ مستوى الإرادة :

وهناك ملحوظة أخرى في مستوى الإرادات : لقد بحثت الإرادة في نشأتها ، وكيف أنها وظيفة جهاز التمييز عند الإنسان ، فالإنسان يريد الأكل والشرب والنكاح وسائر حاجاته .. فهل تسمى هذه الأشياء إرادات ؟ أم أن الإرادة شيء آخر أسمى من هذه الأشياء ؟

قد يكون هذا الموضوع هاماً ، ذلك أن الإرادة قد نراها في عمل

مثل تناول القلم ، فلا أمد يدي إلا إذا أردت شيئاً ـ فهذا مراد ـ ولكن هناك مرادات أخرى سامية يجود الإنسان بنفسه في سبيلها ، وتكون بمثابة نجم القطب في توجيه كل المرادات الأخرى وفقها .

فهناك إذاً مستويات للإرادة :

١ ـ الإنسان يريد الغذاء ليبقي ذاته أو جسمه .
٢ ـ الإنسان يريد النكاح ليبقي نوعه .
٣ ـ الإنسان يريد العقيدة والفهم (المثل الأعلى) ليرتقي بنوعه .

إن إرادة الغذاء والنكاح فطرة في الإنسان ، إلا أن إرادة العقيدة ليست بهذا الوضوح ... صحيح أن الإنسان حيوان اجتماعي بالطبع وعنده إرادة للعيش في مجتمع ... ولكن كما أن للغذاء سنناً ليعطي الجسم السليم ، كذلك للنكاح سنن ليعطي النسل السليم ، وللعقيدة أيضاً سنن لتعطي المجتمع السليم .

فقد يريد الإنسان الطعام والنكاح ... ولكن ليس هذا الذي نبحثه هنا في الإرادة ، وإن كانت هذه الأمور مرادة أيضاً ، وإنما نبحث إرادة المثل الأعلى ، إرادة الدين ، إرادة العقيدة التي ارتفعت في الإسلام ابتغاء وجه الله وحده :

« فمن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه ، ومن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله »[1] .

فهنا أنواع من الإرادات المختلفة ، ولكن الإرادة المقبولة في الإسلام نوع معين من الإرادة ، هي التي تعطي قيمة عليا للإنسان ، تخرجه عن إرادات الحيوان الذي يريد الغذاء والنكاح . ولكن الإنسان يخضع هذه الإرادات لإرادته ، ابتغاء وجه الله ، ولهذا فإن الجهاد والبذل المقبول عند الله هو : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو سبيل الله عز وجل »[2] ، ولهذا قلت أيضاً إنه يمكن أن يتعلق الإنسان بمثل أعلى سيء ، ونسميه مثلاً أعلى ، لأنه أعلى شيء عند صاحبه ، وإن لم يكن في حدّ ذاته أعلى ، لأن الإسلام حدد للمسلم مثله الأعلى . والمسلم يريد الطعام والنكاح ، حتى أنه لو ترك الطعام حتى يموت لكان منتحراً ، ولكن لا يجوز أن يجعل الطعام مثله الأعلى ، بل يطلبه طلب وجوب أو طلب استحباب كما أمر الله تعالى . كما أنه يمكن اتخاذ أنواع من المثل العليا مثل العشيرة والوطن والقوم ... وكلّ هذه

---

(١) صحيح البخاري ، الحديث الأول .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب العلم .

حدَّ الله لها حدودها ، مبيّناً كيفية التعامل معها ، وأنه من خرج عن هذه الحدود يكون قد خرج عن حدود الله ، مثل من خرج من النكاح إلى السفاح .

إذن فهناك إرادات فاسدة ، كالروائح النتنة ، لهذا قال رسول الله ﷺ لمّا رأى بعض قومه يدعون بدعوى الجاهلية : يالآل فلان . قال لهم : « دعوها فإنها منتنة »[1] .

فالإرادات الصحيحة التي تلائم تقدّم الإنسان وكرامته ، هي ما شرعها الله تعالى ، وهي دين الفطرة التي إذا عُرضت على الفطرة البشرية السليمة تقبلها وتفضلها على غيرها ، ما لم تكن الفطرة قد فسدت ، وحتى إذا فسدت الفطرة ، فيمكن استخلاص كثير منها بعرض الإرادات والمثل العليا الراقية عليها . وبهذا انتشرت الأديان والأفكار الصحيحة بين الناس .

والإرادة المقصودة التي تعطى للمجتمع حتى يتحرك ، ليست إرادة الأمور العادية ، وإنما إرادة المثل الأعلى ، وهو المرجع لتنظيم الحياة وتحديد علاقات الإنسان مع الكون والإنسان ، وهو مصدر التشريع وهذا معنى التوحيد في الدين أي ابتغاء وجه الله وحده ، أي مصدر الإرادة ومبعثها الله وحده ، وهذا مدلول وحدانية الله . وباصطلاح

(١) صحيح البخاري ، تفسير سورة المنافقون .

ابن تيمية : أن لا نعبد إلا الله ، ولا نعبده إلا بما شرع ؛ وهذا معنى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

ومن خصائص الإرادة أنها : تتولد دفعة واحدة ، وحين نقول هذا : فقولنا ليس إنكاراً لإمكان نشوء الإرادة شيئاً فشيئاً . ولكن لما ننظر إلى ما يحدث غالباً ، نجد أن الإنسان الذي يحول إرادته من دين إلى دين آخر يحدث عنده انقلاب فجائي في كل جوانب حياته ، تتحول إرادته كلها من شيء إلى شيء آخر ، ولكن القدرات لا تتحول بهذه السرعة .

قد يغير الإنسان إرادته من دين إلى دين آخر ، كما كان يحدث في الجاهلية ، يكون الرجل كافراً في الصباح فيؤمن ، فيكون من أشد المؤمنين إيماناً في المساء ، ولكن القدرات لا تتحول بهذه السرعة . فالطبيب لا يمكن أن يتحول إلى مهندس - كما يتحول الكافر إلى مؤمن وبالعكس - في يوم واحد ، وكذلك تحول الإنسان من كافر إلى مؤمن في يوم واحد لا يجعله فقيهاً بأحكام هذا الدين ، وإنما يتعلمه بعد ذلك بالمعاناة الطويلة . والعالم الإسلامي الآن يعجب بشدة الإيمان الذي يظهر دفعة واحدة ، ولا يهتم بالجهود المتصلة التي ينبغي أن يبذلها هذا الإنسان ليكون إيمانه منتجاً ، فيُقْصر تقويه للشخص في جانب الإيمان دون مراعاة جانب الكفاءة .

جـ ـ الإرادة يمكن أن تقوَّم وتقاس :

إن مقياس الإرادة ، بذل النفس والمال . فإذا صار لدى الإنسان استعداد لبذل نفسه وماله في سبيل قضية ما ، فقد بلغ أرقى مستوى في الإرادة :

﴿ إنَّمَا الْمُؤمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات ١٥/٤٩] ، ﴿ إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [التوبة ١١١/٩] .

لهذا فالجبن والبخل عدوا الإرادة ، الجبن عن الجهاد بالنفس ، والبخل في إنفاق المال ، كما أن الشجاعة والكرم هما المظهران الفطريان للإرادة .

ومن هذا المقياس ، يتبين لنا أن الإرادة التي نبحثها هي : إرادة المثل الأعلى ، وليس بحثنا في الإرادات الصغيرة ، وإنما في الإرادة العامة الشاملة التي تُبْذَل النفس والمال لها ، وهي فوق النفس والمال ، ولا عبرة بالإرادة التي لا يبذل لها المال والنفس ، فإذا تحولت الإرادة من شيء يبذل له المال والنفس إلى إرادة النفس والمال ، فَقَدَ الإنسان أسمى ما فيه ، ومع ذلك قد يفقد الإنسان هذا كثيراً ، ويصير المال

والنفس مثلاً أعلى ، فيذل نفسه لإبقاء نفسه : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ [البقرة ٢/٩٦] ، ويذل نفسه لإبقاء ماله و ... ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ، وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ، أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [التوبة ٩/٢٤] .

والأمم التي تجعل إرادتها الرفاهية وزيادة الدخل والمحافظة على الحياة الحيوانية فقط ، لا يعتبر القرآن إرادتها إرادة صحيحة . فوضع الخطط الخمسية والعشرية لمضاعفة الدخل ليس هو المثل الأعلى عند المسلم طالما أن هذا لا يحقق إنسانية الإنسان .

﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ ... ﴾ [سبأ ٣٤/٣٧] .

ولا يعني ذلك الحط من قيمة الاقتصاد والتمتع بنعم الله ، فالبحث هنا في المكانة التي نعطيها للاقتصاد بالنسبة إلى أثره الأخلاقي ، وإن كان هذا العصر عصر بروز أهمية الاقتصاد ، إلا أن المبدأ الذي ينظر إلى المستقبل البعيد ، لا يجعل محطته عند الاقتصاد ، لأن موضوع الاقتصاد يقف بالإنسان عند بقاء نوعه ، ولا يتوجه به آلياً إلى رفع

قيمة نوعه ، إذ قد يمكن للتقدم التكنولوجي أن يوصل المجتمع الإنساني إلى الرفاهية ، ولكن لا يوصله آلياً إلى رفع مستوى إنسانيته . ولذلك فإن الإسلام لا يعتبر للمال قيمة إلا بمقدار ما يحقق من إنسانية الإنسان :

« نعم المال الصالح للمرء الصالح »[1] ، ﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ ﴾ [النساء ٤/٥] ، ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ [الأعراف ٧/٣٢] .

وتتجلى النظرة الواعية إلى المال من خلال دوره في إفساد الأمم وإهلاكها ، في قول الرسول ﷺ :

« فوالله ما الفقر أخشى عليكم .. ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم »[2] .

ولا يزال هذا العصر محكوماً بالوضع الذي كان الإنسان يخاف فيه من الجوع لعدم كفاءته التسخيرية ، ومع أن الإنسان قد رفع من كفاءته التسخيرية بما يخرجه من عصر الخوف من الجوع ، إلا أنه لا زال

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، جـ٤ ، ص١٩٧

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، الطبعة المنيرية ، جـ٥ ، ص٢٠٠

محكوماً بمواريثه السابقة ، وقد صار معروفا أن ما يشكو منه الإنسان في هذا العصر من خَصَاصَة ، ليس منشأه عدمُ إمكانية إنتاج الغذاء الكافي ، وإنما العجز الأخلاقي في التوزيع العادل ، فلهذا مع نجاحه في الخطط الاقتصادية ، فهو لم يخطر في باله إمكانية وضع خطط أخلاقية .

والنقص في الغذاء في العالم لا يرجع إلى القدرات بل إلى الإرادات . ولرفع مستوى الإرادات حتى تتكافأ مع القدرات أو بالعكس فلا بد من تضحيات ، لهذا أعطاه الله القدرة على تحقيق فطرة التضحية ، أي قبول الاستغناء عن الحياة حينما يُحال بينه وبين المثل الأعلى الذي يرقّي نوعه ، أو ينزل بكرامته المستحقة . ومهما كانت قدرة التضحية والفداء مهملة أو غامضة ، فإنه يأتي عليها حين من الدهر تشع لتملأ الكون جلالاً وجمالاً . بمعنى أن الإنسان كما عنده ميل بالفطرة إلى المثل الأعلى ، كذلك عنده بالفطرة أيضاً ميل إلى أن يضحي بنفسه وماله في سبيل هذا المثل الأعلى ، بل إن الميل إلى التضحية في سبيل المثل الأعلى أمر فطري راسخ في الإنسان ومطبوع في أعماقه وجزءٌ من وجوده ، وما تعظيم الشجاعة عند البشر إلا تقدير لقيمة القدرة على التضحية وهذا أمر خاص في الإنسان ليس عند سائر الحيوان ، وينبغي أن يدقق البحث في فطرة الإنسان التي تحمل

خاصية التضحية ، وهي خاصية عجيبة بل هي فوق الأشياء التي نعرفها في سائر المخلوقات .

فلِعُلوّ ما يمكن أن تتعلق به إرادة الإنسان أعطي القدرة على التضحية في سبيل تحقيق المثل الأعلى ، وسمي هذا بالجهاد ، وبأفضل الأعمال ، ولهذا يقدَّس البشر الذين يضحون في سبيل المثل العليا . ولما كان هذا السلاح العجيب مخصصاً لرفع كرامة الإنسان ، فلا يجوز استعماله إلا للمثل الأعلى الحق ، لهذا من استخدم السلاح في سبيل الدفاع عن مثل أعلى باطل فهو في النار ، و « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عزّ وجلّ »[1] ، وغير ذلك ميتات جاهلية لا يجوز التضحية من أجلها ، وكذلك الانتحار كالقتال في سبيل الباطل ، لأن الإنسان وإن استخدم إمكانية مقدسة عنده ، إلا أنه استخدمها في غير طريق الحق حين أهدرها بنفسه ، بينما كان من الممكن وضع الثمن في ميزان يثقل فيه الخير ، ويقل الشر ، وإن المنتحر أحرق هذه القيمة الكبرى خارج الكفاح مع الباطل ، لهذا يكون من فَقَدَ حياته في غير الحق قد خسر نفسه كما يسميه القرآن الكريم ، وهذا موضوع دقيق في حاجة إلى تجلية وتوضيح ، ولم يتم لي

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب العلم .

ما أريده تماماً ، وإنما هو فتح لباب من أبواب فهم أسرار سلوك الإنسان ، وما أعطي من إرادات وإمكانات لتحقيق هذه الإرادات ، لأن هذه القدرات الكامنة في الإنسان يمكن أن لا تستثار ، فتظل راكدة غير متحركة كما في الأمم التي تنزل عليها الذلة والمسكنة حين تفسد فطرتها ، فيصير أبناؤها يحبون الحياة كما قال الله تعالى فيهم :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ، وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ﴾ [البقرة ٢/٩٦] .

وقد تثار فطرة التضحية من أجل مثل أعلى باطل ، كما فعلت ألمانيا واليابان في الحرب العالمية الثانية ، وكما فعلت جميع الأمم التي آمنت بفكرة التفوق العنصري ، فأثارت روح التضحية في شعوبها من أجل العلوّ والاستكبار في الأرض . وقد لا تستخدم فطرة التضحية فتبقى خامدة كما هو شأن المستضعفين في الأرض اليوم الذين فسدت فطرهم وفقدوا روح التضحية .

ولهذا يدين القرآن هذين الصنفين من الناس ، فيسمي الأول بالمستكبرين والآخر بالمستضعفين :

﴿ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟

قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ .. ﴾ [النساء ٩٧/٤] .

ويعتبر الإسلام ميتة هذين الصنفين جاهلية ، بينما يعتبر من ضحّى لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .

د ـ لوم فاقد الإرادة :

كذلك من خصائص الإرادة أن يلام فاقدها دون أن يلام من يفقد القدرة ، إذ يعذر من يفقد القدرة ، ولا يعذر من يفقد الإرادة إلا في حالات سنبيّنها .

إن الكافر والمنافق يفقدان الإرادة ـ إرادة المثل الأعلى ـ فالكافر لا يريد الإيمان ، ويعلن عدم إرادته . والمنافق يظهر أنه يريد الإيمان وهو لا يريده .

لهذا نجد القرآن الكريم يتهم الذين فقدوا الإرادة ، ويعذر الذين فقدوا القدرة ، ويذكرهم بخير إذا وجدت الإرادة فيهم ، فيقول عن الذين فقدوا الإرادة :

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ [التوبة : ٤٦/٩] .

فهؤلاء نفى الله عنهم الإرادة بل أدانهم في إرادتهم ، كما قال تعالى :

﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ [الانفطار ٨٢/٩] .

وهنا نفى عنهم الإيمان بالدين وهو يتضمن نفي الإرادة عنهم .

ولكن نجد القرآن يعذر أصحاب الإرادات الذين يفقدون القدرات :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ، إِذَا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة ٩/٩١] .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيؤذَنَ لَهُمْ ، وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة ٩/٩٠] .

وهذه الآية تتحدث عن الذين فقدوا الإرادة ، وكيف يدانون . وتتابع الآية الحديث عن الذين فقدوا القدرات :

﴿ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ : لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ، تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ، وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة ٩/٩٣] .

إن الضعفـاء والمرضئ والفقراء .. ليس إلى لـومهم من سـبيـل إذا كانت إرادتهم صـادقـة ، أي إذا نصحوا لله ورسولـه ، فهؤلاء هم محسنون في إرادتهم ، ويتمنـون الجهـاد بـأنفسهم ، لهـذا تجـدهم يبكـون وتفيض أعينهم من الدمع ... إن عبارة (تفيض من الدمع) تدل دلالة واضحـة على صـدق إرادتهم ، إذ يبكـون أسفـاً لأنهم عـاجـزون عن الخروج ، وإرادتهم صـادقـة ، وكتب لهم الأجر ، كأنهم خرجوا مع الرسول ﷺ ، ولهذا قال عنهم رسول الله ﷺ : « إن بالمدينة أقواماً مـا قطعتم واديـاً ولا سرتم سيراً إلا وهم معكم . قـالـوا : وهم بـالمـديـنـة ؟! قـال : نعم ، حبسهم العذر »[1] .

إذن متى يعذر فاقد الإرادة ؟

قلت عندما تحدثت عن أبوي الإرادة : إنهما عقل الإنسـان والمثل الأعلى ، وقد عرفنا أن العمل لا يوجد إلا إذا وجدت القدرة والإرادة ، كـذلـك لا توجـد الإرادة إلا إذا وجـد العقل والمثل الأعلى ، فـإن فُقـد أحدهما تُفقد الإرادة .

إن الـذي فَقَـدَ العقل معـذور ، وكما يقولون : إذا أخـذ مـاوهب أسقـط مـاأوجب . أمـا المثل الأعلى فهو بـالنسبـة إلى العقـل ـ حسب

(١) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد .

الشرح السابق ـ كالرائحة الزكية بالنسبة للأنف . فإذا وُجد الأنف ولم توجد الرائحة الزكية ، لا يحدث الإحساس ولا توجد الإرادة ، وكذلك إذا وجدت الرائحة الزكية ، ولم توجد حاسة الشم لا يحدث الإحساس ولا تحدث الإرادة .

وكذلك الإنسان إن لم يتيسر له أن يرى المثل الأعلى أو يفهمه ، فهو أيضاً غير مؤاخذ لأنه فقَدَ ركناً أصيلاً أو فَقَدَ أحد الزوجين اللذين يتسببان في ولادة الإرادة .

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء ١٧/١٥] .

لأن عدم رؤية المثل الأعلى ، وعدم بلوغ الدين الحق عذر صحيح في فقد الإرادة :

﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة ٢/٢٨٦] .

فالذي لم يبلغه المثل الأعلى ليس مطلوباً منه أن يتمكن من إرادته ، فكيف يريده ... وهو لم يره ؟!

وحين أقول لم يره أريد : لم يره بعقله . وهذا قد يكون أمراً دقيقاً في تحديد : أهو لم ير فعلاً ؟ أم أن درجة رؤيته غير كافية ؟ وهذا كله يرجع إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ، ولكننا نعلم أنه

لا يعامل كالكافر حتى تقوم عليه الحجة ، وحتى تقوم بالبلاغ المبين ، وبعد ذلك نعامله على هذا الأساس فإن الله أعلم بما سيفعل به ، أما نحن فلا ندري هل أخطأنا في تبليغه ، أو بلغناه ما ليس كافياً لهدايته ، فنحن لا نكلف إلا ما نقدر عليه ، وهو لا يكلف إلا ما يقدر عليه . ونحن نؤمن بأن الله ليس بظلام للعبيد :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ ، فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا . وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء ٢١/٤٧] .

إن حاسة الشم ليس من مهمتها خلق الروائح الزكية ، وإنما تنحصر مهمتها في الإحساس بالروائح الزكية إن وجدت . وكذلك العقل ليس مهمته خلق المثل العليا ، ولكن مهمته إدراك أفضلية المثل الأعلى الجيد إن عرض عليه .

ولهذا نطمئن إلى اختيار من قال : إن العقل ليس كافياً لإيجاد المثل الأعلى ، ولكنه كاف في قدرته على اختيار المثل الأعلى الصحيح إذا عرض عليه ، وهذا العرض قد يكون في آيات الكتاب ، أو من آيات الآفاق والأنفس ؛ وهذا هو ما تدل عليه الشريعة .

إن الله تعالى قد قال لآدم حين أهبطه :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة ٢/٣٨] . كما قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء ١٧/١٥] .

ويوم القيامة يقول الله لصنف من الناس :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ؟ ﴾ [الزمر ٣٩/٧١] ، ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ ﴾ [الملك ٦٧/٨] ، ﴿ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ ﴾ [المائدة ٥/١٩] .

وعلى هذا جاء قوله تعالى أيضاً :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصّلت ٤١/٥٣] .

وهذا كله من الدلائل على أن العقل ليس مكلفاً أن يكشف قبل أن يرى ، ولكن عليه أن يميز إن رأى . وقد نختلف في أنه رأى ، أو لم ير ، أو هل ما رآه كاف لأن تثبت به الرؤية الملزمة ؟ وهذا الاختلاف لا يضر ، وليس هذا إهداراً لقيمة العقل ، وإنما هو وضع العقل في مكانه الصحيح .

إن الذي يدرك دور النبوة في رقي إنسانية الإنسان هو المؤرخ

الذي أدرك سير الأحداث ، إذ ليس للعقل البشري أن يخلق الهدى بل يمكنه أن يختار الهدى السليم عندما يعرض عليه .

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ ... ﴾ [البقرة ٣٨/٢] .

فالهدى يتنزل من السماء يبلغه الأنبياء للناس ، وبه ارتقت البشرية إنسانياً إلى الدرجة التي نراها اليوم ، والتي لم تكن مشاهدة عند الإنسان القديم على الرغم من تماثل عقل إنسان اليوم من الناحية الفيزيولوجية مع الإنسان عبر التاريخ .

فعلينا أن ننفذ أمر القرآن فننظر كيف بدأ الخلق ، وكيف صار الإنسان يفهم القيم وكيف كان قبل ذلك ، بل كيف يعجز العقل عن أن يفهم الأمور التي لم يقترب منها ، وكيف كان العقل الإنساني الأول بعيداً عن فهم الكهرباء ؟ ولكن بعد أن فهمها صار نقل هذا الفهم إلى الأطفال الآن سهلاً ، وكذلك كشف المثل العليا الحقة .

وإلى الآن نرى كيف أن البشرية تحبو كالأطفال . وتعجز عن فهم أفضلية الصدق على الكذب ، والعدل على الظلم ، والقانون على الفوضى . قد يكون هناك قانون بين أفراد الدولة الواحدة ، ولكن إلى الآن لم يمكن وضع قانون ملزم بين الأمم ، بل لما يدخل في عقول كثير من الناس إمكانية ذلك .

وبحث هذا الموضوع وإعطاؤه حقه أمر شريف . فمن عرف كيف بدأ الخلق ؟ وكيف مرَّ الإنسان بمنعطفات ؟ وما القوانين التي كانت تسيطر على الإنسان حين مروره منها ؟ وكيف أننا نعيش في عهد ظهرت لكثير من الناس إمكانية بل ضرورة أن يعيش العالم في ظل قانون واحد ومثل أعلى واحد ، وقد توفر ذلك نظرياً منذ نزول قوله تعالى :

﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ [المائدة ٥/٣] .

وكيف أن هنا كان إرهاصاً لعهد عالمي قد يضطر الناس فيه إلى توحيد مثلهم العليا ، ولا يتم هذا إلا بنظرات جديدة . وإن على الأمم جميعاً أن تعمل للتكيف وفق آيات الله في الآفاق وفي الأنفس حتى تتمكن من العيش الأفضل الذي يليق بالإنسان ويليق بالإمكانات الكامنة فيه ، وكما يقول إقبال :

« وفي الحق إن الطريقة التي استعمل بها القرآن لفظ الوحي ، تبين أنه يعتبر الوحي صفة عامة من صفات الوجود ، وإن كانت حقيقته وطبيعته تختلفان باختلاف مراحل التدرج والتطور في الوجود . فالنبات الذي يزكو طليقاً في الفضاء ، والحيوان الذي ينشئ

له تطوره عضواً جديداً ليمكنه من التكيف مع بيئة جديدة ، والإنسان المستلهم للنور من أعماق الوجود ، كل أولئك أحوال من الوحي تختلف في طبيعتها وفقاً لحاجات مستقبل الوحي أو لحاجات نوعه الذي ينتمي إليه . وفي طفولة البشرية تتطور القوة الروحانية إلى ما أسميه (الوعي النبوي) وهو وسيلة للاقتصاد في التفكير الفردي والاختيار الشخصي ، وذلك بتزويد الناس بأحكام واختيارات وأساليب للعمل أعدت من قبل .

ولكن الحياة أخذت بمولد العقل وظهور ملكة النقد والتمحيص تكبت رعاية لمصلحتها ، التكوين والنمو لأحوال المعرفة التي لا تعتمد على العقل ، والتي فاضت القوى الروحانية خلالها في مرحلة مبكرة من مراحل تطور الإنسانية . والإنسان محكوم أساسياً بالعاطفة والغريزة . أما العقل الاستدلالي وهو وحده الذي يجعل الإنسان سيداً لبيئته فأمر كسبي ؛ فإذا حصلناه مرة وجب أن نثبت دعائمه ونشد من أزره ، وذلك بكبت أساليب المعرفة التي لا تعتمد عليه ... فإذا نظرنا إلى الأمر من هذه الزاوية وجدنا أن نبي الإسلام يبدو أنه يقوم بين العالم القديم والعالم الحديث . فهو من العالم القديم باعتبار مصدر رسالته وهو من العالم الحديث باعتبار الروح التي انطوت عليها .

فللحياة في نظره مصادر أخرى للمعرفة تلائم اتجـاههـا الجـديـد . ومولد الإسلام .. هو مولد العقل الاستدلالي .

إن النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء - ختم - النبوة نفسها . وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على مقود يقاد منه وأن الإنسان لكي يحصل كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو .

إن إبطال الإسلام للرهبنة ووراثة الملك ، ومناشدة القرآن للعقل وللتجربة على الـدوام ، وإصراره على أن النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصـادر المعرفـة الإنسـانيـة . كل ذلـك صور مختلفة لفكرة انتهاء - ختم - النبوة .

والحق أن القرآن يعدُّ الأنفس والآفاق مصادر للمعرفة ، فـالـذات الإلهية تريـنـا آيـاتهـا في أنفسنـا وفي العـالم الخـارجي على سواء . ولهذا وجب على الإنسان أن يحكم على كفاية كل نـاحيـة من نواحي التجربـة في إفادة العلم »[1] .

ومما نستنتجه من كلام محمد إقبال :

---

(١) محمد إقبال ، تجديد التفكير الديني في الإسلام ، ص١٤٣-١٤٥ ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٥٥ م .

أن الاعتبار بسير الماضين صار جزءاً حقيقياً من تقدم الإنسان .

نعود إلى عذر الإنسان : متى يعذر الإنسان إذا فقد الإرادة ؟ لا يعذر الإنسان إذا فقد الإرادة مع وجود العقل والمثل الأعلى .. كما لا يعذر إذا لم يشم مع وجود حاسة الشم ووجود الروائح الزكية في دائرة الشم . وهنا موضوع آخر يحسن الإشارة إليه فالله تعالى يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة ٢/٦٢] .

وإننا في الواقع نستطيع أن نقول : إن من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من هؤلاء الطوائف فهو لا خوف عليه ولا هو يحزن ، إن لم يتمكن من رؤية المثل الأعلى . فعلى قدر ما وصل إليه من الرائحة نقدر إرادته .

فكما أنّ على العقل أن يبحث ، كذلك على الباحث أن يقدم ما وصل إليه إلى الآخرين . ولهذا كان التبليغ من الواجبات المقدسة التي لم تعط الأهمية الكافية عند الناس ، مع أن القرآن الكريم قد رفع من شأن البلاغ المبين وجعل كتمان العلم من كبائر الذنوب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ

مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ . أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ ﴾ [البقرة ٢/١٥٩] .

ولن تظهر فائدة الاكتشاف إلا بتعميمها . فالقراءة والكتابة قد كشفهما الناس من آلاف السنين . ولكن محو الأمية لا يزال مشكلة أمام البشر فضلاً عن محو الأمية في الأفكار . فهذه درجة أخرى غير محو أمية القراءة والكتابة ؛ لهذا وصف الله الذين يقرؤون ويكتبون دون أن تتسع مداركهم الفكرية بأنهم لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، أي تلاوة فقط .

ولما كان من فطرة العقل قبول المثل الأعلى إذا عرض عليه ، فقد منع الإسلام الإكراه في الدين :

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ .. ﴾ [البقرة ٢/٢٥٦] .

ولتدارك ما يمكن أن يعرض لهذا الموضوع من شبهات أقول :

إن أكثر المعرضين يعرضون لعدم رؤية المثل الأعلى أصلاً أو لعدم رؤيته بوضوح كاف : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء ٢١/٢٤] .

وهـذا يتصـل بـآخر سـورة الفـاتحـة في تقسيم النـاس إلى : المنعم عليهم ، والمغضوب عليهم ، والضالين . وهم بـالتتـالي : الـذين تبين لهم الحق واتبعوه ، والـذين تبين لهم الحـق ورفضـوه ، والـذين لم يتبين لهم الحق .

فـإذا استطـاع الـذي عرف الطريق أن يبين للضـالين الطريـق الصحيح ، فـإن أكثرهم سيمشون مع الحق ، بل قـد تستغرب أن يتخلف منهم أحـد ، ولكن من إكرام الله للإنسـان أنـه أعطـاه قـدرة على ترك الحق أيضـاً بعـد أن تبين لـه حتى لا يكون مجبراً لا اختيـار لـه في قبول الحق أيضاً .

لهذا أرى أن البلاغ المبين هو أول وأقـوى دعـائم قيـام الحـق على الأرض . فإذا رفعنا الكتمان ، وأقمنـا البلاغ المبين ، صـار لأكثر النـاس القـدرة على ترجيح ميزان الحق . وبمقـدار مـا يؤكـد الله على نشر الحق يقف أهل الباطل في وجـه نشر الحق وبيـانـه للنـاس . كما أرى ضرورة قيام أهل الحق بعملية مسح للبشرية لإيصال المثل الأعلى الحق إليهم :

﴿ لِيَهْلِـكَ مَنْ هَلَـكَ عَنْ بَيِّنَـةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَـةٍ ﴾ [الأنفال ٨/٤٢] .

إن عدم وضوح هذه القضيـة بمـا تستحق من أهميـة ، جعل المسلم

يزهد في واجب البلاغ ولا يصبر في معركته و ينسحب من هذه المعركة ليهيئ نفسه لمعركة أخرى (كتغيير الأوضاع بالعنف) . وهذه هي النقطة التي يبدأ فيها المسلم بدخول التيه وهو يقصد اختصار الطريق ، فيترك طريقاً بينة موصلة ، ليسلك طريقاً لا تعلم نتائجها . وهذا هو ترك السبيل السهلة القليلة التكاليف الكثيرة النتائج والبركات إلى سبيل وعرة كثيرة العقبات قليلة النتائج .

إن الثبات في معركة البلاغ المبين لا يسبب خسائر . وحتى خسائره مرابح ، بينما الطريق التي يظنها الإنسان سهلة قريبة فإنها تؤدي إلى البعد والتيه .

أليس من العجب أن نزعم أن هذا الذي استصعب السير على الطريق السوية السهلة (طريق البلاغ المبين) وانسحب منها استصعاباً لها ، سوف يقدر على السير في الطريق الوعرة المظلمة !! هذا خداع النفس .. إلا أن الموضوع لا يزال غامضاً لم ينل ما يكفي من الوضوح والبيان . فكيف يُصدق من استصعب السير في السهل أنه سوف ينجح في السير في الوعر ؟!

إن معرفة فطرة الإنسان ودين الفطرة وإزالة الحواجز بينهما تجعل الإنسان الفطري يقبل دين الفطرة .

قد يقول المسلم الذي لم ير هذه الحقيقة جيداً : إنه لا يمكنه رفع الحواجز بين فطرة الإنسان ودين الفطرة أو لا يُمكَّن من ذلك ، فلا بد من بذل جهد كبير لكشف هذه النظرات المعيقة لسلوك طريق الحق ولبيان سهولته . هنا نحن في حاجة إلى شيء من التأني لتنبيه المسلم إلى فكرة أخرى في هذا الموضوع وهي قانون من قوانين الله في الكون . ومضمون هذا القانون « عمل المستطاع الآن ، يجعل ما ليس مستطاعاً الآن مستطاعاً في المستقبل » .

ويحتج بعض الناس بقوله تعالى : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة ٢٨٦/٢] ، ويجدون فيها مبرراً للتهرب من المسؤولية ، ولا يفطنون إلى مضمونها من التكليف . فالإنسان إذا ملأ يومه بالعمل بما في وسعه فإن غده سيعطيه وسعاً جديداً وهذا أوضح ما يكون في طلب العلم . إن تعلمك اليوم ما تستطيع تعلمه يمكّنك غداً من فهم ما لم تستطع فهمه اليوم . لأن العلم درجات لا يمكن الوصول إلى فهم فكرة ما إلا بتحصيل التي قبلها . وكما يقال : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فكذلك ما لا يتم العلم إلا به فواجب تعلمه قبل ذلك .

والإنسان يستطيع اليوم أن يفهم العتبة الأولى من العلم ، وهذا يمكنه من طلب العتبة الثانية والثانية تمكن من الثالثة ... وهكذا ... فما هو مستحيل اليوم ينبغي أن لا يبقى مستحيلاً ، وإنما ينبغي أن

يصير مستطاعاً وأن تتجاوزه الاستطاعة ، وهذه القاعدة ينبغي أن نفهمها ، فإذا فهمناها فهمنا مشكلة العالم الإسلامي القاعد وعليه الآصار والأغلال ، يردد أغنية العجز الخالدة « ما يطلع بأيدينا شيء » . وهذا حاجز سحري شل المسلم ومنعه من تأدية عمله المستطاع ، وإن رفع هذا الحاجز يجعله إنساناً سوياً يمارس عمله بشكل ينميه[1] .

وحين يقول : « ما يطلع بيدي شيء » فهو صادق وكاذب في آن واحد ، فهو صادق لأنه يرى عجزه عن أمور لا قدرة له عليها . فهو فعلاً لا يستطيع ما يريده ، ولكن الذي يكذب فيه ليس كذباً في الواقع ، لأنه جهل الارتباط الموجود بين ما يستطيع عمله وبين ما يعجز عنه ، وأنه إذا فعل ما يستطيعه اليوم يصير غداً مستطيعاً لما لم يكن يستطيعه ...

والآن .. أقول : يعذر فاقد الإرادة إن لم يحدث لديه اتصال بين العقل والمثل الأعلى ، وبما أن المثل الأعلى والعقل موجودان فينبغي أن

---

(١) والذين يقرؤون لمالك بن نبي ، يعرفون مصطلح (القابلية للاستعمار) الذي ضمنه في كثير من بحوثه ، وهو حينما يبحث مشكلة العالم الإسلامي يذكر الاستعمار والقابلية للاستعمار ويعطي الثقل للقابلية للاستعمار حين يفسر سبب تخلف العالم الإسلامي .

نقوم بعملية الوصل أو رفع الحاجز بين الزوجين اللذين يلدان الإرادة ، ويتم ذلك بالبلاغ المبين وعدم كتمان الحق وهو ما يستطيعه كل أحد في مستواه ، ولا يكون الجمع بين العقل والمثل الأعلى بالإكراه ، لأنه لا إكراه في الدين ، كما لا إكراه في الزواج ، كذلك لا إكراه في الحكم . وإن جهلنا لطبيعة هذه العلاقة أدى بنا إلى التطلع إلى علاقات غير سوية وغير مشروعة مثل الاغتصاب والاغتصاب سفاح وليس نكاحاً .

والذين يمارسون هذا الأسلوب هم الذين لا يسيرون في الطريق السوية وهم المرفوضون كشركاء في العقد الاجتماعي ، وإنه لمخجل حقاً أن نقع في مثل هذا .

وإذا طبقنا هذا على قاعدتنا التي تقول : « عمل ما نستطيعه الآن يوصلنا إلى ما لم نكن نستطيعه » فإننا نقول : إننا لم نقبل أن نعمل ما نستطيع عمله . ولما رفضنا عمل ما نستطيعه رفض أن يدخل بيتنا ما لا نستطيعه ، وإن كنا نريده . وكان الطريق الصحيح لجعل غير الممكن ممكناً ، هو عمل الممكن اليوم ليدخل إلى دائرة إمكانياتنا غير الممكن ، وهو لا يدخل إلا إذا أنجز الممكن الذي لم نفعله بعد .

بحثنا أهمية البلاغ المبين في عملية الزواج بين العقل والمثل الأعلى

لنحصل على مولود الإرادة التي سنحتاج إليها في عملية زواج أخرى مع القدرة لولادة العمل الصالح الناجح والمقبول .

فإذا عرفنا العلاقة الفطرية بين العقل والمثل الأعلى تبرز أهمية البلاغ المبين ؛ فنعرف لماذا : ﴿ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ واشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ [آل عمران ١٨٧/٣] .

إن عدم قيامنا بمهمة البلاغ المبين يمثل تماماً زهدنا وعدم تقديرنا لقيمة البيان وعدم الكتمان ، وأننا لا نقومه إلا بثمن قليل نبيعه ونتنازل عنه بأتفه الأثمان !! وكم نحن عاجزون أن نرفع من أهمية البلاغ إلى المقام الجليل الذي وضعه الله فيه حين قال :

﴿ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة ٦٧/٥] .

وليست العصمة للمبلغ فقط ، وإنما هي عصمة للدعوة وللجماعة .

فالتزام التبليغ حماية للدعوة وعصمة لها من الانحراف والمطاردات والتهم ، وما أشد واقعية كلمة (يعصمك من الناس) .

إن البلاغ فيه عصمة المبلغ أيضاً إذا فطنا إليه .. لكننا زهدنا

فيه ، وتطلعنا إلى شيء آخر رفعناه إلى مقام أعلى من مقام البلاغ . وهذا ما سبق أن بينته في كتابي (مذهب ابن آدم الأول . أو : مشكلة العنف في العمل الإسلامي) .

إن سفينة النجاة عند الغرق في طوفان الفوضى هي البلاغ المبين ..

﴿ قُلْ إنّي لَنْ يُجيرَني مِنَ اللهِ أحَدٌ ، وَلَنْ أجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً إلاّ بَلاَغاً مِنَ اللهِ وَرِسَالاتِهِ .. ﴾ [الجن ٧٢/٢٣] .

ولن تجد إلا البلاغ ملجأ تلجأ إليه ويعصمك من الناس ، ويجعل لك القوة والمناعة والقدرة على شق الصخر بهذا الطرف اللين الذي تحمله على رأس جذورك كما تفعل جذور النباتات في شقها الصخر . وإن كلماتك ستتغلغل في الأعماق ، ولن تجد من دونه ملتحداً إلا بلاغ كلمات الله ورسالاته .. وفي هذا كلمة عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما : « الزم العدل .. فإنه وإن رؤي ليناً أقمع للباطل » .

وشرط نجاح البلاغ المبين أن لا يلجأ صاحبه إلى امتشاق الحسام لفرضه بالقوة .

أما ما يهدد الله به كاتمي ما أنزل من البينات ، فلا نجد تهديداً مثله حتى ولا لتارك الصلاة ..

﴿ إنَّ الّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أنْزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى مِنْ بَعْدِ

مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا . فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة ٢/١٥٩-١٦٠] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً . أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ . وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ! ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ .. ﴾ [البقرة ٢/١٧٤-١٧٦] .

والكتمان هو : عدم إيصال الخبر ، والثمن القليل : أن لا نقدر أهمية هذا الشيء ، والنتيجة نار في البطون في اليوم الآخر ، وشراء الضلالة بالهدى في الدنيا . وإنه لعجب من صبرهم على النتائج النارية في الدنيا والآخرة من جراء الكتمان .

وبمقدار ما يُحذِّر الله مِنَ الكتمان ، ويهول من نتائجه في الدنيا والآخرة ، يمكن أن نرى نتائج البلاغ المبين ..

إن هذا الموضوع ينتظر من يوضحه من الذين كشفوا فطرة الإنسان والمثل الأعلى وعرفوا ماسينتج من ذرية - نتائج - طيبة من العمل الصالح . وإن الذين يفهمون تاريخ البشرية يعرفون أن

الأعمال العظيمة كانت نتيجة التزاوج الكريم بين العقل والمثل الأعلى بوساطة البلاغ المبين : إن هؤلاء سيقرؤون الآيات السابقة و يفهمونها فهماً جديداً .

وهنا أرجو أن يتأمل المسلم حواليه ليرى نتائج الأحداث المؤلمة من جراء سلوك الطرق الملتوية ، وكيف أن هذه النتائج تدعو إلى الغثيان والتقزز . والذي أرجوه أيضاً أن يتمكن المسلم من فهم أن سلوكه هذه الطرق غير السوية سوف لا ينتج له إلا ما أنتجه الذين سلكوا قبله هذه الطرق . والمثل الأكثر صدقاً : أن من لا يعتبر ، يقع فيما وقع فيه من قبله .. وأرجو الله أن يحمي المسلمين من الزلل .

بحثنا فيما سبق عن أبوي الإرادة ، وقلنا : إنهما المثل الأعلى والعقل ، ولكن من أين يأتي المثل الأعلى والعقل ؟

يمكن القول : إن العقل مرتبط بالمادة بطريقة لم يتوصل العلم إليها بعد ، وهذا ليس أمراً مهماً ، بل المهم أن نجعل العقل يؤدي وظيفته على أتمّ شكل .. فنحن لا نعلم كيف ؟ ولا متى بدأ نفخ الفكر في المادة ؟

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ . وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. ﴾ [السّجدة ٩/٣٢] .

ولكننا نعلم أن من فطرة[1] العقل إدراك العلاقة بين شيئين، وحينما نخرج من المادة والفكر لا يبقى عندنا - على اعتبار أننا مسلمون - إلا (الله) الذي ليس كمثله شيء ، الواحد الأحد الذي ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص ١١٢/٣-٤] .

لهذا يتوجه الفكر إلى المخلوق لأن له نظائر وأمثالاً ، وبإدراك العلائق بينهما يكشف العقل سنن الأشياء . ويتوجه الذكر للخالق ، لأن الفكر لا يعمل فيما لا مثيل له ، إذ الفكر كله مقارنات الأشباه بالنظائر وهذا لا يتم إلا في المخلوق . أما الذكر فهو شكر وحمد على النعم ، وتقديس وتنزيه للخالق ، بينما المخلوقات مسخرات على سنن يعمل الفكر فيها .

وهنا نعرض للخصائص التي نكشفها ولا نخلقها ، سواء خصائص المادة أو خصائص العقل ، فمن خصائص العقل : الفكر والذّكر . الفكر في المخلوقات لتسخيرها ، والذّكر للخالق لشكره . وهذه الخصائص لم نصنعها نحن ، ولكن نكشفها ، والإنسان العاقل لا يستوي أمره إلا إذا وضع الكون موضع التسخير ، ووقف من الله موقف العبادة وتعامل مع الناس بالعدل والإحسان . فلا يجوز أن نضع

(١) يمكن استخدام كلمة (الفطرة) لصفات الإنسان . واستخدام كلمة (طبيعة) لصفات المادة .

الكون مكان الله ولا أن ننزل بالله إلى مرتبـة الكائنـات .. ولا أن يظلم بعضنا بعضاً . وما معنى لا يجوز ؟

معناه : لا يتم ولا يضيء مصباح الإنسـان إلا إذا عبـد الله وسخر الكون ، وعـدل مع النـاس . فلا يتكبر على الله ، ولا يتعبـد للكون ، ولا يتظالم مع البشر ... وإلاّ نزل به العقاب الصارم .

ويتحدث الكسيس كارل عن هذا في كتابه (تـأملات في سلوك الإنسان) أو (الحضارة الحديثة في الميزان) .

مع ملاحظـة أنـه يضع قـانون الطبيعـة بـدل مصطلـح سنـة الله ويقول ...

« القوانين الطبيعية عامة وصارمة .. لا يستطيع أحد أن يعصيها ثم ينجو من العقاب في أي بلد وهي لا تنذر من يخالفها . والعقاب هنـا صامت صمت الأمر نفسه »[1] .

« والأخلاق الدينية تفرض قواعد لا تختلف في شيء عن القواعـد التي أرادتها الحيـاة نفسها . لـذلـك يجب اعتبـار التحرر من كل نظـام أخلاقي مسـاويـاً لعصيـان القـوانين الطبيعيـة ، وقـد ردت الحيـاة ـ كما

(١) الكسيس كارل ، ترجمة محمد القصاص ، تأملات في سلوك الإنسان ، ص ٢٣ ، القاهرة ، مكتبة مصر .

نعرف ـ على هذا العصيان بابتعادها عنا ، وكان ردها صامتاً وقاسياً في آن واحد وقد شعر ذوو البصيرة بالخطر » .

« والأمم والأجناس التي لم تعرف كيف تميز بين الحلال والحرام تتحطم في الكوارث والتحلل والموت . وهذا عقاب آلي بحت ، فإن الفناء مصير أولئك الذين ينتهكون القوانين الطبيعية ..

وهذا الرد المحتوم من جانب الحياة على أخطاء الإنسان يفسر ما نحن فيه من ضروب الشقاء : فمرض الحضارة ومرض الحرب العالمية نتيجتان حتميتان لانتهاك حرمة القوانين الطبيعية ، إذ لا يستطيع كائن ما أن يمنع الحياة من متابعة اتجاهاتها الجوهرية دون أن يحل به العقاب » ، كما يقول : « ... وحب الأم قصير الأجل لدى الكلاب ، وأطول منه بكثير لدى القردة ، أما عند الإنسان فإنه لا ينقطع قط ، وذلك لأن صغير الإنسان في حاجة إلى أن يُحَبّ . والأم في حاجة إلى تُحبّ .. ولا شك في أن الأبوين اللذين ينجحان في تربية أطفال صالحين ، يشعران في نهاية حياتهما أنهما أدّيا رسالتهما على الوجه الأكمل مهما كانت مدة حياتهما وصغر شأنهما . وهما يشعران في مرض شيخوختهما أنهما قد كوفئا بالبهجة والهدوء اللذين تكافئ بهما الطبيعة كل من أطاعها تمام الطاعة »[1] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٨

« الأمومة رسالة المرأة الطبيعية ، وهي رسالة لاتستطيع التخلي عنهـا دون الـوقـوع في خطر .. إذ إن الخلـل العصبي والعقلي هـو الثمن الذي يتحتم عليها دفعـه إذا حـالت ظروف الحيـاة أو إرادتهـا الخـاصـة بينها وبين أدائها لوظيفة الأمومة .. »[1] .

إن قوانين الإيمان وأوامر الشريعة ونواهيهـا مثل قوانين الفيزيـاء والكيمياء ، ليس لنـا من الحريـة أن نخـالفهـا إلا كما لنـا من الحريـة أن نقـذف بـأنفسنـا من علو مئـة متر .. متحـدين القـوانين الفيزيـائيـة ، أو شرب السم متحدين القوانين الكيميائية ..

نحن نستطيع أن نفعل هـذا . وتستطيع الأم منع نفسهـا من أداء وظيفـة الأمومـة ، ويستطيع الولـد عقوق الـوالـدين ، وانتهـاك سـائر حرمات الله . ولكن بعـد ذلـك لا يبقى لنـا من الحريـة في منع نتـائج هذه المخالفات ، إلا كما يبقى لنا من الحرية في منع نتـائج السقوط بعـد أن نقذف بأنفسنا من علو شاهق . وهذا ما جعل كارل يقول عن صرامة قـانون الحيـاة : « إذ لا يستطيـع كائن مـا أن يمنـع الحيـاة من متـابعـة اتجاهاتها الجوهرية دون أن يحل به العقاب »[2] .

---

(١) المصدر السـابق ، ص ٥٩

(٢) المصدر السـابق ، ص ٦٠

ولكل الذين يريدون أن يروا هـذه الآيـات في الآفـاق والأنفس القدرة على رؤيتهـا بـالقوة نفسهـا وبـالتفـاوت نفسـه في رؤيـة قوانين الفيزياء والكيمياء .. فلقد كانت قوانين الكيميـاء غـامضـة كالسحر عنـد الناس يوماً ما . ولكنها صارت دقيقة وواضحة .

إن قوانين الأخلاق قد تبدو غـامضـة لنـا اليوم في بعض أجزائها ولكنهـا قـوانين ثـابتـة وصحيحـة . فقـانـون : (أن يحب المرء لأخيـه مـا يحب لنفسـه) ، وقـانـون (الامتنـاع عن الغيبـة والنميـة والحسـد) قوانين أخلاقية اجتماعية ، كقانون (تأكسد الحديد وفسـاده) في مجال الطبيعة .

٤ ـ الإرادة روح الأمة :

يقول عليـه الصلاة والسلام : « ترى المؤمنين في تراحمهم وتـوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سـائر جسـده بـالسهر والحمى »[1] .

وفي هذا الحديث تشبيه الأمة بالجسد في الترابط والسهر والشعور بالألم أو عدم نومها إذا كان أحد أعضائها مصـابـاً .. علينـا أن نـدقق في المشبه والمشبه به : مـا الـذي يجعل الجسـد يتـداعى إذا اشتكى عضواً من

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأدب .

أعضائه ؟ هذه دراسة حيوية فطرية للجسد الحي ، إذ للحفاظ على كيانه وجد له الألم في المكان المصاب بالخلل ووجد له ناقل الألم من العضو المصاب إلى مركز الفهم في الكائن الحي ، والكائن الحي يقوم بالفطرة بأعمال داخل الجسم للقضاء على هذا الخلل الذي طرأ عليه . والطبيب يتدخل ليساعد الجسم في القيام بعمله الفطري ، فإن سائر الأعضاء تقوم بمهمات خاصة للحالة الطارئة ، فتستنفر الجسم كله للسهر على حلّ مشكلة الحمى . وحين يفقد هذه الوظيفة يبدأ نزول الموت البارد به . ويبدأ في التفسخ وفي العودة إلى عناصره الأولى من التراب شيئاً فشيئاً .

لماذا يدق القلب ؟ ولماذا يقبل الإنسان المثل الأعلى ؟ لماذا تتحرك الأجرام ؟ إن البحث في هذه الأمور لا جدوى منه لأنه لا يتعلق بوظيفة الإنسان وهي التسخير . فالمسلم يرى أن هذا يرجع في النهاية إلى الله تعالى الذي قدّر فهدى ، وجعل لما خلق سنناً يكتشفها الإنسان ؛ فيرى آيات الله في الآفاق والأنفس ويتمكن من تسخيرها ، وعليه أن لا يفلت منه هذا الفهم وهذا التسخير . نقول هذا ونحن نميز بين ما نعلم وما لا نعلم ، وإن ما نعلم يكفي لأن نقوم بوظيفتنا التسخيرية ، وإن ما نجهله هنا وهو « لماذا يدق القلب ؟ » « ولماذا يقبل الإنسان المثل الأعلى ؟ » لا يتدخل في عملية التسخير ، وذلك

أننا حين نعلم أن صنع الماء من مواده هو الذي يمكننا من التسخير، وليس علمنا أو جهلنا : لماذا يحدث هذا من ذاك . فكما أن روح الإنسان من نفخ الله ، فكذلك روح الأمة من إنزال الله . قال تعالى في نفخ الروح :

﴿ يُدَبِّرُ الأمْرَ مِنَ السَّمَاء إِلَى الأرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ . ذَلِكَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزُ الرَّحِيمُ . الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ وَالأفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة ٣٢/٥-٩] .

وأما في إنزال روح الأمة فقد قال عز وجل :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [الشورى ٤٢/٥٢-٥٣] .

فكما أن الخلايا تنضم بعضها إلى بعض وتكوّن الكائن الحي ، كذلك أفراد البشر ينضم بعضهم إلى بعض ليكونوا الأمة . إن السر في

انضمام الخلايا بعضها إلى بعض مثل السر في انضمام الأفراد بعضهم إلى بعض حينما تحدث لهم إرادة واحدة بهدف إيجاد كائن آخر هو (الأمة) ، فحياة الخلية تجعلها ترتبط بالخلية الأخرى : كذلك تولد الإرادة في الفرد يجعله ينضم إلى الفرد الآخر فتتكون الأمة : وكما يقولون في علم الاجتماع : المجتمع رسالة من (الأنا) إلى (الآخر) ليتكون (النحن) . فالمجتمع ينشأ من حمل فرد مثلاً أعلى إلى آخر ... وهذا هو التبليغ للروح الذي أوحاه الله :

﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوْحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى ٤٢/٥٢] .

وبشيء من الجهد يمكن تصور الشبه بين الجسد الواحد والأمة ، فحين تتحقق الشروط لا يعود الفرد يملك الانضمام إلى بقية الأفراد ، أو أن يبقى منعزلاً عن المجموع حين تتوحد الإرادة الواحدة فيها . وهنا ما يمكن فهمه من قوله ﷺ : « مثل المؤمنين ... كالجسد الواحد » .

عرفنا كيف تتولد الإرادة .. وإن وَلَّدنا الإرادة يتحد الأفراد وتنشأ الأمة . ومن الأمور التي يعرفها الأطباء الحيويون أن لكل جسم نمطاً معيناً من حياة خلاياه يختلف عن نمط الفرد الآخر ، فنمط الحياة

في الكائن الحي يخضع لانسجام بحيث أن المشكلة التي تواجه الأطباء في عمليات نقل الأعضاء هي رفض الجسم للعضو الذي نقل إليه .

إننا يمكن أن نلاحظ ذلك في الأمة ، فإن الأفراد الذين تنتمي إراداتهم الاجتماعية إلى أمة أخرى ، فإنها لاتنسجم مادامت لا تحمل الوفاء إلا لمجتمع آخر ولروح أمة أخرى .

إن فطرة الجسم ترفض العضو الدخيل ، ولو أدى الأمر إلى القضاء على الكيان كله فتضحي بالجسم وتفضل الفناء على البقاء مع هذا العضو الدخيل ، وإن روح الأمة تكون في الإرادة الواحدة فإذا فقدت ماتت الأمة . وكما أن الجسم الحي إذا فقد روحه يتحلل ويعود إلى عناصره الأولية ، فكذلك المجتمع (الأمة) حين تفقد الإرادة تموت ويرجع أفرادها إلى اهتماماتهم الأولية البدائية لحفظ الذات لا لحفظ نمو المجتمع ، فلا يعود أحد يبالي بأحد ، وكل واحد يقول : نفسي نفسي .

والمجتمع يبدأ في الوجود حين تصير للأفراد إرادات تتجاوز ذواتهم وتشمل الآخرين . فإذا كان المثل الأعلى يعطي الإرادة للأفراد والأفراد يحملونه ، عند ذلك يبدأ المجتمع في الوجود . وهذا الفهم يفسر قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ [يونس ١٠/٤٩] . وبهذا يمكن تصور الأجل للأمة . فالرابطة التي تربط أفراد المجتمع هي الإرادة الواحدة ..

والعقيدة الواحدة .. والهدف .. والمثل الأعلى الواحد . فالمثل الأعلى هو روح الأمة ، فإذا عرفنا كيف توجد الإرادة ومن أي شيء تتولد ؟ عرفنا روح الأمة كيف تتولد ؟ وكيف ننميها ؟ وكيف نحافظ عليها ؟

وبعد ذلك نبدأ في بحث المثل الأعلى كقيمة .. والمثل الأعلى كصناعة .

٥ ـ الإرادة كقيمة وكصناعة :

ماذا نقصد بالمثل الأعلى كقيمة ؟ هذا جانب من جوانب بحث الإرادة . نقصد بالإرادة كقيمة : تفاضل الإرادات ، أي كيف تكون إرادة أفضل من إرادة ؟ بل كيف يكون مثل أعلى أفضل من مثل أعلى آخر ؟ أي كيف تكون عقيدة أفضل من عقيدة أو كيف تكون روح أمة أفضل من روح أمة أخرى ؟

تكون روح أمة أفضل حين تشهد للمثل الأعلى حقائق الحياة والعلم بالصدق ، وأنه ينسجم مع المستقبل ويظل يؤدي دوره الكامل . وقد بحث محمد إقبال هذا الموضوع ، فكان مما قال :

« كان من بين ما يحكم به على قيمة دعوة النبيِّ ، البحث في نوع

الرجولة التي ابتدعها والفحص عن العالم الثقافي الذي انبعث عن روح دعوته »[1] .

فإذا قارنا سلوك رجل بسلوك رجل آخر أمكننا أن نميز بينهما ونحكم على قيمة المثل الأعلى الذي صنع كلاً منهما .. إن الفطرة الصافية تختار أفضل المثل العليا حين تعرض عليها ، وتقدر قيمتها بالنظر إلى نماذج الناس الذين صنعتهم هذه المثل العليا .

وإن قيمة الأنموذج الذي يصوغه الإسلام تبدو من المكانة التي وضع الله فيها الإنسان ، والقيمة التي أعطاه إياها حين جعل الكون مسخراً له ، وهيأه ليكون خليفته في الأرض ، وتلك مكانة ما بعدها مكانة . وليس المراد هنا إثبات أفضلية الإسلام كقيمة ، وإنما المراد إبراز أن الإرادات تتفاضل على أساس قيمتها ، ولتحديد الأفضلية ينظر إلى أنموذج الإنسان الذي صنعه المثل الأعلى ـ كما سبق أن نقلت عن إقبال ـ وكما يقول عيسى عليه السلام : « من ثمارهم تعرفونهم »[2] ، والله تعالى يقول : ﴿ وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾ [الكهف ١٨/٤٤] ، أي انظر إلى العواقب .

نتحدث عن الإرادة هنا من جانبين :

---

(١) تجديد التفكير الديني ، فصل روح الثقافة الإسلامية ، ص ١٤٢

(٢) إنجيل متى ، إصحاح ٧ ، فقرة (٢٠) .

١ ـ قيمة المثل الأعلى .

٢ ـ والشروط التي يجب أن تتوفر في الإنسان لتتكون عنده إرادة مثل أعلى ما (أي المراد) .

وعند بحثنا الإرادة كقيمة وإبرازنا أهمية المثل الأعلى في حصول الإرادة ينبغي أن نشير إلى أن المثل الأعلى ولو كان في أعلى المستويات لا يكفي لتوليد الإرادة ، لأن الزوج الآخر وهو العقل الذي سيختار المثل الأعلى ، قد يكون خارجاً عن فطرته ، أو مرتبطاً بأهواء أخرى ، فوضع العقل أيضاً ـ من كونه على الفطرة ، أو حدوث أهواء فيه ـ يؤثر على قبول المثل الأعلى .

ومن هنا يمكن أن نفهم قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام ١٢٤/٦] . فاختيار الرسول ﷺ كفرد ، واختيار الأمة العربية كمجتمع لحمل الرسالة مبني على أن فطرتهم أسلم ، وأهواءهم أقل من أهواء المجتمعات المعاصرة لهم من الفرس والروم التي لم تكن أحوالها تلائم لحمل الرسالة في تلك المرحلة من تاريخهم ، فهم في ذلك الوقت من الأنموذج الذي وصفهم الله بقوله :

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [غافر ٨٣/٤٠] .

وهذا الموضوع في حاجة إلى بيان أوفى ، لأن لـه دخلاً وأهميـة في بحث الإرادة كصناعة ... وكثير من الذين يبحثون المشكلـة الإسلاميـة لا يعطون لهذا الجـانب الأهميـة التي يستحقهـا . فكل بحثهم يتوجـه إلى إبراز أهميـة المثـل العليـا الإسـلاميـة ، بصرف النظر عن تـأمـل حـال الإنسـان الـذي سيحملهـا . بينمـا ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعـام ٦/١٢٤] : تشير إلى الشروط التي ينبغي تـوفرهـا في المجتمـع والإنسان ـ ولا تشير إلى الشرط الذي ينبغي توفره في الرسالة ـ وهـذا الجانب يبرز أهميـة أوضـاع معينـة للمجتمعـات تسـاعـد على قبول المثل الأعلى أو رفضه .

إن تفـاوت الأفراد والجماعـات في قبـولهم المثـل الأعلى راجع إلى ثقافتهم لا إلى فطرهم واستعداداتهم ، وفي هذا جـاءت الآيـة ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَـلُ رِسَـالَتَـهُ ﴾ [الأنعـام ٦/١٢٤] . والسيطرة على تغيير ما بالنفس تدخل هذا الموضوع أيضاً في عـالم التسخير الـذي يقتـدر بـه على تغيير ما بالأنفس من مثل عليا وضيعة إلى مثل عليا سليمة .

وأما الإرادة كصناعة :

فلا نقصد منها إيجاد الإرادة فهو جانب آخر من الموضوع ، وإنما نقصد العملية الفنيـة لتحقيق مـا نريـده ، وكفـاءة الجهـاز الـذي يقوم

بعمليـة عرض المثل الأعلى العقل (بغض النظر عن قيمـة المثل الأعلى) وإن كانت الإرادة تتولد ذاتياً حين يعرض المثل الأعلى . إلا أن صحـة العقل ووضوح المثـل الأعلى ، كلما كانـا تـامين ، كان القبـول وتـولُّـد الإرادة أتم . وهذا لا يرجع إلى قيمة المثل الأعلى ، وإنما يرجع إلى الجهاز الذي يقوم بتوليد الإرادة وحفظها . ويمكن تقريب الموضوع بمثل :

مدرستان تعلمان البرامج نفسهـا . ومع ذلـك يمكن رؤيـة الفرق بينهما حين تعطي إحداهمـا نتـائج أحسن من الأخرى ، وهـذا يمكن أن يكـون راجعـاً إلى نمـاذج الطـلاب في المـدرسـة ، أو إلى نمـاذج المعلمين والإدارات مع وحـدة البرامج التي تعرض . وهكـذا فـإن بعض الأجواء تكون مساعدة في وضوح الرؤية الفكرية .

وهنا أرجع مرة أخرى إلى أهمية البلاغ المبين ، وإلى أهمية الجهـاز الذي يقوم بالبلاغ في العالم الإسلامي ، إلى مدرسة العالم الإسلامي التي برنامجها القرآن ، وقد أنتج هذا البرنـامج (الصحـابـة) فـماذا ينتج لنـا الآن ؟ إن الأمر لا يرجـع إلى البرنـامـج . وإنمـا إلى المشرفين على البرنـامج .. إلى الـذين يقومون بتـوليـد الإرادة وحفظهـا . وفهم هـذا سبب لفهم الفصل بين مـا يرجع إلى المثل الأعلى ومـا يرجع إلى المشرف على عرض المثل الأعلى من النقص . وبعبـارة أخرى : الفرق بين المبـدأ والتطبيق . فالمبدأ الجيد إذا أشرف على تطبيقه أناس غير مؤهلين كانت

النتيجة الفشل ، ويرى المنكرون للمبدأ أن الفشل راجع إلى طبيعة المبدأ فيقولون لو كان الإسلام حقاً لرفع أهله ، بينما يرى أصحاب المبدأ أن فشلهم راجع إلى القدر الأعلى وكلتا النظريتين خاطئة . والمسألة رباعية :

١ - مبدأ حق وتطبيق حق : وهذا ينتج نتائج إيجابية هي أعلى ما تكون نسبتها كما تحققت على يد رسول الله ﷺ .

٢ - مثل أعلى باطل وتطبيق جيد : قد يعطي نسبة عالية من النتائج ولكن دون الأول ، كما جرى في اليابان وألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية فقد استطاعتا بالتطبيق الجيد أن ترفعا إرادة شعوبها أعلى درجات الإرادة وهي بذل النفس والمال في سبيل خدمة مثلهم الأعلى الباطل وهو الاستكبار في الأرض والاستعلاء على البشر .

٣ - مثل أعلى حق وجهل في التطبيق : يعطي نتائج أقل من الأول . وحتى ما بقي له من نتائج لا يرجع إلى حذق في عملية توليد الإرادة ، وإنما إلى ما في المثل الأعلى من قوة ذاتية ؛ وهذا ما يعنيه أحد الدارسين للمشكلة الإسلامية في قوله : « إن المسلمين ليسوا هم الذين حفظوا الإسلام ، وإنما الإسلام هو الذي حفظهم .. » . وقد يتداخل الأمر بين حفظ الإسلام كمبدأ ، أو حفظ المسلمين كبشر . ولكن لا بد

من فهم مـا يرجـع إلى كل واحـد منهما ، وهــذا التــداخـل في كثير من الأحيان يكون سبباً لأحكام خاطئـة . فمثلاً : حين يهاجم الإسلام من خلال عمل المسلمين ، فهـذا هجوم خـاطئ على المبـدأ نشـأ من تـداخـل المبدأ بالمطبّق . وكذلك الدفاعات الخاطئة حين نحـاول أن نجعل بعض أعمال المسلمين الخاطئة في مستوى القرآن أو نجعل هذه الأعمال الخاطئـة وسيلة لفهم القرآن . وهذا مـا يجعل أعمـال المسلمين وأفكارهم غير قـابلـة للنقد والمراجعة في العصر الحاضر ؛ مما يوقع كثيراً من الشباب في البلبلة الفكرية .

٤ ـ مثل أعلى بـاطل وتطبيـق سيء ... وهـذا لا يمكن أن ينشـأ عليه مجتمع أصلاً .

ويمكن أن يكون تحت كل صنف من الأصناف الأربعة درجـات لا تحصر من الخطأ والصواب ، في كل من المبدأ والتطبيق .

إن الأول يكتسح العالم بسرعة . والثـاني يعمل ضجيجـاً وينجح إلى حد ما ، ولكنه ينطفئ على مرّ التاريخ . والثـالث يبقى بقوة مـا في المثل الأعلى من صلابة كالأديان الكبرى وخاصة الإسلام .

والحـالـة الثـالثـة هي التي تقبل العودة بإصلاح الإنسـان ، وهو ما يـدور حولـه الكفـاح والصراع في العـالم الإسلامي بين الـذين يرون

الحاجة إلى تطوير المثل الأعلى - ويختلفون كثيراً في معنى التطوير، بين تغييره وبين إعادة فهمه على وجهه الصحيح - وبين الذين يرون ثبات المثل الأعلى الإسلامي وعدم حاجته إلى التطوير، ويختلف هؤلاء كثيراً أيضاً في معنى الثبات فهل الذي يثبت هو المبدأ أم التاريخ ؟

وهنا أرى أنه ينبغي الإشارة إلى أن الإرادة كصناعة راجعة إلى القدرات .

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع

القُدرة

طال الاستغراق في بحث الإرادة ، فتأخر بحث القدرة أكثر مما ينبغي .. ونبدأ فنسأل : ما القدرة ؟

في المثل الذي سبق أن ذكرته في عمل إطفاء المصباح ، استبان لنا ما الإرادة ؟ وما القدرة ؟ وأن القدرة هي استطاعتنا الإطفاء باستخدام اليد والقوة العضلية . فالذي لا قدرة له لا يتمكن من إطفاء المصباح أو إيقاده مهما كانت عنده إرادة في الإيقاد أو الإطفاء ، فكأن القدرة بهذا التعريف هي : القدرة الجسمية العضلية وهو أمر ضروري لكل عمل .

وفي مثال أداء فريضة الحج توجد قدرة وإرادة . والقدرة هي استطاعة السبيل ﴿ لِمَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران ٣/٩٧] ، التي فسرها الفقهاء بالزاد والراحلة ، وهي قدرة مالية يرجع تحصيلها إلى القدرة الجسمية أي إلى الطاقة . والطاقة في الكون لها أشكال مختلفة : كهربائية وميكانيكية وكيميائية ... وتؤول الطاقة في نهاية الأمر إلى

الحركـة ؛ إذ قـانـون تحـوُّل المـادة إلى طـاقـة و بـالعكس هـو : ($\frac{١}{٢}$ ك سر^{٢}) أي الطـاقـة تسـاوي نصف جـداء الكتلـة في مربع السرعة . وتدل عبارة السرعة في القانون السابق على الحركة ، والحركة في هـذا الكـون نـوعـان : حركـة إراديـة كحركـة الإنسـان ، وحركة لاإرادية كحركة الشمس والقمر .

وكما التبست الإرادة الكونية بالإرادة الشرعية عند بعض للتصوفة فجعلوا كلتيهما طاعة حتى قال أحدهم :

أصبحت منفعـلاً لمـا يختـاره   فغـدت فعـالي كلها طـاعـات

كذلك في القـدرة : التبست القـدرة المجردة من الإرادة بـالقـدرة الإراديـة ، فـأصبح النـاس يسـألـون أنفسهم هـل نحن مسيرون أم مخيرون ؟!! فبتساؤلهم هـذا اعتبروا حركتهم وأفعـالهم كحركـة الشمس والقمر المسيرة ، بينمـا الشمس والقمر مسخرات لـلإنسـان ذي القـدرة المقترنة بالإرادة .

١ ـ عمق المشكلة :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَـا فِي السَّمَـوَاتِ وَمَـا فِي الأَرْضِ جَمِيعـاً مِنْـهُ ﴾ [الجاثية ١٣/٤٥] .

لقد وردت كلمة التسخير في كتاب الله كثيراً ... هذا وإن مناط التسخير العلم والفهم ، فسخر الله الكون وما فيه للإنسان دون غيره من المخلوقات لأنه قادر على تحصيل العلم :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة ٣١/٢] ، ﴿ الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ القُرْآنَ . خَلَقَ الإنْسَانَ . عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ [الرحمن ١/٥٥-٣] ، ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ ﴾ [العلق ٣/٩٦-٤] .

كما جاء في التوراة : « لعل الحكمة لا تنادي .. أيها الناس أنادي وصوتي إلى بني آدم ، أيها الحمقى تعلموا ذكاء .. ويا جهال تعلموا فهماً .. خذوا تأديبي ، لا الفضة . والمعرفة أكثر من الذهب المختار ، لأن الحكمة خير من اللآلئ ، وكل الجواهر لا تساويها .. أنا الحكمة أسكن الذكاء .. أنا الفهم لي القدرة ، أنا أحب الذين يحبونني ، الذين يبكّرون إليّ يجدونني »[1] .

إن هذه الكلمات من الهدى والنور الذي قال الله عنه :

﴿ إنَّا أنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ . يَحْكُمُ بِهَا الرَّبَّانِيُّونَ الَّذِينَ أسْلَمُوا ﴾ [المائدة ٤٤/٥] .

---

(١) سفر الأمثال ، إصحاح ٨

مستويات القدرة :

قلت في بحث القدرة : كما أن للإنسان قدرة على الحركة ، له قدرة على الفهم والإدراك أيضاً أي فهم السنن وقوانين المادة والحياة والأخلاق . إن فهم القوانين المادية قدرة من القدرات التي رفعت الإنسان إلى القمر ، وفهم قوانين الحياة رفع مستوى متوسط العمر إلى السبعين في بعض البلاد[1] . وفهم قوانين الأخلاق هو الذي سيثبت ما علمه الله في الإنسان ، ولم تعلمه الملائكة حين قالوا :

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ؟ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة ٢/٣٠-٣١] ، فكان بدء وضع الأسماء وكتابتها مدخل الإنسان لفهم السنن .

إذن فالقدرة على مستويين : مستوى طاقة مادية ، ومستوى طاقة عقلية فهمية ولا بد من التعرض لهما .

أ ـ القدرات المادية :

يمكن أن نتصور القدرات المادية في قوة العضلات وكثرة الأشخاص وسعة الأراضي التي يملكها الشعب ، والثروات التي في باطن

(١) مجلة العصر الحديث ، العدد ٢١-٢٢ ، ص ٣٠ ، أيار ١٩٧٩ م .

الأرض من نفط ومعادن ومساقط المياه ـ ويتنافس العالم اليوم لإيجاد مصدر متجدد للطاقة قبل نفاد طاقة النفط ـ ومن هذا الجانب ربما نقول : إن العالم الإسلامي عنده قدرات هائلة سواء في عدد الناس ، أو ما يملكون من قدرات ، ولكن هذه القدرات مهدورة لا نعرف قيمتها ولا نستغلها . فالنفط مثلاً قبل أن يعرف الناس كيفية الاستفادة منه ، لم يكن من القدرات لديهم ، ذلك أن القدرة المادية تظل كامنة لا يستفاد منها حتى يكشف الإنسان سنن استخدامها ـ تسخيرها ـ عن طريق استخدام القدرات الفهمية ..

ب ـ القدرات الفهمية :

ويمكن أن نسميها : القدرات العلمية ، ويقصد بها معرفة استخدام القدرات المادية ـ تسخير المادة ـ وتزداد القدرات الفهمية على مرّ الزمن أهمية لأن القدرات المادية لا تظهر قيمتها حتى تتوفر لها القدرات الفهمية .

ونستطيع القول : إن موضوع هذا الكتاب كله ودوافع بحثه يتعلق بهذا الموضوع ؛ وهو ما يريد المؤلف إبرازه . وما ينقص العالم الإسلامي الآن هو القدرات الفهمية لا القدرات المادية أي ينقصهم

العلم[1] . وأبحث هذا الموضوع لأني أرى أن مشكلة العالم الإسلامي في وقته الراهن هي نقص القدرات الفهمية ، أعني بها معرفة سنن تسخير إمكانيات العالم الإسلامي المادية والبشرية وهو ما ينبغي علينا أن نحصله .

وإذا استطعت أن أوضح هذه النقطة للقارئ الكريم توضيحاً جيداً ، فهذا هو هدفي من البحث ، لأني أعتقد أنه إذا تبين له هذا الموضوع جيداً فإنه سيبدأ في تحصيل هذه القدرة وسيسعى إليها في مظانها ليعثر عليها إن كانت مكتشفة ، أو يبدأ في البحث عنها ليكتشفها هو .. وتخلف العالم الإسلامي يرجع إلى فقده القدرات الفهمية ، وهذا ماأريد بيانه وبحثه .

وأظن أني قدمت بما فيه الكفاية أن العمل لا يتحقق بغير القدرة والإرادة ؛ ولزيادة الإيضاح سميناهما الزوجين اللذين يلدان العمل الصالح والناجح . وإذا نقص أو فقد أحدهما لم يكن ممكناً أن يحدث العمل ، ولقد ألقينا بعض الأضواء على بحث الإرادة ، والآن علينا أن نبحث موضوع القدرات .

---

(١) حين أقول هذا فليس معنى ذلك أنني حصلت العلم وإنما عرفت أنه ينقصني العلم وعلي تحصيله .

قد يظهر بهذا الشكل الذي عرضت به الموضوع أن فهمه وإدراكه سهل ولا تعقيد فيه ، ولكن ـ بحسب خبرتي في بحث هذه المشكلة ـ أرى أن الأمر ليس سهلاً ولا قريب الفهم للعالم الإسلامي ..

وبما أن مشكلة عجز المسلمين هي من المشكلات الكبيرة العالمية ، فإن البحث في مشكلتهم له من المكانة والجلال ما يكافئ عِظم المشكلة ، وهذا ما يجعلني أضع نفسي بين الذين يحاولون بحثها باستحياء بالغ ، وليس هذا فقط بل حين أزعم أن الباحثين في هذه المشكلة لم يحدّدوا المشكلة فضلاً عن أن يحلّوها ، فأنا أيضاً لا أزعم أني سأحل المشكلة ـ لأن هذا ليس إليَّ ـ ولكن العالم الإسلامي نفسه هو الذي سيحل المشكلة ، ومع ذلك سأحاول تحديدها ليتوجه المسلم إلى مكانها ويبدأ العمل بكل بساطة وطمأنينة بدل أن يحاول القيام ببطولات خارقة ، وعنتريات فذة بقفزات فوق السنن في حين أن حل مشكلته يبدأ ويتم بأعمال يومية ولحظية يؤدي فيها واجباته البسيطة .

وهنا أشعر بالامتعاض ، أقول هذا نتيجة خبرتي ومعاناتي في المستويات المختلفة حين أبذل جهدي في توضيح الموضوع أواجه بسؤال عفوي عادي أشعر أنه هدم كل ما كنت أحاول بناءه ، فأُصدم ولا أعرف ماذا أفعل . ومن لم يعان هذا الموضوع لا يعرف ما يحيق

بأفكاره من التشويه والبتر والابتذال . فمثلاً كلما تعبنا في إثبات أن الـذي ينقص المسلمين هو الصواب وليس الإخلاص ـ على الأقل في الوقت الراهن ـ وبعبارة أخرى إن الذي ينقصنا العلم وليس الإيمان (القدرات وليس الإرادات) .. يقال لنا : إن المشكلة تكمن في عدم وجود المخلصين المؤمنين . وفي مثل الذهاب إلى الحج قد يفقد الإنسان الإرادة وعنده القدرة ، وقد يفقد القدرة وعنده الإرادة ، ووجود هذين النموذجين : من لا يريد الذهاب ومن لا يقدر على الذهاب ـ لا يختلف فيه أحد ـ ولكن مع هذا الوضوح قد يختلط الأمر عليك ، وتصير إلى إنكار أن يوجد هذان الصنفان من الناس ، وإنما يوجد صنف واحد فقط ؛ وقد تقول لي : يوجد الذين لا يريدون ، ولكن لا يوجد من لا يستطيع . وأقول : هذا ظلم ومحاولة للتهرب من الموضوع ، لأنه يوجد كثير من الناس لا يستطيعون الحج وإن كانوا يريدون ، وهؤلاء كمن :

﴿ تَوَلَّوْا وأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً ألاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ [التوبة ٩٢/٩] ، فالتسوية بين هؤلاء وبين المخلفين الذين ذكرهم الله في سورة التوبة وفضحهم ، تسوية غير مقبولة .

وهذا الواضح الخفي هو الذي جعل حسن البنا رحمه الله يكتب

في مقدمة رسالته (إلى أي شيء ندعو الناس) : « قد تتحدث إلى كثير من الناس في موضوعات مختلفة ، فتعتقد أنك قد أوضحت كل الإيضاح ، وأبنت كل الإبانة ، وأنك لم تدع سبيلاً إلى الكشف عما في نفسك إلا سلكتها حتى تركت من تحدثهم على المحجة البيضاء ، وجعلت لهم ماتريد بحديثك من الحقائق كفلق الصبح أو كالشمس في رابعة النهار ، وما أشد دهشتك بعد قليل حين ينكشف لك أن القوم لم يفهموا عنك ولم يدركوا قولك .. رأيت ذلك مرات ولمسته في عدة مواقف »[1] .

وهذا ما جعل ابن خلدون يذكر قصة طريفة لتقريب هذه المشكلة لما ذكر غرائب ما يتحدث به ابن بطوطة في رحلته قال : « فتناجى الناس بتكذيبه ، ولقيت أيَّامئذٍ وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ، ففاوضته في هذا الشأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض الناس في تكذيبه . فقال لي الوزير فارس : إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره ، فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن ، وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنين ربى فيها ابنه في ذلك المحبس ، فلما أدرك

(١) مجموعة رسائل حسن البنا ، ص ١٢٤ ، بيروت ، ١٩٦٥ م .

وعقل ، سأل أباه عن اللحم الذي كان يتغذى به فقال له أبوه : هذا لحم الغنم ، فقال : وما الغنم ؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها ، فيقول : يا أبت ! تراها مثل الفأر ؟ فينكر عليه ويقول : أين الغنم من الفأر ؟ وكذا في لحم الإبل والبقر إذ لم يعاين في محبسه من الحيوانات إلا الفأر ، فيحسبها كلها أبناء جنس الفأر ...

وهذا كثيراً ما يعتري الناس في الأخبار ، كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الإغراب كما قدمنا أول الكتاب . فليرجع الإنسان إلى أصوله ، وليكن مهيمناً على نفسه ، ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته ، فما دخل في نطاق الإمكان قبله ، وما خرج عنه رفضه . وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق ، فإن نظامه أوسع شيء ، فلا يفرض حدّاً بين الواقعات ، وإنما مرادنا بحسب المادة التي للشيء »[1] .

وهذا ما قرره مالك بن نبي - رحمه الله - بأسلوب آخر في كتابه (الإفريقية الآسيوية) حيث قال : « لأن البداهة لم تكن لتبرئ الإنسان من فكرة مسيطرة عليه »[2] . وقوله : « وحتى في الكتابات

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٥٨ ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

(٢) فكرة الإفريقية الآسيوية ط ٢ ، ١٩٨١ - دار الفكر دمشق .

العلمية الخالصة ، نلاحظ وجود هذا العنصر الانحرافي الذي يقحم دخائل النفس الإنسانية في المشكلات الاقتصادية . ومن الأمثلة على ذلك مانلاحظه في كتابات بعض الاقتصاديين الغربيين ، تلك التي لانستطيع أن ننازع في نزاهتها الخالصة ، أو جدارتها ، فإن عنصر الانحراف يتدخل كلما اتصل الحديث بالمشكلة الاستعمارية ، وإنه ليتحدث عنها بمنطق الفني الكامل الذي لا يغض النظر في أية لحظة عن قيمة الأرقام ودلالة الأحداث والوقائع ، غير أنه بعد أن يبرهن على الخسارة الهائلة التي جشَّمتها مستعمرة معينة لمستعمريها ، يستخلص نتيجة غير منتظرة هي أن وجود بلاده ضروري في المستعمرات على الرغم من خسارة الميزانية . هذه بلا جدال نقطة تتشابك فيها حقيقة الضمير مع حقائق العلم ، وينتج عن هذا انحراف يحدث بصورة مغرضة في جميع التصريحات والبيانات »[1] .

هكذا تعمل الفكرة المسيطرة على الإنسان فتحول بينه وبين فهم الفكرة مهما كانت بدهية . وهذه الأمثلة سقناها في مستوى صعوبة انتقال الفرد ضمن حضارة معينة من مستواه المتخلف إلى مستوى آخر أفضل .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٤١

كما يمكن رؤية هذه الصعوبات في مستوى إنسانين من حضارتين مختلفتين ولكن بشكل معقد أكثر . فالمسلم يرى بداهة مساواة الأبيض والأسود ، ولا يدرك كم أمام الإنسان الأمريكي من عقبات تحول بينه وبين فهم هذه البدهية البسيطة ؛ والمسلم الذي يقرأ في كتاب الله تعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل ١٦/٥٨] .

لا يزال يحمل فكراً جاهلياً كثر أو قلّ ، بينما العالم الغربي الذي نتهمه بالجاهلية ليست عنده هذه الحساسية إذا ولدت له أنثى .. ولا يتمكن مسلم اليوم أن يدرك مشاعر الغربيين هنا ، لأن بيئته سيطرت عليها فكرة ما حالت بينه وبين فهم ما يريده الآخر .. وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم حين يقول :

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ : أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟؟! ﴾ [الرعد ١٣/٥] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ ، وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ؟ انْظُرْ كَيفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ، ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام ٦/٤٦] .

يقول ابن تيمية : « إن الله تعالى لم يقصّ علينا في القرآن قصة

أحد إلا لنعتبر بها لما في الاعتبار بها من حاجتنا إليه ومصلحتنا ، وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول ، وكانا مشتركين في المقتضي للحكم ، فلولا أن في نفوس المكذبين للرسل - فرعون ومن قبله - شبه بنا ، لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط ، ولكن الأمر كما قال الله تعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات ٥١/٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة ٢/١١٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾[1] [التوبة ٩/٣٠] .

ولهذا قال النبي ﷺ : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم ، قلنا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ »[2] . كما قال أيضاً عليه الصلاة والسلام :

(١) الفتاوى لابن تيمية ، الجزء ١٤ ، ص ٣٢٢

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام ، الطبعة المنيرية ، ج٩ ، ص١٨٤

« لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، فقيل يا رسول الله كفارس والروم ؟ فقال : ومن الناس إلا أولئك »[1] .

فالمسلمون ـ على الرغم من بقائهم مسلمين ـ معرضون لأن يقعوا بما وقع فيه غيرهم من تجافٍ للحق وعدم رؤيته ، وأنه يمكن أن يبتلوا بمفاهيم خاطئة تجعلهم يتحدون أوضح البدهيات والآيات البينات . ومن ذلك مثلاً ظن العالم الإسلامي أن الذي ينقصه لحل مشكلته الإخلاص وليس الصواب (أي الإرادة وليست القدرة) بينما يذكر ابن تيمية في لفتة فكرية رائعة « أن الحب (الإخلاص) يتبع العلم (الصواب) »[2] .

والقرآن يؤكد كثيراً كيف يمكن للناس أن يتحدّوا البدهيات والآيات البينات انطلاقاً من الأفكار المسيطرة والمسلمات التي عندهم من غير محاولة لفهم أفكارهم المسيطرة وأدلتها ، وإنما يكتفون بالإجماع الظاهري الذي كان عليه الآباء ، وهذا الذي وجدوا عليه الآباء ، جدار متين يسندون إليه ظهورهم بوعي وبغير وعي يتحدّون البدهيات في كل عصر سواء في ذلك الأمريكي حين يصر على العنصرية ، أو المسلم

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٨٤

(٢) فتاوى ابن تيمية ، ج١٠ ، ص٥٦

حين يصر على التعامي عن آيات الآفـاق والأنفس التي ظهرت ولم تكن ظـاهرة من قبل كما هي اليـوم . والقرآن مليء بمثـل هـذه المـواقف التي كانت تقفهـا الأمم من الأنبيـاء والآمرين بـالقسـط من النـاس اتبـاعـاً لأهوائهم ، وما ألفَوْا عليه آباءهم .

وهذا الموضوع جدير بالبحث والدرس والتعميم ورؤية مشـاكلـه اليومية . وإن الآليات الذهنيـة نفسهـا اليوم تقوم بتحـدي البـدهيـات سواء ذلك عند المسلمين أو غيرهم : وأنا أحاول أن أبحث نقطة من هـذه النقـاط التي تسيطر على المسلمين ، وتحول بينهم و بين رؤيـة الواقع على حقيقته ووضوحه : ألا وهي ما يحدث من خطأ في فهم موضوع القـدرة والإرادة ، وكيف نقع في التناقضات في كل منهما .

٢ ـ كيف يحصّل الإنسان القدرات ؟

إذا نظرنـا إلى الطفل حين يولـد نجـد لـديـه قـدرة مص الثـدي ـ وهي قدرة مادية ـ وهـذه القـدرة مهما كان عنصر الإرادة فيهـا خفيـاً فهي قدرة ، ولكن بعد قليل تصبح لديـه قـدرة أخرى هي التعبير عن إرادته بالبكاء فيستخدم قدرة البكاء لإظهار إرادة ما ، لأن الطفل من شأنـه عـدم البكاء إذا كان في راحـة تـامـة من حيث النظـافـة والغـذاء والصحة والوضع المريح ، والباحثون والمجربون يعلمون هذا . وكلما كبر

الطفل صارت له قدرات ، فهو لا يبصر في الأيام الأولى من ولادته ، كما أنه لا يستطيع القعود والمشي و ... ومع مرور الزمن تنمو هذه القدرات لديه . وكذلك الشأن في القدرات الفهمية فإن الطفل يبدأ في التمييز بين وجه والدته وإخوانه ، ثم في فهم الكلمات إلى أن يتعلم التكلم ، ويسأل عن الأشياء التي يراها . وهكذا يمر الطفل في مراحل مدهشة من النمو ، سواء في نموه الجسمي ، أو نموه الفهمي ، أو نموه الأخلاقي ..

إن لنمو القدرات الجسدية وتحصيلها ، قوانين واضحة ساهمت في تحسين الوضع الصحي للبشر ، وقللت من وفيات الأطفال ؛ ويمكن للإنسان مهما اختلفت ثقافته أن يكتمل بناؤه الجسدي في سن العشرين بتطبيقه الأسلوب الصحي المناسب .

بينما القدرة الفهمية وتحصيلها ليست كذلك . وأما كيف بدأت ؟ فنجيب عن.ذلك بقولنا : إن القدرات الفهمية كسنن ، موجودة من يوم خلق الله الأشياء ، بل قدّرها قبل أن يخلق العالم ... فمثلاً سنن الذرة هي سنن الذرة قبل كشفنا لها وبعد كشفنا لها ، ولكن حين كشفناها صارت لنا قدرات فهمية عن الذرة لم تكن موجودة عندنا من قبل . وسنن الجراثيم المرضة هي كما كانت قبل اكتشافنا لها ، ولكن نحن الذين تغير موقفنا منها بعد أن كشفناها وصارت لنا قدرة على تسخيرها .

ولننظر نظرة أعمق للقدرات ـ على أساس كيف بدأ الخلق ـ إلى الفرق بين صغار الإنسان والحيوان . فلو أخذنا مولوداً حديثاً من الحيوانات وليكن من البقر ، وربَّيناه من غير أن يرى واحداً من بني جنسه ، حتى إذا بلغ مرحلة الإخصاب وأدخلناه بين بني جنسه لا نجد فرقاً كبيراً بينه وبين الذي عاش بين أفراد جنسه . ولكن لو تصورنا هذا الأمر في جنس الإنسان ، فأخذنا طفلاً من يوم ولادته ، وبطريقة ما وصل هذا الطفل إلى مرحلة الإخصاب دون أن يرى أحداً من بني آدم ؛ كيف نتصور أن يكون هذا الإنسان عندما ندخله إلى بني جنسه ؟ يمكنك أيها القارئ أن تتخيل كيف سيكون هذا الإنسان ؟ إنه لا يستطيع أن يتكلم أية لغة من اللغات ، بل تكون قد فاتته المرحلة الذهبية في تعلم لغة ما بسهولة ويسر ؛ ثم كم جانب من جوانب القدرات الإنسانية يظل ضائعاً ؟ بل إن هذا الإنسان يكون أدنى من الحيوانات ، لأن الحيوانات بغرائزها تنظم حياتها ، بينما الإنسان مركب من قدرات الإنسان التاريخية التي اكتسبها على مرّ التاريخ ، كالأمور الأخلاقية ، ومعنى الحلال والحرام ، والحق والواجب ، وما إلى ذلك من أمور . ومهما حلقت في التفكير ، فما أظنك تحيط بما يفقد هذا الإنسان بفقده الحياة مع بني جنسه ... ومن هنا نعلم أن الإنسان لا يمكن أن يستقل عن بني جنسه . ليس عن بني

جنسه المعاصرين له ؛ بل عن بني جنسه الأقدمين ، لأن كل المعارف التي للأجيال الماضية تعطى مختصرة للطفل الذي ينشأ في المجتمع . وبهذا يُعْرَف أن الإنسان يكتسب قدرات هائلة ، ولو كان في قبيلة بدائية ، لأننا لا نشك في أن الفرق كبير بين من نشأ في قبيلة ولو بدائية وبين من لم يرَ إنساناً قط . وكذلك يمكن ملاحظة الفرق بين من نشأ في قبيلة بدائية وبين من نشأ في مجتمع متمدن . وهذا يدلنا على أن الإنسان حين يولد ، فإن المجتمع هو الذي يعطيه القدرات المكتسبة المتراكمة على مرّ التاريخ . ينبغي أن لا ننسى هذا ؛ وهو أن الإنسان في قدراته وصلاته بالكون والإنسان في حاجة إلى أن نلخص له تاريخ مكاسب الإنسان كلها لنعطي له خلال سنوات قصيرة كل ما تعبت به البشرية في الحصول عليه خلال آلاف السنين ، وهذا أوضح ما يكون في العلوم : الطب والفلك والرياضيات ... فكم تعبت البشرية حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في هذه العلوم - مثل كشف التعقيم والتلقيح وبعد النجوم وقوانين سيرها ورموز الأرقام والصفر ... - هذه القدرات الفهمية لها تواريخها والزمن الذي اكتشفها الإنسان فيه ، وكذلك كل القدرات الأخرى من معرفة إيقاد النار وزرع الأرض واستئناس الحيوان ثم تسخير البخار والكهرباء ... وكما أن صنع سيارة أو صاروخ أو ... يحتاج إلى قدرات فهمية لا شك فيها ؛

فإن تنظيم المجتمع وصنع ثقافته واختيار المبدأ الذي يرتبط على أساسه ، يحتاج إلى قدرات فهمية أيضاً .

والجانب الذي نهتم به في هذا الكتاب ؛ هو جانب القدرات الفهمية ، ولا سيما القدرات الفهمية لصناعة المجتمع ، وفهم القوانين التي يخضع لها أمر صلابة المجتمع وقوة تماسكه ، وأساليب علاجه وتغييره وضبطه .

وينبغي أن نبدأ في موضوع القدرات من نقطة الصفر أيضاً . فلنفهم كيف توجد ، ومن أي أبوين تولد ، لا بد من رؤية ذلك بوضوح . ولنتمكن من ذلك لا بد من اتباع أمر الله في النظر كيف بدأ الخلق ومنه خلق القدرات الفهمية . وهنا يمكن أن نقول : إن الحيوانات ليس لها قدرات فهمية وإنما لها قدرات غريزية موروثة . ولإمكان رؤية بدء خلق القدرات الفهمية ، يمكن أن ننظر إلى الأطفال كيف يتعلمون من المجتمع ما تعلمه المجتمع خلال بضع سنوات . كما يمكن للطفل العادي خلال عشرين سنة أو ثلاثين سنة من عمره .. أن يبلغ في الموضوع الذي تخصص فيه إلى نهاية ما وصل إليه العلم في هذا الموضوع الذي جهدت فيه البشرية لبضعة آلاف من السنين .

ومن هذه الظاهرة نفهم أمرين :

١ً ـ كيف تتكون القدرات ببطء خلال التاريخ ؟

٢ً ـ كيف تنتقل هذه القدرات بعد أن أصبحت علماً إلى الأطفال خلال سنوات قليلة .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر ينبغي البحث عن أبوي القدرات أي عن الزوجين اللذين يلدان القدرات وهما العقل وسنن الكون .

أما الزوج الأول وهو عقل الإنسان ، فإننا لا نبحث عن كنهه وإنما عن وظيفته ، وقد قال الله تعالى عنه :

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ﴾ [المؤمنون ٢٣/١٤] .. ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء ١٧/٣٦] .

والزوج الثاني وفيه مجال عمل عقل الإنسان : هو وقائع الكون وأحداث التاريخ البشري ـ أي آيات الآفاق والأنفس ـ لأن العقل إن لم يتصل بوقائع الكون وأحداث التاريخ البشري ، لا يمكن له أن ينمو . فكما أن العين لا تبصر بغير ضوء ، فكذلك العقل لا يقوم بوظيفته بغير وقائع الكون (آيات الآفاق) ، وأحداث التاريخ البشري (آيات الأنفس) .

إذن نستطيع القول : بأن العقل والكون يتفاعلان لإيجاد القدرات الفهمية .

إن من طبيعة العقل فهم السنن واستنباطها من المخلوقات ووقائع الكون وأحداث التاريخ التي تخضع بطبيعتها للسنن . وهذه العلاقة المزدوجة هي التي تولد القدرات . ومظهر هذه القدرات هو التسخير . فالقدرة تبرز من خلال التسخير ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية ١٣/٤٥] .

وجدنا فيما سبق عندما يعرض المثل الأعلى على العقل فإنه يدركه ويميزه ، كما تدرك حاسة الشم الرائحة وتميزها . فكما أن العقل طرف في تحصيل الإرادات ، كذلك هو أيضاً طرف في تحصيل القدرات الفهمية ؛ وذلك حين تعرض الأحداث التاريخية ووقائع الكون عليه ، يبدأ في البحث عن سننها وأسبابها ، فيسأل كيف ولِمَ يحدث هنا ؟ ثم يكشف قانونه كما فعل ابن خلدون في النظر إلى الأحداث التاريخية للبشر في عمرانها ونموها وتوسعها وانحدارها . ولهذا يأمرنا الله تعالى أن ننظر إلى سِيَر الذين خَلَوْا مِن قبل لنكشف عوامل هلاكها أو نموها ، وعوامل سعادتها وشقائها ، فيمكن بسهولة رؤية الهلاك والشقاء والنجاة والسعادة ، ولكن رؤية أسبابها أصعب ؛ وهذا ما بحثه ابن خلدون ،

والدارسون للتاريخ من هذه الجهة . وبرؤية أسباب ذلك رؤية واضحة يتحول التاريخ إلى علم وإلى تسخير ، وما لم يتحول إلى تسخير ـ لتفادي المصائب ـ لا يكون قد تحوَّل إلى علم أصلاً .

وهنا ينبغي البحث في الموضوع من جانبين : جانب كيفية كشف السنة ، وجانب التأكد من صحة هذا الكشف . ويكون الأول بملاحظة كيفية وقوع الحدث ورؤية سببه . ويكون الثاني بالقدرة على توجيه الحدث وتسخيره والسيطرة عليه .

والجانب الأول يمكن أن يبحث من خلال ما يعرضه ابن تيمية من مراتب الوجود في قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق ١/٩٦] ، فيعتبر أن مراتب الوجود أربعة : وجود عيني ، وجود ذهني ، وجود لساني ، وجود بناني .. والآية تنص على الوجود الأخير والوجود الأول . فالوجودالأول هو الوجود الْخَلْقي الذي سمّاه العيني ، وسماه الغزالي : الوجود الخارجي أي وجود الشيء في الواقع الخارجي ، ثم وجود صورة هذا الوجود الخارجي في ذهن الإنسان ، ثم التعبير عن هذه الصورة الذهنية باللفظ ـ باللسان لفظاً ـ ثم التعبير عن هذا اللفظ بالخط الذي سماه ابن تيمية : بَناني[1] .

---

(١) للاستزادة يرجى مراجعة المجلد ١٦ من الفتاوى لابن تيمية ، ص ٢٥٠ حتى ٢٨٠

ويمكن ضرب المثل لذلك بالرعد ، فله وجود خارجي يحدث في السحاب ، وله صورة ذهنية في الإنسان . ويعبر عن هذه الصورة الذهنية التي حدثت في ذهنه بلفظ رعد ، ثم يعبر عن ذلك برسم صورة من الخط يدل على هذا اللفظ .

فالله تعالى ذكر القراءة ، وذكر الخلق ، لأن الوجود الخارجي هو الخلق الذي تحدث للإنسان صورة عنه ، ثم يعبر عنها باللفظ ثم بالخط ..

فالخلق هو الوجود الأول الذي يسمى العيني أو الخارجي ، والخط ـ أو البناني أو الرسمي ـ هو الوجود الأخير . فالله ذكر الأخير والأول وما بينهما واسطة . وما ذكره ابن تيمية والغزالي يدل على الجانب الاسمي أكثر من الجانب السنني .

أما بحث هذا الموضوع من الجانب السنني فيكون في مطابقة الصورة الذهنية للوجود الخارجي ، أي مطابقة الفهم للخلق بأن نفهم سنة الخلق . وهذا الموضوع بحثته في كتاب (حتى يغيروا ما بأنفسهم) ، وهو أن الله يخلق السنة والنتيجة ، وقد أقدرنا الله على استخدام السنن التي على أساسها يحدث لنا التسخير ، فإذا تصرفنا في الأسباب التي خلقها الله ، حصلت لنا النتائج . فدور الإنسان هو فهم

السنن (الأسباب) ، والتصرف فيها هو التسخير . وعندما يطابق الفهم للخلق (أي للسنة) تأتي النتائج كاملة : أي يحصل التسخير ، وبمقدار ما يكون فهم الأسباب ناقصاً يكون العلم ناقصاً ، ويكون التسخير ناقصاً ، لأن دليل صحة الفهم هو تمام التسخير . وحين لا تأتي النتائج تامة فإننا لا نعترف بالخطأ أو بنقص في فهمنا ، بل نتذرع معللين هذا النقص بأن النتيجة لم تأت وذلك لحكمة أرادها الله .. وكثيراً ما تغدو هذه الحالة ستراً لعجزنا وتهرباً من مسؤولية البحث والتنقيب عن أسباب قصورنا .

ولهذا يأمرنا الله تعالى بالنظر إلى العواقب ، لأنها تدل على صدق فهم السنن . فالعواقب والتسخير كلمتان قرآنيتان ، وهما الدليل على صدق فهم الإنسان للموضوع ، ويمكن فهم هذا بشيء من السهولة في موضوع آيات الآفاق ولا سيا في هذا العصر لأن التقدم العلمي في التسخير يتم على قدر ما يكشف الإنسان من السنن . وينبغي أن يتم نقل هذا القانون إلى مستوى المجتمع ، وهذا ما فعله القرآن حين أمر بالنظر إلى عاقبة الذين خلوا من قبل ، وبالنظر إلى عاقبة الأمور . من ذلك قوله تعالى :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران ١٣٧/٣] .. ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [يوسف ١٠٩/١٢] .

هذه هي القدرات الفهمية التي يحتاج إليها العالم الإسلامي لينجح في مسعاه وفي صنعه للأمة المسلمة .

وأمام العالم الإسلامي عقبات في إدراك هذا الموضوع ، وهذا ما يجعل سعيه سعياً عقيماً ، وهذا ما جعلني أحدد بأن هذا الجانب هو الذي ينقص العالم الإسلامي ليمشي سوياً بدل أن يظل مكبّاً على وجهه معرضاً عن أمر الله بالنظر في ﴿ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت ٢٠/٢٩] . وما زال أكثر المسلمين يظن أن هذا الأمر شيء غير الكتاب والسنة ، ولسنا بحاجة إليه لأننا لسنا بحاجة إلى ما سوى الكتاب والسنة . إنهم لا يدركون مقدار ما يلح القرآن على النظر إلى سنن الذين خلوا من قبل . وهنا أريد أن أقول : إن فهمنا للكتاب والسنة متقيّد . وأعني بمتقيد : لو أن إنساناً خالي الذهن لا علم له بالمناخ الذي يحيط بالقرآن ، عرضنا عليه القرآن وقلنا له : انظر لنا الأمور التي يهتم بها هذا الكتاب . إن هذا الإنسان يفهم بسهولة الاهتمام الذي يوجهه القرآن لفهم سنن الذين خلوا من قبل ، وللنظر إلى السنة والقوانين التي تتحكم في سِيَر البشر . إن هذا القارئ ينظر إلى القرآن

الكريم من غير أن يتأثر بالمناخ الثقافي المحيط بالقرآن الذي صنعه المسلمون خلال القرون ؛ وهو مناخ يقيد المسلم بفهم خاص يبعده عن إدراك هذه الأمور القرآنية ، ويجعله لا يرى لها أهمية وفائدة ..

إن هذا المناخ هو الذي يسبب ما سمته الآية الكريمة (الإعراض) في قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف ١٢/١٠٥] .

إذن فعدم قدرة فهم المسلمون لأهمية هذه الأوامر ليست راجعة إلى الكتاب والسنة ، ولكن إلى المسلم الذي صارت عليه الآصار والأغلال من صنع القرون الماضية ، ومن إهمال العصور السابقة لهذه الأوامر .

إن فقدان المسلم لفكرة التسخير ، وفكرة المراجعة وكشف الخطأ في النظر ، وإعادة البحث في الأسباب .. كل هذا قد جعله عاجزاً عن أن ينظر إلى الكتاب والسنة نظراً سليماً . لقد ضيعنا قاعدة التصحيح للخطأ ، فلهذا لا قدرة لنا على الخروج من الخطأ ، لأننا فقدنا تصحيح الفهم ليتطابق مع سنن الوقائع في الكون والأحداث في التاريخ مردِّدين : علينا أن نسعى ، وليس علينا إدراك النجاح : وبهذه السهولة نمتنع عن مراجعة الموضوع لتلافي النقص في فهم السنن .. هذه عقبة كؤود تثقل كواهل المسلمين . وحين يقول الباحثون في التاريخ :

« إن العوامل التي تعيق النمو هي مواريث خاطئة تحول بين المسلمين وبين رؤية الصواب » ، فإنهم يرون أن العلاج يكون بالتخفيف من أثقال المواريث أكثر من أن يكون بإضافة أشياء جديدة .

ويبدو هذا واضحاً في المثل الذي قدمناه سابقاً وهو أن الإنسان خالي الذهن أقدر على فهم القرآن من الإنسان الذي حمل مواريث تمنعه من الفهم الصحيح .

وقد يرد معترض قائلاً : ما بال الأولين لم يروا هذا الذي تراه الآن ؟

وقد يكون هذا الاعتراض صحيحاً ، إلا أن الظروف التي عاش فيها الأولون لم تكن مواتية لفهم هذه الأمور كالظروف التي نعيش فيها الآن مع تقدم العلم واتساع كشوفه في مجال الآفاق والأنفس .

إلا أن الآصار والأغلال المتمثلة في المواريث الثقافية تمنع عنا الرؤية الصحيحة لأوامر الله تعالى ، وهذا ما يجب أن نسعى للتخلص منه ، وتلك مهمة رسول الله ﷺ حين وصفه الله بقوله :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوراةِ وَالإنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ

وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيهِمْ ﴾ [الأعراف ١٥٧/٧] .

وهنا يجدر بنا أن نبحث فكرة مهمة وهي :

ملكة البحث لتحصيل القدرات :

إن الثقافة التي نتثقف بها والدراسات التي نعيش معها ، لاتبث فينا اكتساب ملكة البحث والدرس وكشف السنن والقوانين . ولا يشعرنا الكاتب الذي نقرأ له أن بحثه ليس كافياً ، وأن على الباحثين بعده أن يوضحوا الموضوع أكثر منه ، كما لا يوحي إلينا أن العلم قابل للزيادة ؛ فلا يحثنا على طلب المزيد منه ، ولا يعتذر عن ضآلة ما يقدمه ، ليس بالكلمات وإنما بالأسلوب نفسه الذي يستطيع به أن يدل على بثّ روح الدأب لكشف السنن وتوضيح القوانين . وثقافتنا توحي بأن العالم خلق كاملاً ، فلا يمكن المزيد عليه ، وكأن البحوث انتهت مع الأولين الذين لم يتركوا شاردة ولا واردة إلا بحثوها وفهموها وحصّلوا الذروة والنهاية ، وليس عليه هو إلا أن يتملّق بحوثهم[1] .

---

(١) كذلك العلاقة بين التلميذ والمعلم ، حيث يوحي المعلم بأنه يعلم كل شيء . ويأخذ الأطفال الصغار هذا إلى أن يكتشفوا جهل المعلم في بعض الأمور . إلا أن هذا

فعلى الأجيـال الـلاحقــة أن تكشف هــذه الأمراض ، وأن تبرز كيف يوحي كتّاب جيلنـا والـذين سبقوهم لقرائهم بـالخمـول والكسـل ويقتلون فيهم المواهب ويأسرون العقول .

والمسلم حين يسمـع مثـل هـذا الكـلام قـد يفهم هـذا بـالنسبـة لأشخاص معينين ، وبالنسبة لأجيال معينة ، ولكن لا يريـد أن يعمم هذه القاعدة على جميع الأشخـاص والأجيـال ، وبهـذا الاستثنـاء يهـدم القاعدة ويعطل الفائدة فلا يصل إلى الحق ، وإنما ينتقل من تقليد إلى تقليد ، وهو لا يشعر أنه قد اغتال القاعدة الأصلية القائلة :

(لا تعرف الحق بالرجال ، ولكن اعرف الحق تعرف أهله)

وإن القفل الذي يسدّ به بـاب ملكـة تحصيل القـدرات ، هو أن يصير الآبـاء مكان الحقيقـة مهما كان هـؤلاء الآبـاء .. وهــذه إشــارات صغيرة لـوبـاء قتّـال يشـل العـالم الإسـلامي ، ويصرفـه عن القــدرات الفهميـة ، وكيف يتم تحصيلهـا .. وهــذا الكتــاب بحث لإبراز أهميـة القدرات الفهمية (العلم) لمعرفة حل المشكلات وتسخيرهـا .. أين أنت

= الكشف لا يـأتي بشكل إيجابي لا من المعلم ولا من التلميـذ ، وإنمـا بشكل سلبي من كليهما . فـالمعلم لا يقـابل مـا يجهل بسويـة بل كثيراً مـا يكـون بمواربـة وخداع .. والتلميذ المسكين يتقمص هذا الموقف الذي ينتج سوء العلاقة المشبعة بالاحتقار .

يا من سينسف هذه الحواجز التي لا نقدر على مسّها ؟ أين أنت يا من ستقلّم شجرة المسلمين من الأغصان اليابسة التي منعت من أن تعطي الثمار ؟! هل أنت لا تزال في عالم الأصلاب ؟

انظر كيف نبذل جهوداً شاقة مضنية للتغلب على الأوهام ، ولتكن لك هذه الجهود سابقة ، تساعدك على تحصيل القدرات الفهمية للإشراف على هذه الجنة التي أصابها الإهمال من أصحابها ، والإفساد من آخرين مختلطين .

٣ ـ الإرادة كانت قدرة :

تتولد الإرادة في صورة قدرة لاختيار الهدف الأفضل ، وتتولد القدرة في صورة قدرة لكشف الوسائل لتحقيق الهدف ، فكما أن الله خلقنا من زوجين ، كذلك خلقنا من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء ... كذلك القدرة والإرادة زوجان خُلقا من نفس واحدة ، ثم خلق منها زوجها وبثّ منهما أعمالاً كثيرة ناجحة وصالحة ..

خلق الله آدم ، ثم خلق منه زوجه ثم كان رجال ونساء .. وخلق الله القدرة ، ثم خلق منها زوجها الإرادة ثم كانت أعمال كثيرة ..

فالأصل القدرة ، ثم الإرادة التي تتفاعل معها ، فالقدرة على

الإرادة ، مثـل القـدرة على الشم فمنهـا تنشـأ إرادة الشم .. والأصـل أن يفهم الإنسان ثم يريد ، هـذا هو الأصل ، وإن كان في الإمكان حصول العكس أحيـانـاً ، كما أن أصل اللاشعور شعور سـابـق ، كـذلـك أصـل الإرادة قدرة سابقة .

والقدرة ـ بمعنى إمكان فهم الأفضل مما هو متـاح للإنسـان ـ هي التي تُحدث الإرادة عند الإنسـان ، وعلى هـذا يمكن أن نقول : القـدرة تلد الإرادة وتعود الإرادة فتـدفع إلى طلب الصـواب والـزيـادة منـه ، وازدياد الصواب يساهم في بلورة الإرادة فتقوى ، وهي بـدورهـا تـدفع إلى تحصيل القدرات ، وهكذا يسير الأمر بعد ذلك ، وهكذا نكون قد فهمنا البدء ، وفهمنا التقدّم . وبعد البدء والتقدّم إمـا التوقف والتقهقر أو الاستمرار والتقدم .

فهمنا كيف يتم البدء والتقدم ، ولكن كيف يحدث الانتكاس :

﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ [يس ٣٦/٦٨] .

إن الإشارة في الآية إلى الحياة العضوية الفردية . وأمـا في الحيـاة العضوية الاجتماعية ، فإن الانتكاس يتم بأن ينشأ قوم لا يكون واضحـاً لـديهم أمر العـلاقـة (التسخيريـة) ـ بلغـة القرآن ، أو (السببيـة أو الجـدليـة) بلغـة أخرى ـ بين القـدرة والإرادة . فيزهـدون في العلم

أو يقتصرون على جانب منه ، فتبقى الإرادة عزلى عن قدرتها وتبدأ في الضمور ، وهكذا يقلّ العلم ، فتقل الإرادة كما قال رسول الله ﷺ :

« إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبقِ عالماً اتخذ الناس رؤساء جهّالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا »[1] .

ويمكن ملاحظة ذلك الآن حيث نجد الذين يملكون إرادات صحيحة ، ويتحسّرون على انحسار مبادئ الإسلام من النفوس ، ويتألمون بصدق ، ولكنهم لا يعلمون كيف يحققون ما يريدون . فمع تألمنا يحدث مالا نريد وذلك راجع إلى ذهاب العلم أي ذهاب الصواب وذهاب القدرات .

وهناك من يقول : « إن انهيار الأمم يصاحب توسعاً في العلم » . إنّ هذا التوسع ظاهري ، لأن علماً أساسياً قد فُقِدَ فسبَّب فقده الانهيار . ومثال ذلك واضح في أي جهاز يبدأ بفقد القدرة على أداء وظيفته إذ لا بد أن يكون قد اعتراه خلل معين ، وينبغي ألا نخطئ هنا فنظن أن هذا الخلل قد نشأ عن علم لا عن جهل .. وعدم تعميم مثل هذه البدهية على الحياة الاجتماعية هو الذي يُسقِط الأمم ،

(١) رواه البخاري في كتاب العلم .

وينبغي ألا يميل بنا الهوى إلى إدانة من يخاصموننا باسم العلم إلى إدانة العلم نفسه بسبب ادعاءاتهم ، بل علينا أن نكشف الجهل الذي تسبّب في الخطأ . وإلا فأي خطأ أكبر من أن نقول : إن الخطأ من العلم ، فهذا تناقض صريح . ولكن إن أقررنا الذين يفرحون بما عندهم من شواطئ العلم نكون في ذلك الوقت في الصحارى وليس في لجج العلم وبحره ، وتقوى بذلك شوكة الجهل البسيط بجهلنا المركب . إن العلم لا يكون سبباً للضلال ، وإنما نقص العلم سبب الضلال . ويجب أن نكشف ما حسبه الناس علماً على حقيقته ، فنبيّن أنه لا يزيد عن كونه ظناً أو علماً ناقصاً غير كامل . ولذلك نسوق ما جاء في مجلة اليونسكو (ديوجين ـ مصباح الفكر ـ العدد ١٩٧٢/١٩ في مقال لمحمد أركون) :

« ... وفيما يتعلق بالغرب نراهم يبذلون الآن جهوداً دائبة لتحرير العلم من منهج ديكارت ، ثم إن تقدم العلوم اللغوية وعلم النفس والتاريخ والأنثروبولوجيا ـ البشريات ـ وبخاصة علم الأحياء من شأنه أن يجعل المذهب الماركسي أكثر مرونة ، وتجري بحوث جادة للقضاء على الآلهة الزائفة التي عبدها العقل بإخلاص ، ولا يزال يقدسها .. وبدلاً من تقسيم العلم إلى : أ ـ نظرية تقوم على الفروض الميتافيزيقية . ب ـ تطبيق يترك أمره للمهندس والعامل . يسود الاتجاه الآن نحو ما يسمى بالعلم العملي أي : الجمع بين النظرية والتطبيق ، وهذا الموقف الجديد

الذي يقفه العقل أمام نفسه يفرض عليه أن يعيد النظر في تاريخه كله ، لا ليرفض هذا التاريخ بغطرسة وكبرياء ، بل ليفهم عمليات هذا التاريخ على نحو أفضل ، فيستطيع ـ على سبيل المثال ـ أن يفسر لنا كيف ربط مصير النفس الإنسانية بهيمنة الفكر الذي يزعم أنه يستطيع تعليل كافة الحقائق بمقتضى بعض القوانين المنطقية المتناسقة . على أن هذه الجهود تستهدف تقويض الصرح القائم ، والتي يجب أن تسبق كل عمل على أساس أنه لا يمكن أن تبدأ إلا في الغرب نفسه ، ذلك أن جميع الباحثين في الغرب ، لم يتحولوا عن موقفهم ، ولم يغيروا من أنفسهم ، وكل ما تم إحرازه من تقدم في هذه السبل لم يمس جوهر الثقافة العلمية التي لا تزال تتسم في كثير من النواحي بخصائص فلسفة التنوير . ولم يقم الغرب بأي عمل حاسم حتى الآن إزاء الحضارات الأجنبية . وفيما يتعلق بالإسلام نلاحظ في فرنسا مثلاً قلة اهتمام بالدراسات العربية ... » .

إن ما ظنه هذا الكاتب محاولة للتحرر من منهج ديكارت ، ليس في حقيقته إلا تعمياً لهذا المنهج ، وذلك بالانتقال من عالم الآفاق إلى عالم الأنفس ، والتأكيد على أن :

برهان العلم في نتائجه التي سمّاها القرآن الكريم (العاقبة) : ﴿ وَالعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه ١٣٢/٢٠] .

وهذا ما يظهره قول عيسى عليه السلام حين سئل : كيف نعرف الأنبياء الصادقين من المتنبئين ؟ قال : « من ثمارهم تعرفونهم »[1] . وليس هذا ذرائعية العاجلة ، بل ذرائعية الآجلة :

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى ١٦/٨٧-١٧] .

فما هو خير وأبقى هو البرهان الصحيح ، فمن شاء أن يسميه ذرائعية فليسمه ، ومن أراد أن يسميه براغماتية فليسمه ؛ ونحن نسميه بما سمّاه الله تعالى : ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أي أن الحق هو خير وأبقى ، وما هو خير وأبقى هو الحق .

لقد أخذ العلم يتوسع ويكشف البراهين في الآفاق والأنفس كما وعد الله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصّلت ٥٣/٤١] .

فالإيمان بالله واليوم الآخر علم وأي علم ، بل هو رأس العلم ببرهان أن من يؤمن بالله واليوم الآخر هو الذي يعطي في الدنيا - أيضاً - الخير والأبقى ؛ وهذا البرهان لا يمكن أن يرده أحد إذا قام

(١) إنجيل متى - إصحاح ٧ - فقرة ٢٠

البرهان عليه أنه خير وأبقى . إن آيات الآفاق والأنفس تدل على أنه خير وأبقى ، وبقي علينا نحن أن نتمكن من إشهاد آيات الآفاق والأنفس على ذلك ، بالكدح والسعي المستمر والنظر الدائب والتفكر في خلق السموات والأرض .

والقرآن لا يوجهنا إلى غير تأمل ما يقع تحت أسماعنا وأبصارنا من الشواهد على الإيمان بالله واليوم الآخر .

صحيح أن الإسلام فيه غيب ، ولكن برهانه من عالم الشهادة ، ولهذا ينبغي أن نفصل بين معنى هذا الغيب ومعنى الميتافيزيقية التي هي في نظر الغرب أمر لا برهان عليه ولا يخضع لقانون . ونحن المسلمين مكلفون بألا نؤمن بما لا برهان عليه ، ولا بشيء ليس على قانون ثابت . وفي هذا يقول ابن تيمية : « وقد بيَّن سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل ولا تتحول ... والسنة : هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثلما فعل بنظيره الأول »[1] .

﴿ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب ٣٣/٦٢] .

وقد بدأ كثير من كتَّاب العربية يستخدمون لفظة (الغيبية)

(١) ابن تيمية ، الفتاوى : ١٣/٢٠

بالمعنى الغربي أي اللاسننية واللاعملية . كما استخدموا مصطلح (العلم) بالمعنى الغربي ، فوقعوا في ضلال وقصور فهم حين قالوا تبعاً لذلك : إن العلم محايد أخلاقياً . وأي قيمة للعلم إن لم ينتج ما هو « خير وأبقى » ، وإن لم يرفع إنسانية الإنسان ويحقق كرامته[1] .

وإذا ذهبت القدرات تبدأ الإرادات في الذهاب أيضاً ، كما نجد صور ذلك في المجتمع حيث توجهت إرادة البعض إلى إرادات أخرى .. هكذا البدء ، وهكذا الإعادة :

﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء ٨/١٧] ، ﴿ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب ٦٢/٣٣] .

وحينما يستجيب البشر لسنة الله ، تسير الأمور إلى الرشاد :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾ [النساء ١٤٧/٤] .

ولكن هل يمكن إعطاء الإرادة قبل القدرة ؟

إن القدرة على الإرادة غير القدرة على وسائل تحقيق الإرادة ، وإن كانت كلتاهما قدرة . إن عند الإنسان قدرة على تحصيل الإرادة قبل أن تكون لديه قدرة على فهم صوابها وسبل تحقيقها . ومن هذا

(١) إن هذا التعقيب بمثابة إشارات صغيرة على ما يسميه محمد أركون « تقويض الصرح القائم » .

الجانب يمكن أن نرى البشرية أُعطيت القدرة على إرادة المثل الأعلى قبل أن يتيسّر لها معرفة صوابه وإن كان تحقيقه .. ويؤيد هذا قوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آياتَنا في الآفاقِ وَفي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصّلت ٥٣/٤١] .

والمقصود بالحق في هذه الآية هو مجمل ما في الدين من مثل عليا كالإيمان بالله واليوم الآخر والدعوة إلى مساواة الناس ، وإلى فكرة العالمية وإلى سوى ذلك مما نادى به الدين وتقبّله الناس قبل أن تكون لديهم القدرة على إدراك صوابه بأدلة العلم التي سماها القرآن : آيات الآفاق والأنفس . فالناس قد أعطوا هذه الأفكار قبل أن تتيسر لهم وسائل تحقيقها ، لأن القدرات تتكون شيئاً فشيئاً على مرّ الزمان .

وكذلك الطفل يتلقى المثل العليا وقيم الأخلاق بما لديه من قدرة على تلقيها قبل أن يتمكن من فهم صوابها وصحتها وأخذ الأدلة على ذلك .

كذلك الأمر مع البشرية ، فقد أنزل الله على الناس الهدى الذي يمكن أن يتبنوه وتظهر أدلته في كل جيل بما يناسبه من مستويات العلم .

وحين علّق الله أدلة الدّين بآيات الآفاق والأنفس ، فإن ذلك

يدل على بلوغ البشرية درجة النضج في تلك المرحلة ، لأن أدلة الدين لم تعد غيباً : وإن كان في الدين غيب إلا أن أدلته من عالم الشهادة في الآفاق والأنفس ، وهذا ما جعل الدين صالحاً لكل زمان ومكان لأنه وجّه إلى آيات الآفاق والأنفس .

ويمكن أن نضيف إلى هذا كيف أن معنى العلم زاد وضوحاً وسعة ، وبسط آفاقه على مجالات أكثر .

إن دليل العلم عند الناس فيما مضى لم يكن مرتبطاً بالعاقبة ـ كما هو في القرآن ـ وإنما كان مرتبطاً بالاستنتاج العقلي ، بينما أصبح الآن مرتبطاً بالعاقبة ، أي بنتائجه ، وبهذا تغير أو تحدد اتجاهه . وكثيراً ما يخفى هذا التطور الذي حدث للعلم ، فيظن الناس أن العلم ما زال مرتبطاً بالمنطق الأرسطي الاستنتاجي ..

بينما غدا دليل العلم في عاقبة الأحداث . فما هو خير وأبقى من العواقب هو برهان العلم ..

حتى إن موضوع الإيمان باليوم الآخر يعرضه القرآن على أساس العواقب ، فأي إيمان أعطى عواقب خيراً وأبقى فهو أحق ، وعلى هذا جاء قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ ، فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ؛ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرْجُونَ ﴾ [النساء ١٠٤/٤] . إن الألم عند المؤمن

والكافر واحد ، ولكن المؤمن يزيد بأنه يرجو من الله ما لا يرجوه الكافر ، وما دام الإيمان يعطي نتائج طيبة تظهر آثارها في الحياة واضحة ، فإن الإيمان هو عين العلم . وكذلك قوله تعالى :

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ [الذاريات ٢٣/٥١] : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت ٤٣/٢٩] .

وبربط الحكم على الحدث بالعاقبة صار الإيمان باليوم الآخر من العلم الذي يُرى أثره في الحياة العملية اليومية ، وهذا هو العلم التجريبي الذي يمكن إثباته في مجالات مختلفة ، وإنما يحتاج إلى تأمل . فقوله تعالى :

﴿ بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي العَذَابِ وَالضَّلالِ البَعِيدِ ﴾ [سبأ ٨/٣٤] .

نجد أدلة صدقه لا في عالم الغيب وإنما في عالم الشهادة بين جوانح الناس الذين يعيشون على هذه الأرض ، بإظهار ما يعطيه الإيمان للناس من الطمأنينة والتخفيف من الشقاء والعذاب النفسي والضلال الذي يعاني منها من لا يؤمن بالله واليوم الآخر .

وبربط الحكم على الحدث بالعاقبة ، صار العلم بالآخرة في قوة

العلم التجريبي ، وصار مجاله أوسع ؛ فبدل أن يكون مجال العلم التجريبي المخبر الذي تستخدم فيه الأنابيب ، تحوَّل إلى مجال الكون الفسيح وأحداثه التاريخية التي سجلت عواقب الأمور .

وبربط برهان العلم بعاقبة الأمور ، صار من الضروري أن يكون المجتمع الإنساني مستحضراً كل أحداث التاريخ ليستفيد من عواقبها ، ويتأمل كيفية حدوثها ، أي كيفية بدء خلقها :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ؟ ﴾ [العنكبوت ٢٩/٢٠] .

ومن لم يفعل فسيضطر أن يدفع ثمن جهله . ولكن ما جدوى هذا البحث ؟

إن جدواه أن الإيمان سيقدم إلى الناس بالصورة نفسها التي يقدم بها علم الجغرافيا أو الفلك أو الكيمياء أو الفيزياء .. وبذلك يصير الإيمان علماً . وهنا نعلم أن لا إله إلا الله :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ﴾ [محمد ٤٧/١٩] ، ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُو العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران ٣/١٨] .

وما دام الموضوع يبحث على أساس العواقب ، فإن قبول الدين يرجع إلى النظر في عواقبه ، فيقبله الناس كما قبلوا عواقب البحوث العلمية في شتى المجالات بدون أية عقدة عن شخص وزمان ومكان كشفها . هذه القدرات الفهمية ينبغي أن يحصلها العالم الإسلامي ليدخل إلى العالم من جديد وبيده الهدى الذي يخضع للبرهان . وكما أصبحت الكيمياء من أدق العلوم بعد أن كانت نوعاً من السحر ..

كذلك يجب أن يصبح الإيمان ضرورة علمية لا غنى عنها للإنسان ، وذلك حين يظهر الإيمان ومعه البرهان من أحداث التاريخ وعواقب الأمور الماضية والحاضرة ، والتطلع إلى المستقبل :

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص ٨٨/٣٨] .

وهذا الموضوع يحتاج إلى نظر عميق ودراسات مجهدة واسعة يقصّر المسلم عن أداء دوره فيها ، مع أن هذه الدراسات ونتائجها هي ما تنتظره التكنولوجيا الحديثة لكي تتسخر لخدمة المثل الأعلى الذي تبرهن تلك الدراسات على صحته وتخرجه إلى حيّز العلم .

إن الحضارة مقدّمة ممهدة لمجيء المثل الأعلى ـ المبدأ الديني ـ وذلك ما يراه توينبي حين اعتبر أن الحضارة الرومانية بسلامها وطرق مواصلاتها ورقي مؤنساتها كانت مقدمة سارت عليها الفكرة المسيحية

التي حملها المبشرون على الطرق الرومـانيـة الآمنـة ؛ حتى جعلوا رومـا نفسها مركز الكنيسة .

٤ ـ القدرة الأخلاقية الكامنة :

كما أن هنـاك طـاقـة مـاديـة تنشـأ من احتراق الخشب والنفـط وانشطار نواة الذرة ، كذلك هناك مجـال آخر في الخلق الآخر[١] الـذي هو الإنسان ، وفيه طاقات أخلاقية .

إن (انيشتاين) أضاف البعد الرابع وهو الزمان إلى أبعـاد المكان الثلاثـة ، ولكن البـاحث في التـاريخ مثل (توينبي) أضـاف بعـدين للوجود ـ في آخر دراسته للتاريخ ـ وهما : بعد الحياة وبعد الأخلاق .

يقول توينبي : « كيف قدّر لهذا الكتاب أن يكتب ؟ لِمَ يدرس النـاس التـاريـخ ؟ يجيب كاتب هـذه الـدراسـة شخصيـاً بـأن المؤرخ يستجيب ـ في دراسة التاريخ ـ إلى نـداء الله لـه بتتبع خلقـه بـالسعي لمعرفتـه تعـالى[٢] ، والمؤرخ هنـا ـ شـأنـه شـأن كل امرئ ـ سعيـد بـأن يكون له في الحياة غاية يسعى إليها .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ﴾ [المؤمنون ٢٣/١٤] .

(٢) بل يعتبر هنا القول استجابة لقوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ؟ ﴾ [العنكبوت ٢٩/٢٠] .

وللمؤرخ زاوية رؤيا واحدة بين زوايا الرؤيا التي لا تعد ولا تحصى ، وإن أخصّ ماتتميز به مساهمة المؤرخ في التراث الإنساني هو أنه يقدم لنا صورة لإبداع الخالق في حركته الدائبة داخل إطار هو - وفقاً لتجربتنا البشرية عنه - ذو ستة أبعاد .

فإن زاوية الرؤيا للمؤرخ ، ترينا الكون المادي يتحرك منحرفاً عن المركز في إطار ذي أربعة أبعاد من المكان/الزمان . كما ترينا الحياة على كوكبنا تتحرك حركة دائرية في إطار ذي خمسة أبعاد من الحياة/ الزمان/ المكان .. وترينا نفوس البشر وقد ارتفعت إلى البعد السادس بنفحة من الروح القدس وإنها لتتحرك - وهي تمارس ماقدّر لها من التحرر الروحي[1] - إما صوب خالقها أو بمنأى عنه . فإن كنا على حق إذ نرى في التاريخ صورة لإبداع الخالق في حركته الدائبة ، فإننا لن نعجب إذا وجدنا أن القوة الفعلية لتأثير التاريخ في العقول البشرية التي تتماثل فرضاً درجة قابليتها الداخلية لتأثير التاريخ وفقاً للظروف التاريخية لمن يتلقاها ، إذ لا مناص من أن تقوم نزعة حب الاستطلاع بتعزيز القابلية لاستيعاب التاريخ ، ولكن حب الاستطلاع لن يثور

(١) من تتبعنا لما يقصده توينبي من هذه العبارة يبدو لنا أنه يقصد تحرر الإنسان من انفعالاته ، وسيطرته على دوافع البغي والقسوة والعداوة ووصوله إلى العفو والإيثار والحب ... أي الخروج من الحيوانية إلى الإنسانية .

إلا إذا بدت للعيان عملية التغير الاجتماعي واضحة وضوحاً ساطعاً قوياً .. »[1] .

يريد (توينبي) من هذا الكلام أن إرادة الناس تظل كامنة معطلة حتى يروا طريق الصواب لتحقيق هذه الإرادة .. حينئذٍ تنطلق الإرادة من مكمنها ، ويتحرك جهاز الكون بتحرك البعد السادس الذي يسميه القرآن (الخلق الآخر) :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ؛ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ . فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون ٢٣/١٢-١٤] .

وكما نستخدم القدرة الفهمية في تسخير الجانب المادي ، ينبغي أن نستخدمها أيضاً لإقامة الحياة الأخلاقية . وطريق إقامة هذه الحياة هي التي ينبغي أن تصل إلى درجة الوضوح الساطع .

هذا ما يراه المؤرخ في تتبعه لحركة عالم الأنفس ، وهذا ما يأمرنا الله أن نصل إليه بالنظر إلى سنن الذين خلوا من قبل .

---

(١) أرنولد توينبي ، موجز دراسة التاريخ ، ج٤ ، الفصل٤٤ ، ص٢٣٣ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .

والآن هل يمكنك أن تتصور نشوء قدرة جديدة من مستوى قدرة القراءة والكتابة يمكن أن تضاف إلى الإنسانية في جانب من الجوانب لترفع من قدرات الإنسان ؟ يمكنك هذا إذا تصورت البشرية وليس فيهم أحد يقرأ ويكتب مع كون هذه القدرة كامنة في وجودهم ، وكيف كان يمكن لإنسان في ذلك الوقت أن يتصور الحالة التي يصل إليها الإنسان حين تضاف إليه هذه القدرة . وبإضافة قدرة الكتابة للإنسان أضيفت إليه ذاكرة جديدة ، لم يكن للإنسانية أن تتقدم بدونها ، لأن خبراته كانت تموت معه ، فاكتسبت الأفكار والخبرات والتجارب الخلود في الدنيا بوساطة القراءة والكتابة ، ولا يمكن للإنسان أن يتقدم إلا بوساطة الخبرات والتجارب .

علمنا أن الإنسان لا ينتمي في قدراته إلى جيله ، بل يقعد فوق الأجيال السابقة كلها ، والذي جعل هذا ممكناً هو كشف قدرة القراءة . هذه القدرات الكامنة التي أشار إليها محمد إقبال في الحوار الذي تخيله بين الله والإنسان حين قال الله تعالى للإنسان « أثبت قدرة الله فيك »[1] . وهنا نشير إلى القدرة التي يظنها الناس مستحيلة الحدوث ، وهي خروج الإنسان باستخدام القدرات الكامنة فيه من

(١) فلسفة إقبال ، تأليف الأعظمي ، ص ٩٤

توقعات الملائكة فيه إلى ما علمه الله فيه من قدرات كامنة حين قال تعالى رداً على الملائكة :

﴿ إنِّي أعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ٢/٣٠] .

وكما تنمو القدرات لاستخدام الطاقة المادية ، ينبغي أن تنمو القدرات لاستخدام القدرة النفسية ، ولن تصبح القدرات المادية نعمة للإنسان إلا إذا تقدم في القدرات النفسية ، لهذا يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا أمْوَالُكُمْ وَلاَ أوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُم عِنْدَنا زُلْفَى إلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ [سبأ ٣٤/٣٧] .

فالعالم اليوم لا يعرف كيف يستخدم الأرقام إلا في حساب الطاقة والدخل . ولمّا يكمل بعد معرفته لقياس التقدم النفسي .

إن موازين التقدم ينبغي ألا تبقى متعلقة بالدخل المادي ، وإذا لم يكشف الإنسان مقاييس لفهم التقدم النفسي يظل عاجزاً عن تسخير هذا الجانب المهم من الكيان الإنساني - وهو لم يكتسب بعد دقة جانب الآفاق - وكل ما يطرأ على الإنسان من تقدم إنما ينطلق من تغيير ما بالنفس . وكلما تقدم فهم الإنسان في هذا الجانب برزت أهمية الطفولة وما تملك من استعدادات هائلة إذا توفرت لها الأجواء المناسبة .

ولا بد من التميز بين ما يرجع إلى القدرة وما يرجع إلى الإرادة ، وبيان سبب الاشتباه بينهما لأن كلاً منهما يستدعي وجود الآخر . فالقدرات هي التي تكشف أهمية الإرادات ، والإرادات هي التي تبعث على طلب القدرات . فقدرتك على التميز بين الخطأ والصواب تجعلك تريد الصواب .. وإرادتك الصواب تحملك على السعي لاكتساب قدرات من أجل تحقيقه . وبتعبير آخر : إن قدرتك على التميز بين الظلم والعدل تجعلك تريد العدل ، وإن إرادتك للعدل تحملك على السعي لاكتساب القدرات التي تحقق العدل وتحميه .

هذا أمر هام لأنه كلما تقدمت القدرات ولا سيما الفهمية منها في مستوى المادة والنفس ، أمكننا أن نفهم المثل الأعلى المناسب للإنسان ؛ وبذلك تكون القدرات سبباً في التوصل إلى اختيار المثل الأعلى المناسب . وكذلك الإرادات تبعث على السعي لتحصيل القدرات ، فإذا لم توجد إرادات فعلامَ يبحث الإنسان عن القدرات ؟!!

لهذا نجد القرآن يتهم الإرادات إذا لم يَسْعَ صاحبها لتحصيل القدرات المتاحة ، وكذلك يتهم القدرات حين لا تدرك ولا تميز المثل العليا الصحيحة ، فيقول في اتهام الإرادات : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ [التوبة ٩/٤٦] .

أي لو وُجدت الإرادات لوجدت القدرات ؛ ومنه المثل العربي القديم : « لو صحَّ منك الهوى أرشدت للحيل » . أي لو صحَّ العزم لهديت إلى الوسائل المحققة لذلك . وقد جرت عادة الناس حين تفتقد القدرات لديهم أن يتهموا الإيمان بالنقص ، وهذا الاتهام لا يخلو من صواب لأن من شأن الإرادة أن تحمل الإنسان على طلب القدرات إذا توفرت الشروط وانتفت الموانع . والانتباه لهذا ضروري لأن هناك صوراً خادعة .. ولأن شأن القدرات أن تكتشف الحق والصواب والمثل الأعلى الصحيح الذي يولد الإرادات .

فالقدرات تكشف الإرادات الصالحة ، والإرادات تحمل على توفير القدرات . وبعبارة أخرى : الإخلاص يدفع إلى طلب الصواب ، والصواب يولد الإخلاص وينميه . لهذا لَمّا يعجز العالم الإسلامي اليوم عن تحصيل القدرات مع وجود الإيمان (الإرادات) لديه ، يسهل على الذي يريد الاتهام أن يتهم العالم الإسلامي بعدم الإيمان أو عدم الإرادة[1] . وكذلك لما يعجز العالم الغربي عن تحصيل الإرادات مع وجود القدرات ، يمكن أن يقال : لو كان هناك مثل أعلى صحيح أحسن مما هم عليه لاهتدوا إليه بقدراتهم الدقيقة المادية والفهمية . هذه الأمور من المتشابهات التي يخيل للناظرين من أول مرة أنها صحيحة

(١) ويظهر هذا الاتهام في صورة اعتبار هذه المجتمعات مجتمعات جاهلية .

لأنها جاءت في صور القواعد الصحيحة دون مراعاة توفر الشروط وارتفاع الموانع للقدرات والإرادات ، لأنه يمكن أن تحدث موانع تحول دون رؤية القدرات أو رؤية الإرادات .

يقول الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله : « إن أوروبا التي اعتقدت أن العناية قد اختارتها لتستودعها مصائر الإنسانية ، قد أخذ من عصر بوكاشيو - حين كانت حضارتها ترضع في مهدها لبان حضارة العرب - أخذت تتنكر للحضارة الإسلامية تنكراً سهلاً .. وهاك ما قاله أحد الأوربيين في هذا الصدد وهو الدكتور غوستاف لوبون ، فإنه حين أراد أن يختم دراسته عن الحضارة العربية اختتمها بهذا التأمل الحزين :

« لعل القارئ يتساءل : لماذا ينكر العلماء في هذه الظروف تأثير العرب ؟ وقد كان أولى بهم أن يتنزهوا عن اعتبارات التفرقة الدينية ؟

والحق أن استقلال آرائنا وتجردها ظاهري أكثر من أن يكون واقعياً . وأننا لا نكون البتة أحراراً في تفكيرنا كما ينبغي حيال بعض الموضوعات ، فلقد تجمعت العقد الموروثة ، عقد التعصب التي ندين بها ضد الإسلام ورجاله ، وتراكمت خلال قرون سحيقة حتى أصبحت ضمن تركيبنا العضوي ... » .

هذا النص يوضح بصورة غير مباشرة ، ولكنها صريحة موقف

الحضارة الأوربية في وجه العالم الإسلامي منذ بداية التاريخ الاستعماري . وهو موقف يتفق وموقف هذا العالم الإسلامي من أشياء أوربا وأفكارها حين ينظر إليها باحتقار شديد مؤكداً أنه المستقر الوحيد لفضل الله ومواهبه »[1] .

هل آن لنا أن ندخل إلى المشكلة ؟ أم لا نزال ندور حول الموضوع ؟

ما المشكلة ؟ المشكلة هي العمل الإسلامي ، وكيف ينجح ؟

وما دام لا بد لنجاح العمل من قدرة وإرادة ، فهل يملك العالم الإسلامي قدرة وإرادة ؟ وإذا وجدتا فهل توفرت الشروط وانتفت الموانع ؟ وما الشروط ؟ وما الموانع ؟

أقذف بوجهة نظري عن الموضوع بأسطر مع أن الكتاب كان لإثبات هذه الفكرة : إن العالم الإسلامي عنده من الإرادة ما يكفي على الأقل للإقلاع ، هذا من جانب الإرادة . أما من جانب القدرة : فعنده من القدرات والإمكانات (المادية) القدر الهائل غير أن عنده إعوازاً حقيقياً في القدرات (الفهمية) . فإذا استطعت أن أفهمه هذه

---

(١) مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ص ٤٣ ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٦ م .

الفكرة فقط ، فهذا هو كل ماأريد من هذا الكتاب . وإذا فهم الشباب الحائر اليائس هذا فسيتوجه بكل جد لتحصيل القدرات الفهمية التي تنقصه ، وهذا ما سيضعه على الطريق ليخرج من حيرته وقلقه . هذه هي المشكلة في إيجازها ووضوحها . فكيف نعالجها ؟ بل كيف نكشف أن هذه الفكرة مفهومة أم لا ؟ أو أنها معطلة بعوامل أخرى ؟ وهذا ماأردنا بحثه .

٥ ـ أسلوب آخر لتعريف الصواب (القدرات) :

الصواب هو كشف العلاقة السليمة ، سواء كانت هذه العلاقة بين الخالق والإنسان ، أو بين بني آدم بعضهم مع بعض ، أو بين بني آدم والآفاق (الكون بما فيه من مادة ونبات وحياة) ، وهذه العلاقات الثلاث هي :

١ ـ علاقة الإنسان مع الخالق (العبودية) :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات ٥١/٥٦] . ﴿ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ، ألا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر ٣٩/٢ـ٣] .

٢ ـ العلاقة بين بني آدم فيما بينهم (العدل والإحسان) :

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النحل ١٦/٩٠] . ﴿ وَلاَ

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى ألاَّ تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [المائدة ٨/٥] .

٣ ـ علاقة الإنسان مع الكون (التسخير) :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ، إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية ١٣/٤٥] .

والطريق التي توصل إلى كشف العلاقات السليمة هي العقل أي القدرة التفكيرية عند الإنسان :

﴿ إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤولاً ﴾ [الإسراء ٣٦/١٧] .

والمسلم العادي حسبه دليلاً على هذه العلاقات ، آيات الله التي سقتها من كتاب الله تعالى . ومن أراد دليلاً غير ذلك فعليه أن ينظر في آيات الله في الآفاق والأنفس ، ليرى مصداق ذلك ؛ لأن آيات الآفاق والأنفس تشهد لآيات الكتاب .

والمسلم مأمور بأن يرى آيات الله في الآفاق والأنفس ، وأن يسير في الأرض ليرى عواقب العلاقات السليمة أو الخاطئة ، عواقب (المصدقين) و (المكذبين) لآيات الله :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران ٣/١٣٧] .

وإذا تطلعت نفس المسلم إلى أن يرى سلامة هذه العلاقات التي يقررها الله في كتابه ... وإذا اشتاقت نفسه إلى أن يرى مصداقها في آيات الله في الآفاق والأنفس ، فإن هذا الاشتياق هو ما أزكّيه وأدعو إليه وأكتب من أجله .. ولكن ينبغي على الشباب المسلم المشتاق الناشئ ـ أصحاب الأسماع والأبصار والأفئدة ، أصحاب الكفاءات السليمة ـ أن يجتهدوا ليجعلوا أنفسهم من الذين يُظهرون آيات الله في الآفاق والأنفس للناس . وهذا العمل هو العمل الشريف ، وعمل الربانيين ووظيفة الرسل التي تركوها لنا . وينبغي أن تدرك أيها المسلم القلق على أحوال المسلمين أنه لا يجوز ترك دراسة آيات الله في الآفاق والأنفس للذين يستغلّونها لعلاقاتهم الفاسدة ولمآربهم العاجلة ..

ينبغي أن يستنفر المسلم لرؤية هذه الآيات التي يعرضها الله من خلال خلقه المتتابع في هذا الكون الذي نعيش فيه . كما ينبغي أن أكون صريحاً معك .. إني لا أقدّم لك آيات الآفاق والأنفس ؛ وإنما أدعوك إلى دراستها وأن تستشعر مسؤوليتك في تحصيلها . أدعوك إلى أن تعلم أن سنن الآفاق والأنفس تنتظر الذين يبحثون عنها ،

ولا تظنن أنهـــا استنفـــدت ، وأن تعلم أن عِلْم مــوسى وعلم الخضر - عليهما السلام - معاً مـا هو إلا كنقرة عصفور في بحر : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيــلاً ﴾ [الإسراء ١٧/٨٥] .. وليس معنى ذلـــك أن الله لا يعطي ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [٢٠/١١٤] ، وليس مثل العلم منجماً كلما أُخذ منه دل على سعته .. فالمجال أمامك واسع :

﴿ قُلْ لَوْ كَـانَ الْبَحْرُ مِـدَاداً لِكَلِمَـاتِ رَبِّي لَنَفِـدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ [الكهف ١٨/١٠٩] .

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس

تطبيقات

١ - هل عند العالم الإسلامي إرادة ؟

وقد أجبت عن هذا بنعم .. إنه يملك إرادة ، وعنده إيمان وإن إراداته أن يتحول نظام الحياة إلى نظام الإسلام ، وأن يعيش الناس وفق أوامر الله تعالى .

وكما يقولون : « حين يصبح في وسعك أن تتحدث عن مسألة ما ، فتعرضها بالمقياس ، وتعبر عنها بالأرقام ، تكون قد أصبحت على بعض العلم بهذه المسألة » . وهل أستطيع أن أتعرض لإرادة المسلمين بمقياس وأعبر عنها بالأرقام حتى نكون على بعض العلم بهذه المسألة ؟ إننا لو قمنا باستفتاء واضح بين المسلمين قائلين لهم : ماذا تختارون ؟ هل تختارون أن يطبق عليكم دستور القرآن أم دستور غيره ؟ لو عرض هذا بصراحة دون خوف أو ضغط ، فأرى الأغلبية ستختار أحكام القرآن لا أحكام غيره من الدساتير ، ويمكن أن نتأكد

من هذا بأنفسنا بالقيام بهذه العملية الإحصائية في المدارس والجامعات ، والقرى والمعامل والمعسكرات وفي كل مكان . وقد تختلف النسب من مكان إلى آخر ، ولكن الأغلبية مع أحكام القرآن .. ومع ذلك ليس هذا الوضع ثابتاً ساكناً ، بل قد يتغير لعوامل يمكن ملاحظتها . وربما لو قمنا بهذه العملية الإحصائية قبل خمسين سنة ، تكون النتائج غير ما هي عليه الآن ، وكذلك تتغير بعد خمسين سنة أخرى زيادة أو نقصاً . ولكن الواقع الموجود الآن هو الذي نتوجه إليه ، وهذا الواقع دليل على وجود الإرادة عند أكثرية الأمة . إذن نستطيع القول : إنه يوجد من ناحية الإرادة رأسمال كاف للانطلاق به .

لسنا الآن بحاجة إلى أن نبحث من أين جاءته هذه الإرادة ، والعوامل التي تتدخل في وجودها مع أهميتها أيضاً ؟ لأنه ينبغي أن لا تتوقف الإرادة أيضاً على المصادفات وأمور خارجة عن سلطاننا ، بل ينبغي أن نفهم كيف نوجدها ، وهذا ما أشرت إليه من ناحية التبليغ ، وبأن يصل المثل الأعلى لكل واحد ، وكذلك تعرضنا لهذا في بحث الإرادة كقيمة وكصناعة .

ثم إننا نجد المسلمين عندهم استعداد أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم في

سبيل الله والإسلام ، حتى عند العوام والنساء والأطفال والعجائز . وكل من دقق في الأمور ، يجد أن الأمة فيها خير ، ويظهر منها ما لم يكن يتوقع من التضحية والبذل في المال والنفس . ومع ذلك فإن هذه النقطة قابلة لأن ينازعني فيها من يريد المنازعة ، حيث ينظر إلى الجانب الآخر وهو قلة هؤلاء الذين يبذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله من مجموع الأمة ، وأنا أوافقه على قلة هؤلاء أيضاً على عمومه وأنه لوطلبنا من أكثرية الأمة أن يقدموا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله سوف لا تكون النتيجة مثل نتيجة الاستفتاء السابق في التصويت على أحكام القرآن . قد نجد أكثرية توافق على اختيار الإسلام ، ولكن لا نجد أكثرية تبذل الدم والنفس والمال في سبيل الله . فهل هذا راجع إلى القدرة أم إلى الإرادة ؟ هل الذي يجب أن نعطيهم إياه القدرات ؟ أم الإرادات ؟

أنا أقول : إذا كان الذين يوافقون على اختيار الإسلام مثلاً ٧٠٪ ، والذين يوافقون على بذل المال والنفس في سبيل الله أقل من ١٪ من هؤلاء ، فإن ٦٩٪ أي الباقون لو رجعنا إلى فرزهم مرة أخرى سائلين : لماذا تخلفوا عن بذل المال والنفس في سبيل الله ؟ فإننا سنجد أن ٦٠٪ من هؤلاء قد تخلفوا عن البذل لأنهم لم يستطيعوا أن يروا بذل المال والنفس في سبيل الله يعطي النتيجة التي يريدونها ؛ ولم يكن

السبب عدم إرادتهم الإسلام .. وبعبارة أخرى : هم لا يعرفون الطريقة التي لو بذلوا أنفسهم وأموالهم بها أعطاهم الله النتيجة التي يريدونها ..

وبحسب فهمي وإدراكي لمشكلات المسلمين أرى أن عدم بذلهم ليس راجعاً لعدم الإرادة للبذل والعطاء ، ولكنهم لا يعرفون الطريقة التي لو بذلوا عليها نفعت وأنتجت ..

هذه نقاط دقيقة ينبغي أن لا نتساهل فيها ، وينبغي أن نعرف السبب الذي من أجله يتخلف البذل ؟ هل من عدم الإرادة ؟ أم من عدم الفهم لكيفية تحصيل المراد ؟ فلو تأكد المسلم من تحصيل المراد لبذل نفسه وماله .

نريد معرفة ما يرجع إلى القدرة الفهمية ، وهو ما يتجاهله من لا يقبلون تفسيري . وأريد أن أضعه تحت المجهر لأسباب كثيرة ، لأن تجاهلنا له يؤدي إلى نتائج أخرى كبيرة في مجالات كثيرة ، نرجو أن نوفق إلى بيان بعضها على الأقل إن لم يكن كلها ..

ثم هل من سنة الله أن يطلب منا أنفسنا وأموالنا في سبيله ثم لا يعطينا النصر ؟ أم أن العاقبة للمتقين ؟ ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم ٣٠/٤٧] ، أم إن إحدى الْحُسنيين تقتصر على الشهادة دون النصر ؟

ليس من طبائع الأشياء ، ولا من طبيعة الإنسان أن ينصر مبدأ لا يمكن أن ينتصر . فإذا جهل المسلم كيف يمكن أن ينتصر ، فإن إرادته لا تكفي لحصول النصر ، وإلا فما أسهل أن يريد إنسان النصر !! ولكن للنصر سنناً من خالفها لا ينتصر .. فقد حرم الله المسلمين يوم أُحد النصر لمخالفتهم هذه السنة :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾

[آل عمران ١٦٦/٣] .

وإذا فهمنا هذا ينبغي أن نعلم أن النجاح ليس من الإرادة فقط ، بل من القدرة أيضاً على صنع النجاح . وإذا اشتبه عليك ما يرجع إلى القدرات ، فهو الذي أريد أن أكشفه من نفس المسلم ، كما أحب أن أذكر أن لدى المسلم الآن ميلاً عجيباً لينسب الأمر إلى الإرادات (الإيمان) ، بدل أن ينسبه إلى القدرات مع وضوح الفرق لديه بين (البكّائين) و (المتخلّفين) في غزوة تبوك . ومع وضوح أن العمل لا يمكن إتمامه بدون القدرة والإرادة معاً وأنهما زوجان لا بد منهما ، يحلو لنا أن نغمض أعيننا عن أحدهما ونستغني عنه بسهولة لنقول : إن الذي ينقصنا هو إيمان ، وهو إرادة فقط !! وليس القدرة .. والذين كتبوا عن حزيران ١٩٦٧ مثلاً ، نظروا إلى جانب الإرادات وأهملوا جانب القدرات . ورأوا أن فقدان الإيمان كان سبب

الهزيمة ، لأن الإيمان وحده في رأيهم هو الـذي نصر الصحـابـة الـذين لم يكونـوا يميزون بين الملـح والكافـور .. ومثـل هـذا التحليـل السطحي يترك في نفوس الجيـل أثراً سلبيـاً حين يـوهمهم أن النصر لا يحتـاج لغير الإيمان الصادق ، ولا يحتـاج لفهم دقيق يفوق فهم الخصم ، وحين يرفع عن كاهل الجيل عبء الدرس والفكر فيجعله يوقن أن ما يحتاجـه المسلم ليس النظر الدقيق في فهم المشكلات البشر يـة والأحـداث التي تجري ، وإنمـا الامتـلاء من الإيمـان . والشـاب المسلم يشعر أنـه ممتلئ إيمـانـاً وحمـاسـاً ، وأن تحصيـل الإيـمـان المتحمس لا يحتـاج للسير في الأرض ولا للنظر إلى سِير الـذين خلـوا من قبـل ، ولا لفهم عمليـة تغيير مـا بـالنفس ، وأن أي محـاول للتـأمـل في فهم مشكـلات البشر على مرّ التـاريـخ ، إنمـا هي انصراف عن الـواجب الأول وتضييـع للـوقت فيما لا طائل تحته .

إن ما يستوحيـه القـارئ من تلـك التعليلات ذو أثر شـديـد على النفس فهـو يـؤدي إلى تثبيـط الهمم ، والقعـود عن طلب المعرفـة واكتساب القدرات الفهمية التي يحتاج إليها العـالم الإسلامي ليخرج من محنته .

وإن ما يحتاجـه الشبـاب الإسلامي المعـاصر هو أن يوضح لهم أن

القعود عن تحصيل العلم والمعرفة من أكبر المعاصي الاجتماعية التي عليهم أن يجتنبوها ، كما يجب إخراجهم من حالة الركود النفسي التي لا يشعرون معها بخطيئتهم الكبرى ، وهم يتخلون عن تحصيل قواعد العلم التي توصلهم إلى سنن تسخير المجتمع .

وهناك مشكلة أخرى هي أن هؤلاء الشباب لا يعرفون ماذا يراد بالعلم الذي ينبغي أن يحصلوه ليغيروا واقع المسلمين ، ولذلك يجب أن يوضح لهم أن تغيير واقع المسلمين يحتاج قبل كل شيء إلى تغيير مابأنفسهم ... وهذه مسلَّمةٌ لا يمكن أن نخطو بدونها خطوة واحدة . فالعلم الذي نقصده هو العلم الذي يُمكِّن من تغيير ما بأنفس المسلمين ، ليغير ما بهم وحولهم ، ولك أن تسمي هذا العلم بعد ذلك بما شئت ، فليس المهم هو الاسم ، وإنما المهم ما يوصل إلى التمكن من هذه الوظيفة .. وهي تحتاج إلى معرفة أمرين :

١ ـ ماذا نُغيِّر ؟

٢ ـ كيف نغيِّر ؟

فالأول : يشمل اختيار المثل الأعلى أو تصحيحه . وإلى هذا انصرف جهد العالم الإسلامي منذ قرن أو أكثر في صورة دفاع عن الإسلام أو حذف ماليس منه .

وأما الثاني : فلم يبذل فيه جهد يذكر ، فما زالت دراسات المسلمين قاصرة عن بحث موضوع تغيير ما بالنفس .

إذن : لِمَ لَمْ تصنع إرادات المسلمين قدراتهم ؟ هذا الكتاب مبني على أن الذي يعيق سير المسلمين في هذا الوقت هو نقص القدرات وليس الإرادات ، وهذا ما سبق تقريره بالقدر الذي تيسر .

وكذلك من جملة ما تقرر : أن الإرادات تبعث على تحصيل القدرات ، وقد استشهدنا بقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ [التوبة ٩/٤٦] .

على أن الإنسان إذا أراد شيئاً سعى لإعداد وسائله ، وأن من لا يُعِدُّ الأسباب لما يريد ، يتّهم في صدق إرادته ، وهذا صحيح بصورة عامة .

وهنا يتكرر السؤال السابق : لِمَ لَمْ تصنع إرادات المسلمين قدراتهم ؟ وأنت تزعم أن المسلمين عندهم إرادات ، وأن الإرادات تبعث على تحصيل القدرات . فكيف إذن تفسر الموضوع ؟ إن هذا الفهم يبيّن أن الذي ينقصنا الإيمان (الإرادة) لا القدرة !!

أقول : نعم . هذا يحتاج إلى التفسير والتوضيح والتفصيل ،

وعدم توضيحه وتفصيله هو الذي يعقد المسألة ، وإن تفسيره يحتاج إلى توضيح أمور .

أولها : أن للإرادة شروطاً لا بد من توفرها توجد القدرة ، ونوضح ذلك بمثل المرأة التي تريد الخير لابنها ، وهذا الخير نفسره بالصحة الجسدية ، فليس من طبيعة الأمهات عدم إرادة الخير لأولادهن ، ومع ذلك فلعدم معرفتهن يخسرن صحة أولادهن ، وعدم معرفتهن قد يكون موغلاً في الجهالة بحيث لا يخطر على بال الأم أن هناك وسائل معينة عليها أن تقوم بها للمحافظة على صحة الطفل ؛ غير الأمور التي هي في حدود معرفتها السطحية ، وما خرج عن ذلك فلا يخطر في بالها يبعثها على الطلب الجدي للمعرفة .

وهكذا شأن العالم الإسلامي في مشكلة صحته الاجتماعية ، فهو مكتف بما عنده من الأمور التقليدية لحفظ سلامة المجتمع دون أن يخطر في باله أن هناك أموراً علمية فنية دقيقة جديدة في الحياة في حاجة إلى أن يحصلها حتى يقي نفسه المشي مكباً على وجهه .

ونقدم صورة أخرى تزيد الأمر وضوحاً : عندما نرى - مثلاً - في بعض أحياء العاصمة طفلاً يمشي على يديه لإصابته بشلل الأطفال ، بينما الشخص المختص لإعطاء اللقاح المضاد لهذا المرض في وسط المدينة

قاعد ينتظر ليقوم بالتلقيح مجاناً ، ومع ذلك فأبوَا الطفل لا تحملها إرادة الصحة لابنهما على أن يقوما بتلقيح طفلهما !!

إلى أي شيء يرجع هذا الحدث ؟ هل نرجعه إلى عدم إرادة السلامة للطفل ؟ وهل نتهم الأم بأنها فاقدة لعاطفة الأمومة وأنها خائنة ؟ أم ترجع إلى عدم الفهم للموضوع مع وجود الإرادة ، ومع وجود الحب الكامل للسلامة ؟ إن عدم العلم والمعرفة بما ينبغي أن يقوما به لتحصيل السلامة ، هو الذي منعهما من ذلك . فإذا أردت أن تفسر هذه الحادثة أيضاً بأن سبب عدم تلقيحهما لطفلهما هو عدم إيمانهما بجدوى التلقيح ، حتى في هذه الحالة لا يكون السبب هو عدم إرادة السلامة للطفل ، بل عدم العلم بما ينفع الطفل ، أو غموض هذا الموضوع ، أو إيمانهما بالتوكل على الله في نجاة ابنهما . إن تحليل هذه الحالة مفيد جداً لبيان مكان العلة في المشكلة ، لأن العوامل التي تحول دون تلقيح الطفل : إما الجهل المطبق وعدم وجود أية فكرة عن الموضوع ، أو الغموض الذي يحيط بالموضوع مما يجعله ملتبساً ولا يرفع الهمة لتحقيقه ، وإما التوكل على الله في أن تحصيل النجاة برحمة الله تعالى .

فالعاملان الأول والثاني نريد أن نزيلهما من نفس المسلم فنغير

مـا بنفسـه من الجهـل والغمـوض . وأمـا العـامـل الثـالث : فنريـد أن نصححه بإضافة (اعقل) إلى (توكل) .

هذا المثل الذي سقناه يلقي ضوءاً جديـداً إلى حـدٍّ مـا ، ويظهر الموضوع ليس بالشكل البسيط الـذي نتصوره بحيث يكفي مجرد وجود الإرادة لتتحقق القدرة . فتحقق القدرة بحـاجـة إلى توفر شروط وزوال مـوانـع لتُنجب قـدرة . وهـذا هـو الـذي أريـد أن يتحقـق في العـالم الإسلامي لتقوم فيـه الإرادة بوظيفتهـا ، فبـدل أن نقول : إنـه لا إرادة عنده ، أو لا إيمان عنده ؛ نقول : إن إرادته قـد عُطِّلت بمـا أصـابهـا من فقدان للشروط . ونـذكر هنـا أيضـاً أن فقـدان المقيـاس الـذي نميز بـه النـافـع من الضـار يـؤدي إلى الاستـرابـة والخـوف والانكمـاش من كل جديد ، وإن كان هذا الجديد يحمل النفع ، ولعلنا نذكر مـا كان يجري في بعض قرانـا من استرابـة النـاس من عمليـة التلقيح خشيـة أن يكون وراءها ضرر مقصود ، فالناس الذين عـاشوا في ظروف اجتماعيـة سيئـة استغلاليـة يتوجسون خيفـة من كل شيء ويفسرون كل حـدث بـإرادة السوء دون الرجوع إلى مقياس إلا مقياس سوء الظن الموروث .

وبمقـدار مـا يـدرك الإنسـان سنن الله ويعمـل بحسبهـا ، فـإنـه يتخلص من نفسيـة التشـاؤم والانكمـاش ، وينطلق في طريق حيـاتـه متفائلاً على بصيرة .

ويمكن أن نتصور هذه الحالة في مستوى العالم الإسلامي ، حيث أصبح المسلمون يستريبون من كل علم أو دعوة ويرون في ذلك خطة للهلاك أو الإيقاع بهم . نلاحظ ذلك كثيراً في الدراسات والتعليقات التي تمثل الموقف السلبي تجاه كثير من الأفكار والأبحاث والأحداث ، لأن أصحاب تلك الدراسات فقدوا المقياس الموضوعي ، واكتفوا بردود فعل نابعة من المقياس الذاتي الذي كوَّنه الخوف أوقات الجهالة .

ونتيجة لهذا الموقف فإن العالم ينظر إلى المسلم نظرة إشفاقٍ وأسى ، أو شماتة وإدانة ، ولا بد للمسلم ليتخلص من هذا أن يوسع أفقه ليصحح موقفه من مشكلات الحياة فيكون على بصيرة وبيِّنة .

ثانياً : ومما يعطِّل إرادة المسلم ويمنعها من أن تعطي ثمارها ، فهمُ المسلم الخاطئ لقدر الله ، وهذا الموضوع من الخفاء والتعقيد ما يحتاج إلى دراسة تحليلية دقيقة لكشف مدى العطالة التي تنتج عن هذه النظرة . إن المسلم يرى أن إرادته ليست مما يتحقق بجهده ، وإنما يحققها الله تعالى . ولَمَّا علَّق المسلم تحقيق إرادته على شيء آخر غير جهده ، أصبح لا قيمة عنده لهذا الجهد ، فزهد في بذله . والموضوع - إلى هذا الحد - بسيط سهل تناوله ، ولكن الصعوبة تبرز حين نبدأ في تعميم هذه القاعدة أو البحث عند الذين يعطِّل فهمُهم هذا الموضوع بهذا المستوى قيمة جهودهم . إن المشكلة ليست فقط في مستوى عوام

المسلمين ، بل في مستوى قياداتهم ... ومعاناة هذا الموضوع جعلت سيد قطب رحمه الله يكتب في كتابه (هذا الدين) : « هناك حقيقة أوَّلية عن طبيعة هذا الدين .. حقيقة أولية بسيطة ، ولكنها مع بساطتها كثيراً ماتُنسى ولا تدرك ابتداء فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين ... إن البعض ينتظر من هذا الدين ـ مادام منزَّلاً من عند الله ـ أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب ، ودون أي اعتبار لطبيعة البشر .. » .

وأقول هنا : إن المسلم يريد ويتمنى بكل صدق وإخلاص أن يتحقق في واقع الحياة المنهج الإسلامي والشريعة الإسلامية ، ولكن هذه الإرادة وهذه الأمنية الصادقة ، تظل أمنية في قلب المسلم لا تبعثه على فكر ولا على عمل ، لأنه ينتظر أن يتحقق هذا الدين ـ مادام منزلاً من عند الله ـ بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب ودون أي اعتبار لجهد البشر .

هذا الموضوع جدير بالبحث والتوضيح لأن غموضه (أي غموض كيفية تحقيق إرادة المسلم) ، يعطِّل قيمة الإرادة والنية الصالحة ، فتبقى الإرادة لا تحمل على السعي لإيجاد القدرات .

ومسلم اليوم لا يشعر أنه يحتاج إلى شيء يقوم به في سبيل دينه

غير أن يقدم نفسه وماله . وحين يفعل هذا يصاب بزهوّ يسدُّ أمامه منافذ الفهم ، فلا يشعر أن هناك جهداً آخر أفضل مما وصل إليه ، وهذه الحالة النفسية تعطل السعي إلى التكامل وطلب المزيد من الصواب ، كما تعطل عملية النقد والتصحيح ، إذ إن بذل المسلم لنفسه وماله بهذا الشكل لا يمكِّنه من كشف جوانب النقص في أفكاره وفهمه للأمور . ولا يخطر في البال أنه يمكن أن يصل إلى هذه الدرجة الممتازة من التضحية العوام والعجائز وحتى الأطفال دون أن يؤثر في ذلك ضحالة أفكارهم لحلّ المشكلات .

ثالثاً : من أسباب ما يعطّل إرادة المسلم ، فهمه الخاطئ لـ : ﴿ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ ؟ [العنكبوت ٢٩/٢٠] . وهذا السبب متصل بالسبب السابق ، وإن كان له وجه آخر ، وهو أن المسلم بحسب مواريثه الثقافية خلال القرون صار ينظر إلى أحداث هذا الكون نظراً يخلو من رؤية الأسباب التي تساعده على وجود الأحداث ونموها ، فلا يرى القوانين والسنن التي تعمل في أحداث الكون ، ولا يرى المؤثرات البعيدة والقريبة التي ساهمت في حدوث الأوضاع التي يعيشها ... وحتى فكرة صلة الحاضر بالماضي والمستقبل ، ليست واضحة لديه ، ولذلك تراه يُحوّل الأحداث بكل هدوء ورضا إلى إرادة العلي القدير ، و يتبرأ من حوله وقوّته إلى حول الله وقوّته . واستخدام

هذه الحوقلة في غير مكانها يبعدها عن أن تكون كنزاً من كنوز الجنة كما ورد في الحديث الشريف ، ويجعلها كلمة استرجاع (إنا لله وإنا إليه راجعون) تقال في موطن الضعف والاستسلام ، لا كلمة استعانة ؛ وهذا ما جعل أحد الصالحين ينذر قائلها الذي استخدمها في معنى الاسترجاع .

حاولنا أن نثبت فيما سبق وجود الإرادة عند المسلم ، ولكن علينا أن نوجه هذه الإرادة الوجهة الصحيحة لتعطي نتائجها من السعي والحركة لإيجاد القدرات .. وهذا التفسير للمشكلة يضع المسلم في طريق الحل بدل أن نحاول نفي الإرادة عنه ، وهو يشعر أنه يملكها .. وماذا نرفع إن لم نعرف كيف نرفع ؟ وكيف نصنع ؟ هذا هو العلم الذي أريده منكم ولكم أيها الشباب المؤمن .

٢ ـ عمى الألوان :

إن كان بعض الناس مصابين بعمى الألوان فلا يرون إلا بعضها ، فإن هناك عمى فكرياً لا يمكن معه أن يفهم الإنسان الأمور والأحداث متكاملة . وهذا العمى الفكري هو الذي يتضمنه قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة ٢/٧] . ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى

قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الأنعام ٦/٢٥، والإسراء ١٧/٤٦] . ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف ٧/١٧٩] . هذا المرض الفكري لا نُبصره ، ولا يقع تحت مجال رؤيتنا . وكما أن البصر يعجز عن الرؤية في الظلام وعن رؤية ما فوق الأشعة ، فإن الفكر يصاب بمثل هذا العجز - وليس هذا الجانب كشفاً جديداً - وتكرار آيات القرآن في هذا المجال ، يجعل الذي لا يعلم يتساءل عن سرّ هذا التكرار ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام ٦/٦٥] .

إن هذا الموضوع قد صار معروفاً ، ولكن نحن المسلمين مصابون بعمى ألوان فكري لا ندرك بسببه كثيراً من الأفكار : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج ٢٢/٤٦] .

وهنا ما يصدم المسلم الذي رسخ في فكره أن عمى القلوب خاص بالكافر ، وكأن المسلم يملك المناعة لمجرد انتسابه إلى الإسلام .. إن هذه السذاجة هي نفسها أبرز مظاهر عمى القلوب .

وقد يكون المسلم مستعداً لبذل ماله ونفسه في سبيل الله ، ولكنه يجهل السبل القويمة الجدية لهذا البذل فيظل يتخبط ويقع في حيرة من أمره . إن عمى القلوب لا يتمثل في حيرة هؤلاء البسطاء ،

ولكنـه يظهر بشكل أوضح في عقول الخـاصـة التي تجهل السبل القويمة لاستخدام أنفس هؤلاء وأموالهم التي يجودون بها .

هنا يبلس المتفيهق ، ويرتد البصر خـاسئاً وهو حسير ، وتُهدر الطاقات من مغفلية أصحابها لا من عدم وجود الطاقات ، ولا من سوء نوايـا أصحـابها وعـدم إرادتهم الخير لأمتهم ، بل من عمى بصـائرهم عن كيفية حلّ المشكلة .

لـو أتينـا بـأقـوى الرجـال عضـلات ، وأكثرهم صلاة وصيـامـاً ، وأحبهم لنصرة قضية المسلمين ، وهو لا يعلم عن المصارعة اليابانية شيئاً ، وأدخلناه حلبة الصراع مع إنسان شديد الكفر ، لكنه أوعى منه في هذا الفن ، فإن نتيجة المصارعة مأسـاة لا نحتـاج إلى ذكرهـا . فـالإرادات والقدرات العضلية تدحرجت أمـام القـدرات الفهميـة .. هـذا مـا يـأبى العالم الإسلامي أن يفهمه ويبصره ويعترف به . ولا بد من لفت النظر إلى أن المؤمن الذي يفقـد قـدرة مـا ـ قـدرة المصـارعـة مثلاً ـ لا يصبح كافراً ، وإنما مؤمناً مقصراً .

ينبغي أن نحلل الموضوع بـدقـة أكثر ، لنعلم مـاذا ينقص المسلم : هل هو الإيمان والإرادة حقاً ؟ أم تنقصه القدرات الفهمية التدريبيـة ، أم القدرات المادية ؟ وإننا إذا أخطأنا في التشخيص ، فإن ذلـك يؤدي إلى نتائج وخيمة . وهنا أريد أن أنبّه إلى أمرين :

الأول : الدَّمج الذي يقوم به المسلم بين القدرة والإرادة ، بين الإيمان والإسلام . إن الإيمان هو الإرادة ، وإن الإسلام هو القدرة ، ولكن كما يقول ابن تيمية : حين يتعرض لبحث النزاع حول : هل الإيمان هو الإسلام ؟ والإسلام هو الإيمان ؟ أم أن كل واحد منهما يفترق عن الآخر ؟

ويخرج ابن تيمية من البحث بأنه إذا أُطلق أي منهما شمل الآخر ، ولكن إذا أردنا أن نبحث كلاً منهما بدقة نجد أحدهما يختلف عن الآخر كما ورد في سورة الحجرات :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا . قُلْ : لَمْ تُؤمِنُوا ، وَلَكِنْ قُولُوا : أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات ١٤/٤٩] .

قد يكون الرجل مؤمناً كاملاً ، ولديه استعداد أن يبذل نفسه وماله في سبيل الله ، ولكن لا يملك القدرات الفهمية حتى يكون قاضياً أو مفتياً ، وليس هذا فرض عين على كل واحد ، وإنما هو فرض كفاية ؛ ولكن إن حصل تقصير في فرض الكفاية وقعت المسؤولية على الكل ، وليس على الكل بمستوى واحد ، بل على من هو أقدر لتحقيقه ، ولهذا ألوم الشباب الذين لا يسعون لبلوغ المستوى في الفهم الذي يحتاج إليه هذا العصر .

وموضوع اختلاط المسلم بالمؤمن بحث طويل والنزاع فيه كثير ، وإنما سقت رأي ابن تيمية لما فيه من اختصار وحل لمواطن النزاع بتطبيق هذه القاعدة . فقد يكون الرجل مسلماً في الظاهر وليس عنده الإيمان كما قال الله تعالى عن الأعراب ؛ وقد يكون الرجل مؤمناً وليس عنده الإسلام إما لإهماله كالعُصاة الذين لا يقيمون أحكام الإسلام ، وإما لعجزه كالمسلم الفقير الذي لا يحج ولا يزكي . والأول هو الذي يترك الإسلام إهمالاً ، لا عدم إيمان ؛ فهذا الذي تنازع فيه المسلمون ومن أجله افترقوا إلى فرق كالخوارج والمعتزلة وأهل السنة ، وكل طائفة تحتها طوائف إلى درجة أن العدد لا ينضبط لكثرة الاختلافات . فالخوارج يكفّرون بالمعصية ، والمعتزلة يجعلونه لا كافراً ولا مؤمناً بل هو في منزلة بين المنزلتين ، وأهل السنة يجعلونه مؤمناً عاصياً ، ولا يكفرون مؤمناً بمعصية . وابن تيمية أطال الحديث عن هذه البحوث . وأقول : إن كثيراً من الشباب المتحمس اليوم يذهبون من غير شعور منهم إلى رأي الخوارج ، ويصيرون إلى هذا الرأي تحمساً وحرقة لأجل الإسلام ، وليس اعترافاً منهم برأي الخوارج .

وهنا ينبغي أن ننبه إلى أمر ربما يفيد ، وهو أن إطلاق الكفر والنفاق على مرتكبي المعاصي كتصديق الكاهن ، حكم عام :

« من أتى كاهناً أو عرّافاً فصدّقه بما يقول ، فقد كفر بما أُنزل على محمد »[1] ، « ومن حلف بغير الله فقد أشرك »[2] .

هذا الإطلاق حكم عام لأن الشخص المعين الذي وقع منه هذا لا يشترط أن يكون كافراً ، وقد يحكم بعضهم بقتل من أصرَّ على ترك الصلاة ثم يختلفون هل قتله كفراً أم حداً أم سياسة ؟ والكل متفقون على أن هذه الأحكام أحكام دنيوية ، وأمره في الآخرة إلى الله .

وذكر الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار عند قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة ٥/٤٤] . قال : « إن حكيم بن جبير سأل سعيد بن جبير عن قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ ... وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ ... وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ ... ﴾ [المائدة ٥/٤٤، ٤٥، ٤٧] ، قال : فقلت : زعم قوم أنها نزلت على بني إسرائيل ولم تنزل علينا ، قال : اقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال : لا ، بل نزلت علينا ، ثم لقيت مقسماً مولى ابن عباس فسألته عن هؤلاء الآيات التي في سورة المائدة ، قلت : زعم قوم أنها نزلت على بني إسرائيل ولم تنزل علينا . قال : إنه نزل على بني إسرائيل ونزل علينا ، وما نزل علينا وعليهم فهو

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤٢٩/٣

(٢) رواه الترمذي في كتاب النذور .

لنا ولهم . ثم دخلت على علي بن الحسين فسألته ـ وذكر أنه ذكر له ماقاله سعيد ومقسم ـ فقال : قال صدق ، ولكنه كفر ليس ككفر الشرك ، وظلم ليس كظلم الشرك ، وفسق ليسْ كفسق الشرك . فلقيت سعيد بن جبير فأخبرته بما قال ، فقال سعيد بن جبير لابنه : كيف رأيته ؟ قال : لقد وجدت له فضلاً عظيماً عليك وعلى مقسم . والمراد أن عدم الحكم بما أنزل الله أو تركه إلى غيره ـ وهو المراد ـ لا يُعَدُّ كفراً بمعنى الخروج من الدين بل بمعنى أكبر المعاصي »[1] .

ومما يتصل أيضاً بهذا الموضوع وتنازع فيه المسلمون : هل الإيمان يزيد وينقص ؟

لعل وجهة نظر الذين قالوا : إن الإيمان يزيد وينقص ، ترجع إلى أن الإرادة يمكن أن تحدث مرة واحدة ، مثل الذي يتحول إلى الإسلام فجأة ، كما تحول عمر وحمزة رضي الله عنهما من الكفر إلى الإسلام ، وصارت إرادتهم كلها للإسلام ، وتحولت تحولاً كاملاً دفعة واحدة ، فهذا التحول لا شك فيه . ولكن يبقى للإنسان بعد ذلك أن يزيد معرفته بأحكام الإسلام . فإذا آمن أو تحولت إرادته إلى الإسلام ، فقد صار عنده استعداد لقبول كل أمر يأمر به الله فهو سلّم

(١) رشيد رضا ، تفسير المنار : ٦/٤٠٤ ، الطبعة الأولى ، ١٣٣١ هـ .

بهذا ، ولكن لم يعلم بعد كل ماسيأمر أو ما أمر به الله ، فإذا علم نفَّذ ، فهذا إيمان كامل . ولكن ليس معنى هذا أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، ولكن الإيمان أكثر ثباتاً من الإسلام ، وأسرع حصولاً ، وليس معناه أنه كتلة واحدة لا تقبل الحركة ، بل يزيد وينقص ويختلف من شخص لآخر ، وله صلة بالإسلام أيضاً ، فكلما ازداد الإنسان علماً ومعرفة ازداد إيماناً ، وازداد طلباً للفهم وتنفيذاً للحق .

والأمر الثاني الذي بسببه تختلط على المسلم القدرة والإرادة : هو أن الله سبحانه وتعالى يأمر بها جميعاً ، يأمر بالإيمان وإرادة وجهه تعالى وابتغاء مرضاته ، كما يأمر بالعلم والإعداد والتبصر والفهم والتفكُّر في آيات الله في الآفاق والأنفس والسير في الأرض والنظر إلى سنن الذين خلوا من قبل ، فكون الشيء موجوداً في القرآن لا يعني أنه موجود عند المسلم حتماً وضرورة . فإذا كان الله يأمر بإخلاص الوجه له وعبادته وحده ، فكذلك يأمر بالسير في الأرض ، وبفهم سنن الحياة وسنن الذين خلوا من قبل . إلا أن هذين الأمرين (الإخلاص والصواب) لم يتحققا في حياة المسلم بشكل متساوٍ فربما يقر المسلم بالأمر الذي في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال ٨/٦٠] ، مهما كان حجم ما يأخذ به من هذا الأمر ضئيلاً ولكن

تكاد تنعدم استجابة هذا المسلم لأمر الله تعالى في قوله :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت ٢٩/٢٠] . ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام ٦/١١] .

إن المسلم يشعر بالقصور ويدين نفسه حين لا يُعد القوة ، بينما لا يشعر بأدنى وخز في الضمير حين يقصر عن السير في الأرض والنظر في عاقبة الذين خلوا من قبل .

إن السير في الأرض ورؤية ما عليه الناس من الخير والشر ، والسعادة والشقاوة ، ومعرفة أسباب ذلك قريباً أو بعيداً ، وفهم ذلك هو الذي يجمع خبرات العالم جميعاً ، ويكمل في نفس المسلم معنى أوامر الله .

ومن هنا يمكن أن نقول : إن الذي ينقص المسلم الآن القدرات الفهمية أكثر من الإيمان ـ الإرادة ـ ولكن المسلم ينظر إلى هذا الموضوع على غير هذا الوجه ، فيقول : إن الذي ينقص العالم الإسلامي هو الإيمان ، وبأسلوب آخر ، يقول إن المسلمين لا يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل الله . وأقول : إن في المسلمين من يبذل نفسه وماله في سبيل الله ، ولكن الذين يبذلون سنين طويلة من البحث الجاد والدرس

المتواصل لفهم المشكلات على مستوى العصر ، هم القلة بل لا وجود لهم إلا نادراً جداً .

إن عدداً قليلاً من المفكرين المسلمين اليوم فتحت أمامهم بعض النوافذ لدراسة آيات الآفاق والأنفس ، ولكن المشكلة أن هؤلاء لا يعترف لهم موجهو الشباب بالريادة ، ولا يعترفون بعلمهم لأنهم - حسب زعمهم - قد تأثروا بمشارب غير إسلامية .

ومن المؤسف أن يكون الموجهون الذين يمثلون حلقة الوصل بين المبدعين والسواد الأعظم لا يزالون يحملون كل عوامل التخلف التي قادت العالم الإسلامي إلى العصر الذي يمثل فيه المسلمون (القصعة) . وهنا لا بد من الإشارة إلى نقطة يحوطها الغموض أيضاً في حديث القصعة ، حيث يعلل الوهن الذي أصاب العالم الإسلامي بـ (حب الدنيا وكراهية الموت) ، وظاهر هذا التعليل يريح المسلم الذي يشعر أن الحديث يوضح أن ما ينقص العالم الإسلامي هو الإيمان والإخلاص والتفاني . إن من لا يعرف الطريق الصحيحة لبذل النفس ، يزهد في الموضوع وإن كان عنده استعداد لبذل النفس ، ويقول : ما جدوى بذل النفس إذا كان لا يغير الحال ؟! إن هذا يقودنا إلى أن نفرق بين من يمتنع عن بذل نفسه - وهم المعنيون في حديث القصعة - لزهده في الآخرة ، وبين من لا يبذل نفسه لأنه لا يرى المكان الذي يبذل فيه

نفسه ، وهو معذور في هذا ، لأن الأمر ليس بذل نفس وكفى ... ولا شك أن هناك خلافاً في كيفية بذل النفس ، فإذا كان بعض اليائسين يظنون أنه ينبغي أن يحملوا السلاح ويقتلوا الناس الذين يعتبرونهم كفاراً ، وأنهم إن فعلوا هذا فقد أطاعوا الله ، وإن لم يفعلوه لا يكونون قد استجابوا لأمر الله والرسول . إن مثل هذا الفهم الخاطئ جدير أن ينتج عنه حب الدنيا وكراهية الموت ، كالذي قال عن عنقود العنب بأنه مرّ حين عجز عن فهم طريق الوصول إليه . إن الإسلام حين حثَّ على الشهادة في سبيل الله لم يكن ذلك مجرد طلب الموت وهجوم عليه . إن هذا ليس هو المراد ، بل إن توفير شرط الموت الذي يباركه الإسلام أمر ضروري ، فإذا جهل إنسان شروط الموت أو فهمها فهماً خاطئاً ، سوف لا يرى النتائج الدنيوية - وهي عزة المجتمع المسلم - التي أرادها الله من الموت في سبيله .

وينبغي أن يساعدنا النظر إلى النتائج الدنيوية على تصحيح مفاهيمنا لأن أمر الله حين يكون على وجهه يجب أن يعطي النتيجة حتماً بإذن الله ؛ أما إن لم يعط النتائج فينبغي أن نصحح فهمنا ولا نظل نقول : نحن قمنا بالأمر على وجهه إلا أن النتائج هي التي أخلفت . وهذا النظر يمنع من مراجعة الذات ، والبحث عن الأخطاء في أعمالنا وتصرفاتنا .. ولا بد من تنظيف هذه الزوايا حتى لا يستمر

تخبط العالم الإسلامي في التيه بغرور . ونكرر أن الجزاء الأخروي يكون على حسب النية ، والجزاء الدنيوي على حسب الصواب ، وأنه يمكن بل يجب تحقيقهما معاً . وقد لا يفهم القارئ مانقصده بهذا الكلام ، ولكي يفهم هذه الجملة ينبغي أن يكون قد فهم مشكلة المسلمين ، وفهم مستوى العصر الذي نعيش فيه في فهم المشكلات . وحين نُفهمه هذين الأمرين يمكنه أن يفهم أين المسلمون من مشكلاتهم الحقيقية ؟ وأين مستواهم في فهم ذلك ؟ ولكن إن زعمتُ أني أستطيع رفع المسلم بهذه الصفحات إلى فهم مشكلة المسلمين بمستوى آيات الآفاق والأنفس التي ظهرت ، أكون غير مقدّر للمشكلة حق قدرها ، وأُحمّل ماأكتب فوق طاقته . ومع ذلك يجب أن نفاجئ الآخرين بنتائج البحوث ـ وإن لم نتمكن من سياق كل الأدلة لهم ـ ليعلموا أن هناك من يكسر إجماعاً يطمئنون إليه ، وأن هناك من ينظر إلى المشكلات بغير النظر الذي ينظرون به إليها حتى لا يقول قائلهم : ما سمعنا بهذا .

قد نصنع للمسلم الآن العنوان ، وربما شيئاً فشيئاً على مرّ السنين ـ إن كان مجتهداً ـ يبدأ في رؤية الأدلة . وقد نجد المئات من الشباب المتحرّق للقضية الإسلامية والذين عندهم استعداد لبذل نفوسهم ـ ويبذلونها فعلاً ـ في سبيل الإسلام ، ولكن عدد الذين فهموا آيات الآفاق والأنفس قليل . بل أستطيع أن أقول : إنه ليس في العالم

الإسلامي رجل واحد رائد في فهم آيات الآفاق والأنفس ، وإن كل الذين يكتشفون اليوم آيات الآفاق والأنفس هم من غير العالم الإسلامي ، والمسلم إن اجتهد في فهم ذلك فمبلغه أن يستشهد بأقوالهم ليدعم بها وجهة نظره . وإنما يحدث هذا في الوقت الذي يتوقف فيه المجتمع عن التفكير ، وقد كان يوماً ما عكس ذلك ، حيث كان كل الذين يفهمون ويبحثون آيات الآفاق والأنفس هم من العالم الإسلامي ، ولكنها سنة الله : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران ٣/١٤٠] ؛ ويتم ذلك وفق سنة ، فإذا ترك المجتمع السيطرة على مابنفسه يفقد زمام التاريخ ، وإلا فلن يفلت منه الزمام . وهل بعد هذا أيضاً نقول : إن الذي ينقص العالم الإسلامي إرادة أم قدرة ؟ وجدنا أصحاب الإرادات الذين بذلوا أنفسهم ولا يزالون يبذلونها ، ولكن أين أصحاب القدرات ؟ إن هذه المشكلة ليست مشكلة المسلمين وحدهم ، وإنما هي مشكلة العالم الثالث . إنني حين أكتب أتوجه إلى الشباب المسلم الذي يُعرف بأنه إسلامي ويريد أن يحيا حياة العبودية الحقة لله تعالى . ولكن لو توسعنا إلى إنسان منطقة الحضارة الإسلامية أو مجال دراسة الحضارة الإسلامية - كما يقول توينبي - لوجدنا أن مشكلة الإنسان تكاد تكون واحدة سواء عند الذين يدعون إلى استئناف الحياة الإسلامية أو الذين يريدون الدخول إلى مجال الحياة

المعاصرة عن طريق غير طريق الإسلام . إن الذي ينقصهم هو القدرات الفهمية للمشكلات وليست الإرادات ، لأن مرض الإنسان مرتبط ببيئته الثقافية ، وهي بيئة واحدة لأن الإنسان سواء كان يريد الإسلام الذي تاريخه من الضخامة والفخامة ما هو جدير بإرادة الحياة ، أو يريد فكرة القومية أو الاشتراكية أو ... كل هذه الاتجاهات المتنازعة لا تختلف في إرادتها الخير للأمة التي تسعى لخدمتها مهما اختلفت هذه الإرادات في قيمتها ... إن إراداتهم صادقة في مجموعها ، هم يريدون الخير والنصر والغنى للأمة ، ولكن ما مقدار كفاءاتهم في تحقيق هذه الإرادات ؟ إنهم كذلك قد قدموا قوائم من الضحايا ، وهذا دليل على صدق إراداتهم . إنهم جميعاً أثبتوا إخلاصهم بتضحيتهم واستعدادهم لبذل النفس والمال ، ولكنهم لم يثبتوا كفاءاتهم الفنية في حلّ المشاكل . إن هؤلاء لم يؤتوا من قلة إراداتهم ، وإنما من قلة قدراتهم الفهمية والفنية . وقد لا نبالي بعجز غير المسلم لأن المسلم قد لا يعترف بإرادة غيره ... وقصدنا أن يفهم المسلم مشكلته الخاصة وإن كان يحسن به أن يعرف مشكلات غيره ، ويعرف القاسم المشترك بينه وبين غيره من مشكلات ، وهذا الفهم العام مما يساعده على حل مشكلته بفعالية أكثر ، ويساهم مع الآخرين في حلّ مشكلاتهم . ولسنا الآن بصدد إثبات أو تقييم إرادة الآخرين أو نفيها ، وإنما الذي نريد أن نشير

إليـه هـو أن المسلم أثبت عجـزه أمـام الآخرين . ففي قضيــة فلسطين ـ مثلاً ـ التي تؤكد المرض العام في المنطقـة ، لا يريـد المسلم أن يعترف بعجزه أمام هذه القضيـة ، لأن الـذين دخلوا ميـدان حلّهـا لم يـدخلوه تحت شعـار الإسلام ، فـالمسلم يرى نفسـه قـد أُبعـد عن حـلّ القضيـة . والحقيقة أنه قد عجز أن يثبت وجوده أمام هؤلاء الـذين دخلوا ميـدان القضيـة وعجزوا عن حلّهـا ، فهو قـد أثبت عجزه مرتين ؛ ولكن المسلم لا يريد أن يفهم هذا ولا يريد أن يعترف به .

لمـاذا يعجـز المسلم عن رؤيـة هـذه الـواقعـة الكبيرة ؟ لعـل من أسباب ذلك أنه لم يفهم المشكلة بعد ، ولم تتوضح لـه ، لأن الإنسـان في العـادة لا يستطيـع أن يعترف بخطئــه إلا إذا عرف كيف يستطيـع أن يتخلص منــه ، فمـا دام لم يعرف بعـد كيف يتخلص من خطئـــه ، فسيظل متمسكاً بالخطأ لأنـه لم يرَ البـديل ، ولم يرَ الحل الصـائب ، ولم يرَ ما ينقصه للحل . وحين يدرك ما ينقصـه حقاً تصير لـديـه القـدرة على الاعتراف بالخطأ الذي كان يرتكبه في معالجـة المشكلـة ، ولا يعود يشعر بمركب النقص الـذي يحملـه على تحـدي الحقـائـق ، بـل يصير يعترف بمـا كان يقـع فيـه من خطــأ . وفهم الفرق ضروري بين من لا يقـدر أن يسمع أحـداً يتحـدث عن خطئـه ، وبين من هـو بنفســه يعترف بـالخطـأ الـذي ارتكبـه ، ولا يشعر أنــه من العيب أن يقـع في

الخطأ ، ولكن العيب هو شعوره بالعيب عندما يعترف بالخطأ ، وهذه نقلة نفسية تغييرية كبيرة ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [النّساء ٩٤/٤] . والقدرة على مثل هذا الانتقال تمثل الانتصار على النفس الذي هو سبب كل انتصار خارجي بعد ذلك . فحين تصير للمرء قدرة الهجوم على تلك الخنادق المنصوبة داخل نفسه ، يكون قد انتصر داخلياً .. وتحرر من أعماقه ..

وفرق كبير بين من يحمل في نفسه رهبة عبادة العجل ، وبين من تحرر فقال :

﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه ٩٧/٢٠] .

كيف أخاف من التوبة وأنتم لا تخافون من الذنب ؟! كيف أخاف من الاعتراف بالخطأ وأنتم لا تخافون الالتزام بالخطأ ؟! كيف أخاف ما أشركتم وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم ؟ فأي الفريقين أحق بالأمن ؟

والشاهد هنا انقلاب المفاهيم ، وليس القصد الإدانة بالإشراك ، وإنما ضرورة أن يحدث عندنا تغيير في فهم المشاكل ، ومنها المشكلة التي أبحثها وهي مشكلة الإرادة والقدرة . والتغيير الذي أبغيه هو أن نعلم أن الذي ينقصنا هو القدرات وليست الإرادات . وإن كنتم تشعرون أنكم قد

تجاوزتم فهم هذا الذي أتعب نفسي وغيري لفهمه ، فاحمدوا الله على ذلك ، وارموا بهذا الكتاب عرض الحائط ، ثم امضوا إلى تطلعاتكم الجديدة واتركوني مع الأميين لأعلمهم هذه الأحرف الأبجدية في سنن الحياة .

٢ - القدرة والإرادة كشريعة وحقيقة :

والمقصود من هذا العنوان بيان كل من القدرة والإرادة عند المتصوف والفقيه . فالصوفية يسمون أنفسهم بأصحاب الإرادات ، ويسمون تلميذ المتصوف بالمريد ، ويعتبرون أنفسهم بأنهم أصحاب الحقيقة . كما أنهم يرون إمكان وصول الأمي والعامي إلى درجات عالية في الإرادات ، وهو نموذج من التطبيقات على ما ذكرنا سابقاً من أن الإرادة قد ترتفع إلى درجة عالية عند العوام والأطفال ذكوراً وإناثاً بحيث يبلغون أقصى درجات الإرادة ، وذلك ببذل النفس والمال . بينما لا يمكن أن يوصل إلى القدرات إلا بجهود ، ولا تتيسر للعوام والأطفال . وكذلك أمر التصوف والفقه ، فالمتصوف يمكن أن يقطع المراحل قفزاً ويصل ، ويسمونه (الواصل) . أما الفقيه فلا يمكن أن يصل إلا بالدرس والجد سنين طويلة . وقد يرمي المتصوف الفقيه بأنه متعلق بالرسوم ، وبأن الفقهاء محجوبون . وليس هذا موضع بحث الآن ، ولا يهم ما بين المتصوف والفقيه من خصام ووئام ، ولا أن المتصوف قد يغرق في الإرادة ولا يعود يفرق بين الإرادة الشرعية

والكونية ، فيرى الكون كله مراداً لله ومنها المعاصي حيث يرى المعصية طاعة لله ... وهذا الاختلاط بين الإرادة الكونية والشرعية شائع مشوش ، وإن لم يصل عند الكل ما وصله عند الحلولية من المتصوفة . الإرادة الكونية هي إرادة الله في أن جعل الإنسان قادراً على فعل الطاعة والمعصية ، فإذا فعل الطاعة يكون قد عملها بإرادة الله الكونية ، أي بإقدار الله له على ذلك ، وإن فعل المعصية فكذلك ... أما الإرادة الشرعية فهي إرادة الحلال والحرام (الواجب والمحظور) . فإذا استخدم الإنسان إرادة الله الكونية في الطاعة فقد رضي الله عنه ، وإن استخدمها في المعصية سخط الله عليه ... مثال ذلك شراء المصحف أو شراء الخمر ، ولكن أن تجعل الخمر حلالاً كالمصحف لأن الله أراد قدرتك على هذا وهذا ، فهنا مصدر الخطأ الذي يقع فيه الحلولي ، ومصدر التشويش الذي يقع فيه المسلم الطيب عادة حين يرى أن المعاصي من قدر الله ... ويمكن أن نرى الكوني والشرعي في قوله تعالى : ﴿ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف ٥٤/٧] ، فالله خلق المؤمن والكافر .. ولكن الله لا يأمر بالكفر ، وإنما يأمر بالطاعة :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا : وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا . قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف ٢٨/٧] .

كما أن (الخلق) يتجه إلى الكوني ، و (الأمر) يتجه إلى الشرعي . إلا أنه قد تأتي الكلمة الواحدة يراد بها الكوني أحياناً والشرعي أحياناً . فقوله تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ [المائدة ٥/٣] : أمر شرعي . ولكن قوله : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾ [القصص ٢٨/١٢] : أمر كوني .. كذلك قوله تعالى : ﴿ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ﴾ [يوسف ١٢/٤٠] : أمر شرعي ...

و يمكن الإشارة ـ ونحن نبحث موضوع المتصوف والفقيه ـ إلى جانب آخر ، وهو أن التخلف حينما أصاب العالم الإسلامي ، ظهر عند المتصوف (في شطحاته) ، وظهر عند الفقيه (في جموده) : فكان المتصوف من قبل يملك المرونة بحسب الجانب الإرادي حيث تغلب عليه المقاصد ، أي كان مرناً في الجانب الفقهي . وكان الفقيه ملتزماً للقواعد بشكل ظاهر في بيان الحلال والحرام ... ولكن التخلف حينما أصاب كلاً من المتصوف والفقيه ، شطح المتصوف فلم تعد له كوابح ، وجمد الفقيه فلم يعد يستطيع حركة ولا اجتهاداً . وجانب ثالث ، هو أن المتصوف يغلب عليه جانب العبادة ، بينما الفقيه يغلب عليه جانب العلم وربما المنطق والفلسفة والحدود ... يقول ابن تيمية في هذا في عدة

مواطن من الفتاوى : « إن من فسد من عبادنا فيهم شبه بالنصارى ، ومن فسد من علمائنا فيهم شبه باليهود .. » لأن النصارى ضالون ففسادهم في القدرات أكثر لأنهم يخالفون عن جهل .. واليهود مغضوب عليهم ففسادهم في الإرادات أكثر أي فساد النيات عندهم أكثر لأنهم يخالفون عن علم .

٤ ـ موقف أهل الدين والسياسة من نقص القدرة والإرادة :

ذكرنا فيما سبق أن ركني العمل هما القدرة والإرادة ، وأن النقص قد يكون في كليهما أو في أحدهما ... وأن النقص في حضارة عالم الإسلام اليوم إنما هو في جانب القدرات ، ولكننا ذلك نرى الناس يتجهون إلى إبراز أهمية الإرادات ويحاولون تلافي النقص فيها ـ وكان الأحرى بهم أن يتجهوا إلى تلافي النقص في القدرات ـ فيتجه أهل الدين إلى علم الكلام ، ويتجه أهل السياسة إلى مصادر جديدة للإرادات .

أما في مواطن الاختلاف ، فكل من أهل الدين والسياسة يتجه إلى الإدانة في نقص الإرادات أو عدم وجودها ولا يتجهون إلى الإدانة في نقص القدرات : فيتجه أهل الدين إلى التزمت ورمي كل من يخالفهم بالزندقة والمروق عن الدين ، ويسارعون إلى الاتهام بالكفر ،

فينشأ عن ذلك تكفير بعضهم بعضاً ، كما ينمو التشكك في الإخلاص والإرادات . وكان منشأ محاكم التفتيش من مثل هذا الاتجاه .

وفي العالم الإسلامي يبرز هذا النقص في التوجس خيفة من كل محاولة لكسب القدرات ، أو وصف محاولة استخدام القدرات بأنها قنطرة اللادينية ، أو أنها أخطر بدعة تهدد الشريعة والدين . ويكون التنابز بألقاب الكفر بضاعة المتخاصمين ، ويتوجه الشك مباشرة إلى الإيمان ، فيخشى على إيمان الذين يسعون لاكتساب القدرات . ويمكن أن يلاحظ ذلك ـ بسهولة ـ كل من راجع سجل الأفكار في العالم الإسلامي ..

أما في مجال السياسة ، فنجد الحالة نفسها .. فنراهم لا يدين بعضهم بعضاً في القدرات ، بل يتجهون مباشرة بكل عفوية إلى الإدانة في النيات والإرادات ، في صورة الاتهام بالخيانة والعمالة ؛ فكل من يخالفهم خائن وعميل . وما أسهل توزيع هذه الألقاب على بعضهم في أدنى خلاف ينشب بينهم ، ولست بحاجة إلى ذكر أمثلة ، إذ عليها نصبح وعليها نمسي ... فوسائل الإعلام التي تضخمت في هذا العصر عالمياً تطفح بمثل هذا الاتجاه ولا يكون الاتهام في مثل هذه الظروف الحضارية ـ عادة ـ بنقص القدرات أو بنقص العلم ، وباحتمال الخطأ في

الفهم إذ « كل ابن آدم خطّاء » بل يتوجه مباشرة إلى النيات وإدانة المقاصد والإرادات . ولعل السبب في هذا هو استخدام البضاعة المتوفرة وهي الإرادات حيث يغيب العلم ، فلا يستخدمونه في بحث القضايا ، بل يستخدمون الإخلاص فيكون الطعن في إخلاص المخالف ، لا في إظهار خطئه وجهله .

وهذا الأسلوب هو أسلوب السهولة في الإدانة ، لأن الإدانة في القدرات (في العلم وفي الفهم) ، تحتاج إلى جهد عقلي وإلى إبراز الأدلة .. أما الإدانة بالكفر أو الخيانة ، فلا تحتاج إلا لمجرد الكلام ..

هذا هو الواقع في مجتمع فقدت فيه الأفكار قيمتها الذاتية . وإن لهذا الأسلوب في الإدانة سيئات كثيرة من أبرزها : أن الإدانة تكون مؤلمة أكثر عندما يعرف المتهم في نفسه الإخلاص ، بل أنه صادق في إخلاصه ، سواء كان من أهل الدين أو من أهل السياسة . فالأول يحب الله ورسوله ويخلص لهما ، ومستعد لتقديم كل شيء في سبيل الله . والثاني يعرف في نفسه إخلاصه لأمته وبلده ، ولا يخطر في باله أن يخون أمته أو يبيعها . فإذا ما اتهم بهذه التهمة أهل الدين أو أهل السياسة ، تكون الجراحات مؤلمة مأساوية .. وكم تكون الصدمة شديدة حين يكشفون سوء ظن الآخرين بهم أو اتهامهم مباشرة .. حتى إن هذا الاتجاه يظهر في التجمعات الصغيرة ، فيكون همها كشف ذي

الوجهين ، ولا يكون همهم في رفع مستوى إدراك الذين يلوذون بهم ، لهذا تحدث الانشقاقات والحرمانات ، والطرد ، وتحريم المطالعات غير المقررة ، وفرض الرقابات الشديدة على مصادر المعرفة في المدارس الدينية والعقائدية ، ويبذلون في ذلك كل جهد ووسيلة مشروعة أو غير مشروعة . ومن يراجع أساليب محاكم التفتيش في تنسم الاتهامات لأدنى الملابسات ، يعرف كيف أن النقص في القدرات يؤدي إلى دمار المجتمعات .

ومن سيئات الإدانة في الإرادة (الإخلاص) هو أن أصحابها يعوّلون فقط على المخلصين لهم دون النظر والتأكد من كفاءاتهم في أداء الواجب ... فتنحط نتائج الأعمال وتتعرقل الأمور ، وتتعقد السبل ، ولا ينتج عن ذلك تنافس في تحصيل القدرات ، بل التنافس في التقرب والتزلف قدر الإمكان مما يزيد الطين بلة . وهذا الأسلوب في الإدانة لا يحل المشكلة ، لأنه لا يعالج أسبابها ، بل يزيد للشكلة تعقيداً .

ثم إن الاتهام بنقص القدرات ليس مؤلماً كالاتهام بنقص الإرادات ، إذ يمكن للمرء أن يعترف بنقص القدرات دون شعور بوخز في الضمير ، ودون شعور بالإثم وبآلام مخاض ولادة جديدة .

قد يسهل علينا الآن الاعتراف بنقص قدراتنا المادية ـ الشيئية ـ

وكذلك حين ندخل مستوى القدرات الفهمية ، سيسهل علينا الاعتراف بنقص قدراتنا الفهمية ، كما هو شأن أهل العلم والفهم ، إذ إن أقدر الناس على الاعتراف بالنقص في العلم أهل العلم . ولا يزال الإنسان يسعى لكتم جهله حتى يدخل باب العلم ، فإذا دخل دار العلم لم يعد يقلقه أن يظهر جهله ... وهذا ما حمل ابن تيمية على أن يسطّر في وقت مبكر عن عصرنا هذه الملاحظة التي لها أهميتها الخاصة لأن كل الذين ينظرون ويدققون النظر في آيات الله في الآفاق والأنفس يلاحظون هذه الظواهر . قال رحمه الله في وصف هذه الظاهرة :

« فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضاً ، ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطئون ولا يكفرون »[1] .

فهذه إشارات خفية إلى مشكلات كبيرة نعانيها ، فهي لا تنتظر أصحاب الإشارات الخفيفة ، وإنما أصحاب قدرات علمية فهمية وليست مادية شيئية ، وذلك لتطهير مجتمعنا من المشكلات . وهذا واجبكم أيها الشباب المؤمن ، وقد أنعم الله عليكم بنعمة الصحة والفراغ ..

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص ٣٨/٨٨] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

---

(١) مختارات عبد الرحمن السعدي ، ص ٧٦

دليل الأفكار

المقدمة : (ص : ١١ ـ ١٦)

إن جذور المشكلة التي يبحثها الكتاب عميقة في الأمة ، ولهذا فهي بحاجة إلى بسط وتفصيل . إن الدعوات والطرق التي تتبنى التغيير تأتي البيوت من ظهورها ، لذا لابد من تغيير أساسي في أساليب العمل الإسلامي ليتوافق مع سنن التسخير .

ومن أمثلة ذلك : العمل على أساس الواجبات لا الحقوق ، وإصلاح المجتمع قبل السياسة ، وسلوك سبيل الإقناع والتربية لا سبيل العنف والإكراه .

الفصل الأول

مصطلحات البحث

(ص : ١٧ ـ ٦٣)

لا يكون العمل ناجحاً إلا بإخلاص وصواب . أما الإخلاص أو الإرادة : فهو حب تحصيل أمر أو إرادته ، وأما الصواب أو القدرة : فهو معرفة كيفية تحصيل الأمر .

والخالص ما كان لله ، والصواب ما كان على السنة .

١ ـ الإخلاص والصواب : (ص : ٢١ ـ ٢٥)

مصطلح الإخلاص مرادف للإرادة ، ومصطلح الصواب مرادف للقدرة ، وقد استخدم القرآن اللفظين

وكان ابن تيمية يؤكد أنه متى وجدت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة وجب وجود الفعل ـ العمل ـ ضرورة ، وإذا تخلف العمل فينبغي البحث عن السبب .

واليوم يؤمن أكثر المسلمين أن الأسباب والمقدمات لا تصنع النتائج بالضرورة ، وأن المؤمن يأخذ بالأسباب لمجرد أنه مأمور بها ، والله يقدر النتائج .

٢ ـ إياك نعبد وإياك نستعين : (ص : ٢٥ ـ ٢٨)

العبادة : إخلاص العمل لله ، والاستعانة تسخير ما خلق الله وهي الوسيلة . والناس مع العبادة أصناف أربعة ، ويغلب على المسلمين اليوم أنهم يعبدون ولا يستعينون . وأمة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة ١/٥] ، هي الأمة الوسط .

٣ ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله : (ص : ٢٨ ـ ٣٣)

مدار الدين كله حول الشهادتين ، فالأولى تتضمن الإخلاص وهو توحيد الله ، والأخرى تتضمن الصواب وهو ما جاء به رسول الله ﷺ ؛ أو هي عبادة الله بما شرع . والله يأمرنا أن نأخذ سنن الشرع من الكتاب (القرآن) وسنن الطبيعة من (الكون) في آيات الآفاق والأنفس .

٤ ـ الغاية والوسيلة : (ص : ٣٣ ـ ٣٥)

الغاية : هي الأمر المراد أو المثل الأعلى الذي يتوجه إليه

الإخلاص ، والوسيلة هي الاستخدام الصحيح للإمكانات المتاحة .

٥ ـ لماذا وكيف ؟ (ص : ٣٥ ـ ٣٦)

(لماذا) ؟ سؤال عن الإرادة أو المبرر ، و (كيف) ؟ سؤال عن القدرة . فإن فقد الإنسان الإجابة عن (لماذا) فالعمل الذي يقوم به غير معقول . وإن فقد الإجابة عن (كيف) فالعمل مستحيل .

٦ ـ البواعث المعللة والطرق التنفيذية : (ص : ٣٦ ـ ٣٨)

كل عمل مهما كان بدائياً وبسيطاً ، فإنه ينطوي على بواعث وعلى طرق لتنفيذ هذا العمل .. وإن كان يظهر تفوق أحد الجانبين في مجتمع ما ، فالمجتمعات النامية تعاني من قلة الوسائل المادية وقصور الأفكار .

٧ ـ الموثوق والمضطلع : (ص : ٣٨ ـ ٤٠)

مصطلحان قديمان ، يعني الأول : أن يكون الشخص أميناً مخلصاً . ويعني الثاني : أن يكون ذا كفاءة وقدرة للقيام بالعمل .

٨ ـ العدل الضابط : (ص : ٤٠ ـ ٤٢)

مصطلح وضعه علماء الحديث ، حيث اشترطوا في راوي الحديث

أن يكون عدلاً يتوفر فيه الإخلاص ، ضابطاً لا تشتبه عليه الأمور ويصل إلى الصواب بحفظه ووعيه .

٩ ـ الأمانة والقوة : (ص : ٤٢ ـ ٤٣)

مصطلحان استخدمهما القرآن . والقوة : قد تكون مادية أو معنوية حسب العمل المطلوب .

١٠ ـ الحفيظ العليم : (ص : ٤٣ ـ ٤٤)

الحفظ فيه جانب الأمانة والإخلاص ، والعلم فيه جانب المعرفة والكفاءة والصواب .

١١ ـ القاعدة والقمة : (ص : ٤٤ ـ ٤٧)

القاعدة : هي الجمهور وهي موطن الإخلاص والطاقات والأعمال . والقمة : موطن الكفاءة والفهم لاستخدام تلك الطاقات . والقمة المقصودة هي القيادة الفكرية التي توجه وترشد ، وليست القيادة السياسية كما فهم جيلنا الراهن .

١٢ ـ اللاشعور والشعور : (ص : ٤٧ ـ ٤٩)

الإخلاص يقابل اللاشعور ، والصواب يقابل الشعور . وشبيه بهما الانفعال والفعل .

١٣ ـ العاطفة والفكر : (ص : ٤٩ ـ ٥٥)

ترتبط العاطفة باللاشعور وتتكون من ميول نتيجة لعوامل مختلفة ، والفكر يقصد به الشعور والوعي .

والعاطفة بحاجة إلى وعي لقيادتها . وآلة الفكر هي العقل ، وموضوعه ما في الكون .

١٤ ـ الأخلاق والعلم : (ص : ٥٥ ـ ٥٧)

الأخلاق : يقابل الإخلاص ، والعلم : يقابل الصواب . وينبغي أن تفهم الأخلاق كقيمة أخلاقية وجهد واع لا كمجرد هبة إلهية ، والعلم يبرز القيم الخلقية ويقيم أدلته عليها ، بل يصبح العلم أخلاقاً في عدم صبره على الخطأ حتى يصححه .

وما يراه بعض الناس من أن العلم محايد أخلاقياً فغير صحيح ، طالما أن العلم هو ميزان الحق والباطل ، وطالما أن الأخلاق علم .

١٥ ـ القلب والعقل : (ص : ٥٧ ـ ٥٨)

يستعمل القلب للدلالة على موطن العواطف والإخلاص ، ويستعمل العقل للدلالة على موطن الفكر والوعي والفهم . وقد استخدم لفظ القلب في القرآن للدلالة على أداة الفقه والعقل والوعي .

١٦ ـ مصطلحات أخرى : (ص : ٥٩ ـ ٦٣)

كمصطلح نفس وزمن أو الضمير والمجتمع أو الهمّـام والحـارث .. وسـواهـا .. كلهـا تعطي المعنى نفسـه لـلإرادة (الإخـلاص) والقـدرة (الصواب) .

الفصل الثاني

العمل

(ص : ٦٥ ـ ٩٣)

١ ـ منطلقات العمل : (ص : ٦٥ ـ ٦٨)

إن المواريث الثقافية التي يخلفها المجتمع ، تحدد مجال رؤية الفرد ، فيصبح يرى في الحياة وأحداثها جوانب دون الأخرى وهذا ما سمّاه القرآن : عمى القلوب ، وهذا المرض في قصور الرؤية وانحصار مجالها أشد فتكاً في الأمم منه في الأفراد .

أ ـ التسخير : (ص : ٦٩ ـ ٧٩)

يزداد تسخير الإنسان للكون بازدياد علمه به ومعرفته لسننه ، إلا أن تسخير الإنسان لسنن النفس ما يزال أقل ـ وخصوصاً ـ من تسخيره لسنن الكون ، فلم يصل الإنسان مثلاً حين يذكر أخاه بسوء إلى مرحلة النفور التي يشعر بها من يأكل لحم أخيه ميتاً .

وقد شهد تقدم العلم بصدق قوانين الجاذبية ، وسيشهد بصدق الإيمان بالله واليوم الآخر .

وإن كلمة السر في التسخير هي استخدام السمع والبصر والفؤاد ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء ١٧/٣٦] ، واستخدام هذا الجهاز الثلاثي جعل الإنسان متفوقاً أو جعله (خلقاً آخر) وهو مفهوم الأمانة التي حملها الإنسان .

إن القرآن الكريم يتحدث كثيراً عن سنن النفس الإنسانية لأن التاريخ الحقيقي يبدأ من تسخير الكون الداخلي . وإن الله جعل الإنسان آية عظمته بما علمه وبما هيأه له حين جعله خليفة في الأرض .

ب ـ انظروا كيف بدأ الخلق : (ص : ٨٠ ـ ٨٢)

يأمرنا الله بالنظر إلى ﴿ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت ٢٩/٢٠] لنعرف كيف نسخر الكون وكيف نشكر الله .

وقد جعل الله سنة الكون في نموه وتغييره من الأزواج . فالله فرد صمد لم يلد ولم يولد ، وكل ما عداه خلق من زوجين .

٢ ـ كيف يتولد العمل ؟ (ص : ٨٣ ـ ٩٢)

العمل حركة بقصد ، ولا يسمى عملاً إلا إذا توفرت فيه الإرادة

وقد شهد تقدم العلم بصدق قوانين الجاذبية ، وسيشهد بصدق

والقدرة ، فهو يبدأ من تلاقحهما ... وهذا واضح في أصغر عمل كإطفاء مصباح أو إيقاده .. إلى أكبر عمل كبناء المجتمع . ويوضح الكتاب ذلك بمثل عملي هو أداء فريضة الحج .

الفصل الثالث

الإرادة

(ص : ٩٣ ـ ١٧٥)

١ ـ تعريفها : (ص : ٩٣ ـ ١٠٠)

هي وظيفة العقل المميز ، ويمكن توضيح وظيفتها بمقارنتها بحاسة الشم وكيف يتم . إن العقل السليم يقبل الأفكار السليمة بالفطرة كما تقبل حاسة الشم الروائح الزكية : ولكن هذه الفطرة يمكن إفسادها . والمهم في البحث معرفة كيف تصنع الإرادة ؟ وكيف تضعف ؟ وكيف تفسد ؟ وكيف تضيع وتُفقد ؟

٢ ـ من أي شيء تتكون الإرادة ؟ (ص : ١٠٠ ـ ١٢٦)

تتولد من عرض المثل الأعلى على عقل الإنسان ولكن الإنسان قد يختار مثلاً أعلى سيئاً بسبب جهله ، وإن إزالة الجهل هي مهمة الأنبياء والمصلحين وذلك عن طريق البلاغ المبين .

ودور البلاغ زيادة وضوح المثل الأعلى ومعرفة كيفية تحقيقه ، وبهذه الأمور تقوى الإرادة وتنمو .

ولا بد هنا من محاولة إزالة الشبهة عن دعوة نوح عليه السلام ﴿ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح ٧١/٢٧] ، والرد على من رأى فيها عدم ضرورة نجاح العمل مع توفر الشروط وانتفاء الموانع ، بأن نجاح الفكرة إنما يتم على مستوى المجتمع ، وأن أسلوب دعوة محمد ﷺ وانتصاره كان بسنن طبيعية لا بمعجزات وخوارق ، وهو دليل على تطور مسألة النبوة إلى مستواه النهائي ، حيث يصنع المجتمع بجهود البشر العاديين . وإن قصد الكتاب من بحث هذا أن يتكون عند المسلم نظر سليم للمشكلات ، ومن أبرزها المشكلة الشائعة المتمثلة في القول « علي أن أسعى وليس علي إدراك النجاح » وهي مرض يحول بين المسلم وبين مراجعة نفسه وأعماله لاعتقاده أن عمله صائب ، ولكن لم تأت النتائج لأمر أراده الله .

إن هذا الزعم قد يكون صحيحاً في مستوى الفرد في نتائج العمل الدنيوي ، ولكن النجاح حتمي في مستوى المجتمع حيث يتم نجاح الفكرة .

وهذا النظر الخاطئ قد اكتسب عند المسلم قداسة فامتنع من

النقد وأخذ يدافع عن الخطأ . وكشف هذه الأمور هي مسؤولية رجال الفكر ، وهي مشكلة المفكر السليم بالذات الذي لم يُخرج المسلمين من التيه الذي يضيعون فيه ، ولم يوحِ إلى قرائه أن عليهم أن يكملوا طريقاً بدأها .

إن المسلمين وكتّاب المسلمين يوزعون اللوم في تخلفهم وهزائمهم على سواهم لأنهم ما زالوا يعيشون في عالم الأشخاص والأشياء ولم يدخلوا عالم الأفكار بعد .

٣ ـ بعض خصائص الإرادة : (ص : ١٢٦ ـ ١٣٢)

أ ـ يمكن أن تصبح الإرادة ميراثاً ، فيرث الفرد مثله الأعلى من مجتمعه . وما يجعل الوراثة إيجابية وجود عدد كاف ممن يعون القضية وعياً دقيقاً ، لأن ما ينتقل بالوراثة دون وعي قابل للفساد ، وهو ما أصاب المسلمين . (ص : ١٢٦ ـ ١٢٨) .

ب ـ للإرادة مستويات أعلاها إرادة المثل الأعلى الذي يحرك المجتمع ويعطي الإنسان قيمة عليا ، وهو المرجع لتنظيم الحياة وتحديد علاقات الإنسان ، وهو التوحيد في الإسلام . (ص : ١٢٨ ـ ١٣٢) .

جـ ـ قد توجد الإرادة دفعة واحدة وليست القدرة كذلك ، ومقياس الإرادة في مستوياتها : هو الاستعداد لبذل المال والنفس ،

ولكن قد يصبح المال والنفس مثلاً أعلى يذل الإنسان نفسه في سبيله ، ويكون ذلك بالحرص على حياة .. أي حياة .

ولا قيمة لمثل أعلى لا يرفع إنسانية الإنسان ، فإرادة الرفاهية وزيادة الدخل و ... إرادات باطلة إذا أريدت لذاتها ، فلا قيمة للمال إلا بما يحقق من إنسانية الإنسان وإلا أصبح أداة إهلاك وإفساد للأمم . (ص : ١٣٣ ـ ١٣٩) .

د ـ عند الإنسان ميل فطري إلى التضحية بنفسه وماله في سبيل مثل أعلى . ولكن قد تبقى الفطرة خامدة فيكون أصحابها مستضعفين ، وقد تثار في سبيل مثل أعلى باطل فيكون أصحابها مستكبرين . وقد أدان الإسلام الفئتين ، ولام فاقد الإرادة وعذر فاقد القدرة ، وقد عذر فاقد الإرادة بشروط . (ص : ١٣٩ ـ ١٤١) .

متى يعذر فاقد الإرادة ؟ (ص : ١٤١ ـ ١٦٤)

إذا فقد الإنسان العقل ، أو لم يرَ المثل الأعلى ، أو لم يفهمه فهو معذور . وإن العقل ليس كافياً لإيجاد المثل الأعلى ، ولكنه كاف في قدرته على اختياره إذا عرض عليه .

فالهدى يتنزل من السماء وبه ارتقت البشرية إنسانياً إلى ما نراها

عليه . وإن مولد الإسلام هو مولد العقل الاستدلالي ، وإن ختم النبوة في الإسلام ينطوي على إدراك عميق لاستحالة بقاء الإنسان إلى الأبد معتمداً على مقود يقاد منه ، بعد أن بلغ مرحلة يعتمد فيها على وسائله وعقله .

منع الإسلام الإكراه في الدين لأن من فطرة العقل قبول المثل الأعلى إذا عرض عليه . وكما منع الإكراه فقد ألح على البلاغ المبين الذي هو أقوى دعائم الحق على الأرض ، وعدم وضوح قضية البلاغ جعل المسلمين يتجهون إلى العنف كبديل عنها . إن معرفة فطرة الإنسان ودين الفطرة وإزالة الحواجز بينهما ، تجعل الإنسان الفطري يقبل دين الفطرة .

ولكن الناس يتهربون من المسؤولية ولا يعملون اليوم ما يستطيعون ، فيعجزون غداً ويبقون في التيه يرددون خطأ : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة ٢٨٦/٢] . وكل أحد في مستواه يستطيع البلاغ ، وقد وعد الله أن يعصم المبلغ من الناس ، وهي أيضاً عصمة للرسالة من الانحراف والاتهام ..

وإذا كانت الإرادة قد ولدت من المثل الأعلى والعقل ، فليس المهم أن نبحث عن أصل العقل وعلاقته بالمادة ، وإنما المهم أن نجعله

يـؤدي وظيفتـه وهي الفكر والـذكر . الفكر في المخلـوقـات لتسخيرهـا والـذكر للخـالق لشكره ، فـلا يتكبر على الله ولا يتعبـد للكـون وإلا نزل بـه العقـاب . وإن القـوانين الأخـلاقيـة التي جـاءت بهـا الأديـان لا تختلف عن القواعد التي فرضتها الطبيعة في صَرامتها وإنزالها العقـاب فيمن يخالفها .

فـالتحرر من نظم الأخـلاق كعـدم التمييز بين الحـلال والحرام ، وعدم أداء وظيفة الأمومة ، وعقوق الوالدين وسوى ذلك ... يؤدي إلى عقاب صارم كعقاب مخالفة قوانين الفيزياء والكيمياء .

٤ ـ الإرادة روح الأمة : (ص : ١٦٤ ـ ١٦٩)

إن السر في انضمام الخلايا بعضها إلى بعض لتكوين الجسد الحي ، كالسر في انضمام الأفراد إلى بعضهم حينما تحدث لهم إرادة واحـدة بهـدف إيجاد كائن هو الأمـة . إن تولُّد الإرادة في الفرد يجعلـه ينضم إلى الآخر وهـذا معنى الحـديث : « مثـل المؤمنين في تـوادهم ... » . وإن الأفراد الـذين تنتمي إراداتهم الاجتماعيـة إلى أمـة أخرى ، لا يمكن أن ينسجمـوا مع مجتمع لا يحملون الوفاء له .

وإذا فقدت الإرادة ماتت الأمـة ورجعت اهتمامـات أفرادهـا إلى أمورهم الأولية لحفظ الذات ، لا لنمو المجتمع ..

٥ ـ الإرادة كقيمة وكصناعة : (ص : ١٦٩ ـ ١٧٦)

يقصد بالإرادة كقيمة ، تفاضل الإرادات أو كيف يكون مثل أعلى أفضل من آخر .

يحكم على قيمة المثل الأعلى بمقدار ماتشهد له حقائق الحياة والعلم بالصدق ، وبمقدار ما ينسجم مع المستقبل ويؤدي دوره في الحياة ، وذلك بالنظر إلى نماذج الناس الذين صنعهم هذا المثل الأعلى .

ومهما كان المثل الأعلى سامياً فهو لا يكفي لتوليد الإرادة ، إذ لا بد للزوج الآخر وهو العقل أن يكون على استعداد لقبول المثل الأعلى ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام ١٢٤/٦] .

وأما القصد من الإرادة كصناعة : فهو كيفية تحقيق المراد أو عملية البلاغ ، وهذا راجع إلى الجهاز الذي يقوم بتوليد الإرادة وحفظها . فالأمر لا يرجع إلى البرنامج أو المثل الأعلى الذي أنتج في يوم ما الصحابة رضوان الله عليهم ، وإنما إلى الذين يقومون بعملية توليد الإرادة ، أو المشرفين على عرض المثل الأعلى .. إنها مشكلة التطبيق لا مشكلة المبدأ ، مشكلة المثل الأعلى الحق مع الجهل في التطبيق ..

الفصل الرابع

القدرة

(ص : ١٧٧ ـ ٢٣١)

تعريفها : (١٧٧ ـ ١٧٨)

تعرف بأنها استطاعة أداء العمل ، وبأنها طاقة ، والطاقة حسب قانون تحول المادة تؤول إلى حركة .

وقد التبس على بعض الناس أمر القدرة الإرادية بالقدرة المجردة عن الإرادة ، فتساءلوا : هل نحن مسيرون أم نحن مخيرون ؟

والقدرة نوعان مادية وفهمية :

فأما المادية فمتنوعة كثيرة . إن قدرات العالم الإسلامي المادية كثيرة ، ولكنها مهدورة لعدم استخدامه القدرات الفهمية .

وأما الفهمية أو العلمية : فهي معرفة استخدام القدرات المادية أو عملية التسخير وهي التي ترفع مكانة الإنسان وترتقي بحياته .

واستخدام هذه القدرات هو ما ينقص العالم الإسلامي اليوم وهو سر تخلفه .. والكتاب بجمله محاولة لتحديد هذه المشكلة وشرحها .

١ ـ عمق المشكلة ومستويات القدرة : (ص : ١٧٨ ـ ١٩١)

يحاول المؤلف تحديد مشكلة عجز المسلمين ليتوجه المسلم إلى موطن المشكلة . فيشرح خطأ من يزعم أن مشكلتنا راجعة إلى فقدان الإخلاص أو الإرادة ، ويؤكد أنها راجعة إلى فقدان الصواب أو القدرة . وقد سيطرت هذه الفكرة الخاطئة على أذهان الناس ، فحالت بينهم وبين رؤية الفكرة الصحيحة وإن كانت بدهية .

وأما كيف توجد القدرات ، فإن لنمو القدرات وتحصيلها قوانين وسنناً وقد اكتسب الإنسان القدرات وفقاً لها على مرّ العصور ، وأعطاها المجتمع لأفراده . ويوضح الكتاب أن للقدرة مستويين : طاقة مادية وطاقة عقلية فهمية :

والمهم في هذا الإعطاء هو جانب القدرات الفهمية ولا سيما ما يلزم منها لصناعة المجتمع ، وفهم القوانين التي تخضع لها صلابة المجتمع وقوة تماسكه وأساليب علاجه وتغييره ، وهو ما يهتم به الكتاب .

٢ ـ كيف يُحصِّل الإنسان القدرات ؟ (ص : ١٩١ ـ ٢٠٦)

إن القدرات الفهمية وليدة أبوين هما العقل وسنن الكون إذ يتفاعلان لينتجا القدرات الفهمية . إن أحداث التاريخ ووقائع الكون تُعرض على العقل فيكتشف سننها ويسخرها .

ودليل صحة الفهم لسنن الخلق هو تمام التسخير حيث تأتي النتائج كاملة ، ولهذا فإن القرآن يأمر بالنظر إلى العواقب وخاصة عواقب الذين خلوا من قبل لاكتشاف سنن المجتمعات ، ولكن المسلم اليوم ما يزال يعيش في مناخ عصور الضعف ، فهو لهذا مقيد بفهم خاطئ يبعده عن إدراك أسرار إلحاح القرآن على النظر في سنن التاريخ وسير البشر . إن المسلم مصاب بمرض (الإعراض) كما يسميه القرآن الكريم .

وهذه المواريث التي تمنع الرؤية الصحيحة آصار وأغلال يجب التخلص منها . كما بحث الكتاب فكرة مهمة وهي :

ملكة البحث لتحصيل القدرات (ص : ٢٠٤ ـ ٢٠٦) :

إن كتاب جيلنا ومن سبقهم لا يبثون في قرائهم اكتساب ملكة البحث لكشف السنن ، بل يكتفون بأن يجعلوا قراءهم مقلدين ، حيث

يحتل الأشخاص مكان الفكرة والحقيقة ، وهذا داء يشل القدرة الفهمية في العالم الإسلامي .

٣ ـ الإرادة كانت قدرة : (ص : ٢٠٦ ـ ٢١٨)

القدرة هي الأصل ثم تأتي الإرادة التي تتفاعل معها . فالأصل أن يفهم الإنسان ما يريد ، فإن إمكان فهم الأفضل يُحدث الإرادة عند الإنسان . وتعود الإرادة فتدفع إلى طلب الصواب وزيادة تحصيل القدرات ، ويكون انتكاس الأمم والمجتمعات بأن ينشأ قوم يقتصرون على جانب واحد ، فتبقى الإرادة عزلاء عن القدرة ، ويقل العلم .. وهو داء العالم الإسلامي الذي أصيب بذهاب العلم .

وقد أخطأ قوم حين ظنوا أن انهيار الأمم وانحطاطها يصاحبه توسع في العلم . وهذا الخطأ بسبب جهلهم أن علماً أساسياً قد فُقِد ، وأن العلم الصحيح لا يكون سبباً للضلال .

ويبيِّن الكتاب إمكانية إعطاء الإرادة قبل القدرة ، إذ إن الإنسان أعطي القدرة على إرادة المثل الأعلى قبل أن يتيسر له معرفة صوابه ، فقد أنزل الله على الناس الهدى الذي تظهر أدلته في كل جيل بما يناسب أحواله .

وإن تعليق أدلة الإيمان في الإسلام بآيات الآفاق والأنفس لدليل على أن البشرية قد بلغت النضج ، وأن الدين الإسلامي صالح لكل زمان ومكان .

إن دليل صحة العلم هو في عاقبته أو نتيجته ، ولهذا يصير الإيمان بالله واليوم الآخر علماً طالما أن نتائجه ترى في حياة الناس ، وهذا ما يجعل الإيمان يقدم إلى الناس بالصورة نفسها التي تقدم بها بقية العلوم وبذلك يصبح الإيمان علماً .

والمسلم اليوم محتاج إلى هذه القدرات الفهمية ليدخل إلى العالم ومعه الهدى ، وإن عالم اليوم المتقدم تكنولوجياً ليمهد لمجيء المثل الأعلى كما مهدت الحضارة الرومانية الطريق للنصرانية .

٤ ـ القدرة الأخلاقية الكامنة : (ص : ٢١٩ ـ ٢٢٨)

إن الباحث التاريخي يرى قيمة البعد الأخلاقي في أحداث البشر ، وفي الاتجاه صوب إقامة الحياة الأخلاقية والتحرر الروحي بتسخير الطاقة المادية للسمو الأخلاقي . واستخدام الإنسان للقدرات المودعة فيه لبلوغ هذا السمو ، يخرج هذا الإنسان من توقعات الملائكة فيه حين توقعت له سفك الدماء والإفساد ، إلى ما علمه الله فيه .

وحتى تصبح القدرات المادية نعمة للإنسان ، يجب أن يتقدم في قدراته النفسية ، وأن تصبح الموازين والمقاييس في مجال التقدم المادي .

وبما أن اكتساب القدرات ولا سيما الفهمية يكون سبباً في التوصل إلى اختيار المثل الأعلى المناسب ، فإن القدرة تكشف أهمية الإرادة ، وتعود الإرادة فتبعث على تحصيل القدرة وهكذا .. فالعلاقة بين الإخلاص والصواب جدلية ، فالإخلاص يدفع إلى طلب الصواب ، والصواب يولد الإخلاص و ينميه . وعدم وضوح هذه العلاقة يشوش موقف الغربي تجاه المسلم ، وموقف المسلم تجاه الغربي .

٥ ـ أسلوب آخر لتعريف الصواب : (ص : ٢٢٨ ـ ٢٣١)

إن الصواب هو كشف العلاقة السليمة بين الإنسان وخالقه بالعبودية ، وبين الإنسان والإنسان بالعدل والإحسان ، و بين الإنسان والكون بالتسخير . والقدرة الفهمية هي التي توصل إلى كشف هذه العلاقات عن طريق دراسة آيات الآفاق والأنفس التي تشهد لآيات الكتاب .

الفصل الخامس

تطبيقات

(ص : ٢٣٣ ـ ٢٧٠)

١ ـ هل عند العالم الإسلامي إرادة ؟ (ص : ٢٣٣ ـ ٢٤٧)

إرادة العالم الإسلامي موجودة وهي أن يعيش حياته وفقاً للإسلام ، وأكثرية المسلمين توافق على اختيار الإسلام نظاماً للحياة . ولكن سبب إحجام المسلم عن التضحية بالنفس والمال هو عدم وضوح جدوى التضحية ، أو جهل الطريقة المجدية للبذل .

ولكن أكثرية الذين يتحدثون عن مصائبنا وهزائمنا ، يرون السبب في عدم الإيمان أو نقص الإرادة ، لأن النصر في زعمهم لا يحتاج لغير الإيمان الذي انتصر به الصحابة ، وبهذا يرفعون عن كاهل الجيل مسؤولية عبء الدرس لتحصيل القدرات الفهمية التي يحتاج إليها العالم الإسلامي ليخرج من محنته .

إن العلم المطلوب تحصيله هو الذي يغير ما بالنفوس ، ولكن

جهود العلماء المسلمين في العصر الحديث اتجهت في الغالب إلى تصحيح العقيدة والدفاع عن الإسلام وتمجيده .

ولكن لِمَ لَمْ تصنع إرادات المسلمين قدراتهم طالما عندهم إرادات ؟ (ص : ٢٤٠ ـ ٢٥٠) .

أولاً : لأن المسلم فقد العلم والمعرفة لما يقوم به ويؤديه على الوجه الصحيح حتى يحقق إرادته ، ولهذا فإن الإخلاص مع الجهل لا يجدي . ومن الجهل فقدان المقياس الموضوعي الذي يميز به المسلم النافع من الضار ، وهذا يؤدي إلى الخوف والانكماش أمام كل جديد وإن كان يحمل النفع .

ثانياً : الفهم الخاطئ لقدر الله ، وذلك أن المسلم زهد في بذل الجهد حين رأى أن إرادته لا تتحقق بجهده الشخصي وإنما بأمر الله ، فتبقى إرادته لا تحمله على السعي لإيجاد القدرات .

ثالثاً : نظر المسلم إلى أحداث الكون والحياة نظراً يخلو من البحث عن القانون والسبب وبداية الأمور وتكوّنها ﴿ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ ؟ [العنكبوت ٢٩/٢٠] .

٢ ـ عمى الألوان : (ص : ٢٤٧ ـ ٢٦٣)

العمى الفكري هـو الـذي يجعـل الإنسـان لا يرى الأمـور والأحداث متكاملة مترابطة ، بل يرى جانباً منهـا دون الآخر ويغفل عن الأسبـاب ، وهـذا مـا يجعلـه يتخبـط ويقع في حيرة ... وقـد سمى القرآن هـذا الأمر : (عمى القلوب) . وقـد يكون المصاب بـه مـؤمنـاً مستعداً للتضحية ، ولكنـه يجهل السبل القويـمة ، كما أنـه لا يظهر عنـد العامة فقط بل عند الخاصة الذين يجهلون سبل استخـدام أنفس وأموال الذين يستعدون للتضحية .

والخلاص منه إنما يتم بـالقـدرة الفهميـة التي يحتـاج إليهـا المسلم ، وإنمـا فهم النـاس العكس وهو أن الحـاجـة إلى زيـادة الإيمـان ، وعـدم وضـوح هـذا الأمر سبَّب الخلـط بين القـدرة والإرادة ، أو بين الإيمـان والإسلام . وقـد أدى اختلاط مـوضـوع المؤمن بـالمسلم إلى تفرقـة وآراء متشعبـة ، وإن أكثر شبـابنـا المتحمس اليوم يـذهب من غير شعور إلى رأي الخـوارج الـذين يكفّرون بـالمعصيـة . إن الإيمـان أكثر ثبـاتـاً من الإسلام وأسرع حصولاً عنـد الإنسـان ، وقـد يتم دفعـة واحـدة ، بينمـا الإسلام معرفة وتطبيق ، والصلة بينهما جدلية .

إن وجود من يستعـد لبـذل المـال والنفس بين المسلمين في سبيـل

الله ، وقلة من يبذل سنين طويلة من البحث الجاد لفهم مشكلات المسلمين على مستوى العصر .. إن هذا الأمر لدليل على وجود الإرادة أو الإيمان ، ونقص القدرة وخاصة الفهمية وهي مشكلة العالم الثالث - لا مشكلة المسلمين وحدهم - حيث تفتقد الكفاءات في تحقيق الإرادات . وحيث يكون التقصير فالسبب نقص القدرات وليس انعدام الإخلاص والإيمان .

والمسلم لا يريد أن يعترف بعجزه ، ولا يستطيع أن يعترف بخطئه لأنه لا يعرف كيف يتخلص منه ، ولا يرى البديل .

٣ - القدرة والإرادة كشريعة وحقيقة : (ص : ٢٦٣ - ٢٦٦)

يسمي الصوفية أنفسهم أصحاب الإرادات ويعتبرون أنفسهم أصحاب الحقيقة ، إلا أن المتصوف يغرق في الإرادة ولا يعود يفرق بين إرادة كونية وأخرى شرعية ، وذلك حين يرى الكون كله مراداً لله بما في ذلك المعاصي ، فتنشأ الشطحات والتشويش . بينما يظهر الجمود عند الفقيه الذي لا يعود يستطيع حركة ولا اجتهاداً . ويظهر هذا ويكثر في عصور التخلف .

٤ ـ موقف أهل الدين والسياسة من نقص القدرة والإرادة :
(ص : ٢٦٦ ـ ٢٧٠)

إن النقص عند المسلمين اليوم هو في جانب القدرات أو جانب الصواب . مع أن الادعاء لديهم بأن النقص في جانب الإرادة أو الإيمان أو الإخلاص . وبسبب من هذا الخطأ فإن أهل الدين يتزمتون ويرمون من يخالفهم بالكفر ويشككون في إيمان من يسعى لاكتساب قدرات جديدة ، وإن أهل السياسة يدين بعضهم البعض الآخر بنيته وإخلاصه ، ويتهمه بالخيانة والعمالة ، ولا يتهمه بنقص القدرة أو العلم . والأسلوب عند أهل السياسة والدين واحد وهو أسلوب السهولة : لأن تحصيل القدرات يحتاج إلى جهد وأدلة . إن أسلوب السهولة يجد أرضاً خصبة في مجتمع فقدت فيه الأفكار قيمتها ، ولهذا الأسلوب خطره في فرض الرقابة ومصادرة الفكر ، والاعتماد على الإخلاص دون الوعي .

☆ ☆ ☆

كتب للمؤلف

مذهب ابن آدم الأول : أو

(مشكلة العنف في العمل الإسلامي)

يبرز المؤلف في هذا البحث الأسلوب الذي زكاه الله في موقف ابن آدم الأول من أول نزاع حدث في مطلع البشرية .. ليكون هذا الأسلوب المزكى من قبل الله نبراساً للبشرية في خط سيرها الطويل . ويهدف إلى إيجاد أسلوب آخر لحل مشكلات البناء . وهو وإن كان يوجه الكلام إلى الإسلاميين ليدلهم على الطريق ، إلا أنه لم يقصد الاقتصار عليهم ؛ بل يريد أن يضع أمام ضمير الآخرين هذا الأسلوب في العمل ليكون موضع تأملهم . ويبين أن على المسلمين من أجل استئناف الحياة الإسلامية أن يقوموا بعملية البلاغ المبين ، وأن يؤدوا واجباتهم بصرف النظر عن الحق الذي لهم .

فقدان التوازن الاجتماعي

يدرس الكتاب إنسان مجتمعنا الذي يتردد بين مبدئه وضغط الواقع . ويبين أن الانفصام الاجتماعي الذي يعانيه مسلم اليوم ، هو

الذي يفقده توازنه ويحمله على الانسحاب من المجتمع أو الذوبان فيه .
وأن من الشروط الأساسية لتحقيق التوازن الاجتماعي :

- أن ندخل المجتمع ونحن نعتقد أن لدينا عقيدة تنقذه .
- أن ندخل المجتمع لنغيّره ، لا لنقلّده .
- أن نقدم الإيمان بأدلته من عالم الشهادة .

حتى يغيروا ما بأنفسهم

ينطلق المؤلف من شرح قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد ١١/١٣] . ويحاول أو يوضح أن أساس مشكلة تخلف المسلمين ، هو جهلهم أن مشكلتهم تخضع لقوانين يمكن كشفها وتسخيرها ..

ويبين المؤلف أن الدعوات التي تركت أثرها العميق في تاريخ البشرية ، إنما بدأت تأثيرها على نفس الإنسان وفكره فغيَّرتها ؛ وأن هذا التغيير يخضع لقواعد وقوانين هي سنن الله في النفس والمجتمع التي يرتقي المجتمع أو يتخلف بحسبها ...

الإنسان : حين يكون كلاًّ وحين يكون عدلاً

ينطلق المؤلف من شرح قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً

رَجُلَيْنِ : أَحَدهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ . هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [النحل ١٦ /٧٦] .

ويهدف إلى بيان أن البشر يمكنهم باستخدام سنن تغيير النفس والمجتمع ، رفع أو خفض مستوى الأفراد والمجتمعات . ويشرح فكرة « الفعالية » ، ويبين أنَّ أهم شروطها :

- أن نبحث أسباب الأحداث ، ونعترف بجهد الإنسان فيها .

- أن يتحرك الإنسان بين حدّي الرجاء والخوف ، من أجل خير يجلبه أو شر يدفعه ..